عظماء الماضي

تأليف

الدكتور بوجين بورد الفرنسيسي و الأستاذ انطون شكري لورنس

عُنيت بنشره

مكتبة بيت المقدس

١٩٣٦

المطبعة العصرية — القدس



عظماء الماضي

تأليف

الدكتور بوجين بودا الفرنسيسي و الأستاذ انطون شكري لورنس

عُنيت بنشره

مكتبة بيت المقدس

١٩٣٦

المطبعة العصرية — القدس

تمهيد

في كتابنا هذا، نعرِضُ تاريخَ الماضي بسردنا وقائعَ حياةِ فريقٍ من عُظمائه. فإنّ عُظماءَ البشر أَشبهُ بمراحلَ قائمةٍ على طريقِ الماضي. وفي الإمكان أَن نفهم التاريخ بكامله، بوقوفنا على ما وقع لهؤلاءِ العظماءِ من الحوادثِ، وما قاموا به من الأَعمال.

ويرى الكثيرون من صغار الناشئةِ أَن التاريخَ يقومُ بحوادثَ مستقلَّةٍ، وأَسماءٍ ومواقيتَ، وأَنه إِذا سقط أَحدُ هذه الأَسماءِ والمواقيت، فكلُّ اسمٍ أَو ميقاتٍ آخرَ يصلُح لأَن يسُدَّ الفراغ. وعلى هٰذا، فكلُّ الذين مضَوا يُعدّون، في عُرف هؤلاء، قد عاصر بعضُهم بعضاً، وكلُّ حادثٍ وقع في الماضي كان في الإِمكان وقوعُه في الوقت الذي وقع فيه أَيُّ حادثٍ سواه. فالتاريخ، والحالة هذه، تنعدم الفائدةُ المتوخاة منه، ويُصبحُ درسُه جافًّا.

ليس من شأن الكاتبين أَن يقضوا على اهتمام الناشئة بحكاية النوع البشريّ، بل من شأنهم أَن يُنبهوا فيهم هذا الاهتمامَ ويُقوّوه، ويوحوا اليهم المُثُلَ العُليا. وفي التاريخ عِبَرٌ تسبُق عِبَرَ الزّمن. وسنصبح كلُّنا حكماءَ غداً بما نتعلمه بالاختبار، ولكننا ندرس التاريخ لِنكونَ حكماءَ اليوم.

إقرأْ حكايةَ حياة رجل عظيم، من أُولئك الذين هم في الحقيقة عظماء في نظر العالم، وأَنسَ قوميَّتهُ، ولكن تبصَّرْ في محيطِه، وأُنظرْ هل كانت له غايةٌ جُلّى في الحياة؟ وهل ثَمَّةَ وجهُ شَبَه بين تلك الغايةِ وغايتِك نفسِها؟ وما الذي أَتاه هذا الرجلُ من العظائم؟ وما هي عناصر العظمةِ والضَّعفِ في أَخلاقه؟ وهل تُعجَب به اليوم؟ وهل في إمكانك أَن تُصلحَ أَخطاءه؟ وما هي العِبَرُ التي أُفِدْتَها بمطالعتك وقائعَ حياته؟

في الإمكان أَيها القارئُ الكريم أَن نُفادَ الكثيرَ بوقوفنا على حياة العظماء. ففيها مناورُ قامت على المشارفِ لتضيء سُبُلَنا. وقد توخَّينا أَن نُعيد هؤلاء العظماء الى الحياة بآمالهم، وبما أَصابوه من فَوْزٍ، وصادفوه من خَيبة، لِنجعلَ تاريخ البشرية مفيداً لك

ممتعاً . في الماضي القصيِّ ، جعلنا بطل الحكاية ، كما في حكاية خوفو ابنِ النيّل ، يحيا حياتَهُ البسيطة ، ليقفَنا على نشأةِ المدنيَّة . ونرى أبطالنا في فجر تاريخ الشرق يجاهدون في سبيل غاياتٍ أسمى ، ويعملون على إخضاع قوى الطبيعة ، لِنستمتعَ بثمرةِ جهادهم . ويسيرُ العالم من ثَمَّ الهُوينا في طريق النُّشوء ، وعندما نصلُ الى اليونان والرومان ، نرى أن كلَّ بطل عظيم يقوم بما هو من شأن الرجال . ثم يُكشف الستارُ شيئاً فشيئاً عن وجه أُوربّا ، إلى أن يسطعَ النور على الجُزُرِ في البحار الغربيَّة . فلا تلبثُ الكواكب الوُضَّاءة أن تتألَّقَ في كبِدِ السماء ، بيد أن الأنوارَ الضئيلة تظلُّ ظاهرةً للعِيان .

ويبدو أبطالنا أحياناً في مظهر الأطفال ، ويبدون أحياناً في غيره من المظاهر المختلفة . وفي الواقع أننا أطفالٌ من وجوه عِدَّة ، ونودُّ أن نُعالَ ونُعامَلَ كما يُعالُ الأطفالُ ويُعامَلون . بيدَ أنَّ كلَّ قِصَّةٍ تاريخيةُ المادَّة ، مهما كان مبلغها من السَّذاجة ، وفي كُلٍّ منها عِبْرةٌ حَرِيَّةٌ بالتأمُّل والإعجاب على حدٍ سوًى .

وإذا كان هذا الكتاب يزيد مطالعه معرفةً بماضي النوعِ البشري

ووجوهِ معيشته ، وأَوضاعِه ، وجهادِه ، وما صادفه من فوز ولَقِيَه من خيبة ؛ وإِذا كان يُبيِّنُ ، بوجهٍ ما ، شيئاً من أُصولِ مدنيتنا الحديثة ، وعاداتِها ، وأَوضاعِها ، ومُثُلِها العُليا ، وسيرتِها ؛ وإِذا كان فيه العَونُ على أَن يبعثَ فينا قوَّةَ الحكم على مظاهر الحياة ، التي تحدِقُ بنا ، بما هي أَهلٌ له ؛ وإِذا كان يَهيجُ النفسَ ويُلهِمُها ، بما فيه من حكايات الرجال ذوي العزم ، والحزم ، والإِبداع ، الذين كيَّفوا حظَّ النوع البشري ؛ وإِذا لم يكن فيه الأَواحدةٌ من هذه الفوائد ، ولم تَعْدُ هذهِ الفائدةُ الواحدَ من الناس ، فلا يكونُ المؤلفان قد أَخطآ القصد .

خُوفُوابنُ النِّيلِ وقَبْرُهُ

لمّا كانَ ٱلبَشَرُ، في قِفارِ أُورُبّا ٱلفَسيحَةِ، لا يَزالونَ مُنْغَمِسينَ في هَمَجِيَّةِ[1] ٱلعَهْدِ ٱلحَجَرِيِّ ، أَيّامَ لم يَكونوا يَسْتَعْمِلونَ سِوى ٱلأَدَواتِ ٱلمَصْنُوعَةِ مِنَ ٱلحَجَرِ ، كانَتْ حياةُ ٱلحَضارَةِ[2] قَدِ ٱبْتَدَأَتْ في مِصْرَ، على ضِفافِ ٱلنّيلِ. وَيَنْقَسِمُ تاريخُ هٰذِهِ ٱلحضارَةِ الَّتي نَشَأَتْ في وادي النِّيلِ، إلى ثَلاثَةِ أَعْصُرٍ كَبيرَةٍ، يُدْعى أَوَّلُها عَصْرَ ٱلأَهْرامِ[3] (مِنْ سَنَةِ ثَلاثَةِ آلافٍ إلى سَنَةِ خَمْسِ مِئَةٍ وَأَلْفَيْنِ قَبْلَ ٱلمَسيحِ). وَقَدِ ٱكْتَشَفَ ٱلمِصْرِيّونَ في هٰذا ٱلعَصْرِ ٱلنُّحاسَ، في شِبْهِ جَزيرَةِ سِينا، وَٱسْتَعانوا بِهِ على بِناءِ تِلْكَ ٱلقُبُورِ الضَّخْمَةِ ٱلَّتي نَدْعوها ٱلأَهْرامَ . وَكانَ هٰذا ٱلعَصْرُ أَمْجَدَ عُصورِ ٱلتّاريخِ ٱلمِصْرِيِّ . وَتَلاهُ عَصْرانِ آخَرانِ عَظيمانِ :

فَجاءَ بَعْدَ عَصْرِ ٱلأَهْرامِ ما نُسَمّيهِ عَصْرَ ٱلإِقْطاعِ[4] (نَحْوَ

---

(١) الهمجية : ألتوحش . (٢) الحضارة : ألمدنية . (٣) ألأهرام جمع هرم : المخروط المضلع الذي تكون قاعدته مثلثة أو مربعة أو كثيرة الأضلاع. وعلى هذا الشكل بنيت أهرام مصر الشهيرة لتكون مدافن لملوكها. (٤) ألاقطاع مصدر أقطع : تقول أقطع الامير الجند أرضاً أي جعل لهم غلتها رزقاً .

سَنَةِ أَلْفَيْنِ، قَبْلَ ٱلْمَسِيحِ). وَقَدِ ٱشْتَدَّتْ فِي هٰذَا ٱلْعَصْرِ شَوْكَةُ[١] ٱلنُّبَلاءِ، بِمَا كانَ يُقْطِعُهُمْ إِيّاهُ ٱلْمَلِكُ، مِنْ بِقاعِ ٱلأَرْضِ[٢]. نَعَمْ، كانَ فِي هٰـذا ٱلْعَصْرِ فَراعِنَةٌ، أَوْ مُلُوكٌ، كَما فِي عَصْرِ ٱلأَهْرامِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ كانوا أَقَلَّ سَطْوَةً[٣]. وَقَدِ ٱرْتَقَتِ ٱلْعُلُومُ فِي عَصْرِ ٱلإِقْطاعِ، حَتّى إِنَّ قواعِدَ ٱلْحِسابِ ٱلْبَسِيطَةَ كانَتْ تُسْتَعْمَلُ وَقْتَئِذٍ. وَهَيَّأَ فِرعَوْنُ جَيْشاً صَغيراً ثابتاً، كَثِيراً ما غَزا[٤] بِهِ فِلِسْطِينَ.

وفي نَحْوِ سَنَةِ ثَمانِي مِئَةٍ وأَلْفٍ، قَبْلَ ٱلْمَسِيحِ، ضَعُفَتْ سُلْطَةُ فَراعِنَةِ ٱلْعَصْرِ ٱلإِقْطاعِيِّ، حَتّى صارَتْ إِلى ٱلزَّوالِ. وجاءَ عَصْرٌ جَدِيدٌ، هُوَ عَصْرُ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ (ما بَيْنَ سنةِ ثَمانِينَ وخَمْسِ مِئَةٍ وأَلْفٍ، وسنةِ خَمْسِينَ ومِئَةٍ وأَلْفٍ، قَبْلَ ٱلْمسيحِ). فَجِيءَ بِٱلْخَيْلِ مِنْ آسِيا، وَأَصْبَحَ فِرْعَوْنُ قائِدَ جَيْشٍ، وَلَمْ تَلْبَثْ مِصْرُ أَنْ صارَتْ إِمْبَراطورِيَّةً عَسْكَرِيَّةً ٱمْتَدَّتْ شَرْقاً، حَتّى نَهْرِ ٱلْفُراتِ. وَدامَتْ هٰـذِهِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةُ، مِنَ ٱلقَرْنِ ٱلسّادِسَ عَشَرَ، إِلى ٱلْقَرْنِ ٱلثّانِيَ عَشَرَ، قَبْلَ ٱلْمَسِيحِ. وَقَدْ بُنِيَ، في هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ، كَثِيرٌ مِنْ عِظامِ

---

(١) ألشوكة : ألقوة والبأس. (٢) بقاع جمع بقعة (بضم الباء) : القطعة من الأرض.
(٣) السطوة : ألقدرة على قهر الغير . (٤) غزا القوم : سار إلى قتالهم وانتهابهم في ديارهم.

ٱلرَّوائعِ [١] ٱلَّتي نُشاهِدُها في مِصْرَ ٱليَوْمَ. وَلٰكِنْ جاءَ وَقْتٌ، سَقَطَتْ فيهِ الإِمْبَراطورِيَّةُ ٱلمِصْرِيَّةُ ٱلعظيمَةُ، وَبَعْدَ أَنْ كانَتْ مِصْرُ مُتَسَلِّطَةً على آسِيا ٱلغَرْبِيَّةِ، أَصْبَحَتْ آسِيا ٱلغَرْبِيَّةُ مُتَسَلِّطَةً على مِصْرَ.

*
* *

في عَصْرِ الأَهْرامِ، كانَ لِأَحَدِ ٱلفَراعِنَةِ، مُلوكِ مِصْرَ، وَلَدٌ يُدْعى خوفو. وَكانَ يُقيمُ بِمَدينَةٍ، تُدْعى مَمْفيسَ، واقِعَةٍ على نَهْرِ ٱلنّيلِ، في مِصْرَ السُّفْلى، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ ٱلمَكانِ الَّذي تَقومُ عَلَيْهِ مَدينَةُ ٱلقاهِرَةِ ٱليَوْمَ، وَحَيْثُ يَبْتَدِئُ تَشَعُّبُ [٢] النّيلِ لِيُكَوِّنَ الدِّلْتا.

وَكانَ هٰذا ٱلنَّهْرُ ٱلعَظيمُ يَطْمو [٣] ماؤُهُ، وَيَفيضُ في كُلِّ سَنَةٍ مِنْ ضِفَّتَيْهِ [٤]، فَيَغْمُرُ [٥] ٱلأَرْضَ عَلَى جانِبَيْهِ، مِنْ شَهْرِ تَمّوزَ إِلى شَهْرِ أَيْلولَ. وَكانَ خوفو يَبْتَهِجُ بِذٰلِكَ، لِعِلْمِهِ أَنَّ ٱلأَرْضَ، بَعْدَ ٱلفَيَضانِ، تَتَغَطّى بِطَبَقَةٍ مِنَ الطّينِ النّاعِمِ ٱلخَصِبِ، فَيَزْرَعُ فيهِ ٱلفَلّاحونَ ٱلحَبَّ.

وَكانَ خوفو، عِنْدَ ٱبْتِداءِ ٱلفَيَضانِ، يَسيرُ مَعَ أَبيهِ، إِلى نَهْرِ

---

(١) ألروائع جمع رائعة وروائع : ألذي يعجب الناس بحسنه . (٢) تشعب النهر : تفرقت منه انهار . (٣) طما الماء يطمو: إرتفع وملأ النهر . (٤) الضفة: جانب النهر. (٥) غمره الماء : علاه وغطاه .

أَلنِّيلِ فِي مَوْكِبٍ [١] عَظِيمٍ، فَيَتَقَدَّمُ فِرْعَوْنُ أَلْجَمْعَ، يَتْبَعُهُ صَفٌّ طَوِيلٌ مِنَ أَلْكَهَنَةِ، لابِسِينَ الْحُلَلَ [٢] أَلْبِيضَ. وَيَأْتِي وَراءَهُمْ جَماعَةٌ مِنَ أَلْخَدَمِ، يَحْمِلُونَ سِلالاً مَمْلُوءَةً قَمْحاً، وَتَمْراً، وَتِيناً. وَيَتْلُو [٣] هَؤُلاءِ فَرِيقٌ مِنَ أَلشُّبّانِ، يَقُودُونَ ثَوْراً أَبْيَضَ. وَيَتَّجِهُ أَلثَّوْرُ إِلى أَلْيَمِينِ حِيناً، وَإِلى أَلشِّمالِ حِيناً آخَرَ، لِأَنَّ جَماعاتٍ مِنَ أَلْفَتَياتِ، يَكُنَّ عَلى جانِبَيْهِ، يَرْقُصْنَ وَيُغَنِّينَ، عَلى نَغَمِ أَلْمَزامِيرِ وَأَلدُّفُوفِ. وَتَتْبَعُ جَماهِيرُ أَلشَّعْبِ أَلْمَوْكِبَ، تُنْشِدُ التَّسابِيحَ [٤] لِإِلٰهِ أَلنِّيلِ.

وَقَدْ كانَ لِلْمِصْرِيِّينَ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ، وَلٰكِنَّهُمْ كانُوا يَخُصُّونَ أَثْنَيْنِ مِن هٰذِهِ أَلْآلِهَةِ بِأَعْظَمِ العِبادَةِ. فَالشَّمْسُ الَّتِي تُشْرِقُ، فِي جَلالٍ عَظِيمٍ، فِي سَماءِ مِصْرَ الصّافِيَةِ، كانَتْ أَعْظَمَ آلِهَةِ أَلْمِصْرِيِّينَ. وَكانُوا يُسَمُّونَها رَعْ. وَكانَ النِّيلُ أَلْمُتَأَلِّقُ [٥]، هُوَ الإِلٰهَ أَلْعَظِيمَ أَلثّانِيَ الَّذِي كانَ أَلْمِصْرِيُّونَ يُبالِغُونَ [٦] فِي عِبادَتِهِ وَإِكْرامِهِ. وَكانُوا يُسَمُّونَهُ أُوزِيرِيسَ. [٧] وَقَدْ كانَ جَمِيلاً مِن أَلْمِصْرِيِّينَ القُدَماءِ أَعْتِقادُهُم أَنَّ ما

---

(١) ألموكب: ألجماعةركباناًاومشاة. (٢) ألحلل جمع حلة: الثوب الجديداوعموماً الثوب الساتر لجميع البدن. (٣) تلا يتلو: يتبع. (٤) التسابيح جمع تسبحة: الصلاة. (٥) المتألق: اللامع. (٦) يبالغون: يفرطون ويزيدون. (٧) الأحرى ان اليونان هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم.

كانَ يَجودُ عَلَيْهِمْ بِالنّورِ، وَالقوتِ، في هٰذا العالَمِ، يُعنى بِهِمْ[١] أَيْضاً في العالَمِ الآتي .

وكانَ خوفو، هُوَ أَيْضاً، يُشارِكُ القَوْمَ في الإِنْشادِ، لِأَنَّهُ كانَ نَظيرَهُمْ، يَعْتَقِدُ أَنَّ في أَحَدِ الأَقْطارِ[٢] النّائِيَةِ[٣]، حَيْثُ مَنابِعُ النّيلِ، إِلٰهاً وإِلٰهَةً يَحْرُسانِ الماءَ. وَلَمّا كانَ المَوْكِبُ يَصِلُ إِلى النَّهْرِ، كانَتِ الأَثْمارُ والحُبوبُ تُطْرَحُ في الماءِ، وكانَ الكاهِنُ الأَعْظَمُ يُجَرِّدُ سِكّينَهُ المُقَدَّسَةَ، وَيَذْبَحُ الثَّوْرَ، ثُمَّ يُلْقيهِ في النَّهْرِ. وَكانَ خوفو يَسْجُدُ لِلنَّهْرِ، شاكِراً الإِلٰهَ العَظيمَ، لِأَنَّهُ جادَ بِالماءِ الغَزيرِ الَّذي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُؤْتِيَ[٤] بِلادَهُ غَلَّةً طَيِّبَةً .

وَتَنْقَضي بِضْعَةُ أَسابيعَ، لا يَرى فيها خوفو سِوى بَحْرٍ عَظيمٍ، وَيَنْتَظِرُ، صابِراً، أَنْ يَرْتَفِعَ النَّهْرُ إِلى الحَدِّ الأَعْلى، ثُمَّ يَذْهَبُ مَرَّةً أُخْرى، وَيُقَدِّمُ التَّقادِمَ[٥] لِلإِلٰهِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنِ النَّهْرُ يَفيضُ، لَكانَ خوفو يَهْتَمُّ[٦] وَيَكْتَئِبُ، لِاعْتِقادِهِ أَنَّ الإِلٰهَ غَضْبانُ.

---

(١) يعنى بهم: يهتم بهم. (٢) أقطار جمع قطر (بضم القاف) : الأقليم والناحية .
(٣) النائية : البعيدة. (٤) يؤتي مضارع آتى : أعطى . (٥) التقادم جمع تقدمة (بكسر الدال) : الهدية. (٦) يهتم : يغتم.

وَكانَتْ عيشَةُ خوفو ٱلصَّغير، بوَجْهِ ٱلإِجْمالِ، عيشَةً بَهيجَةً(١) راضِيَةً، لِأَنَّهُ كانَ، بَعْدَ أَن تُزْرَعَ ٱلحُبوبُ، في ٱلـغَرينِ(٢) ٱلجَديدِ ٱلْخَصِبِ، وَيَأْتِيَ زَمَنُ ٱلحِصادِ، يَخْرُجُ لِزِيارَةِ ٱلْمَزارِعِ، مَعَ أَحَدِ عُمّالِ فِرْعَوْنَ، وَيُعايِنُ ٱلـكُتّابَ، يَكْتُبونَ حِسابَ ما يَكُونُ الفَلاّحونَ قَدِ ٱسْتَنْبَتُوهُ(٣) مِنَ الذُّرَةِ، وٱلفولِ، وٱلقُطْنِ.

وَكانَ ٱلْأَميرُ الصَّغيرُ يَرى أَبْهَجَ لَهُ أَنْ يَرْكَبَ حِمارَهُ، لِأَنَّ ٱلخَيْلَ لَمْ تَـكُنْ قَدْ أُدْخِلَتْ إِلى مِصْرَ وَقْتَـئِذٍ، وَيَتَنَزَّهَ بَيْنَ ٱلْمَزارِعِ، مِنْ أَنْ يَظَلَّ في ٱلقَصْرِ، يُشاهِدُ ٱلنّاسَ يَسْجُدونَ لِأَبيهِ. وَكانَ يَذْهَبُ أَحيانًا إِلى النَّهْرِ، وَيَرْجِعُ مِنْ ثَمَّ(٤) إِلى مَنْزِلِهِ، حامِلاً، في ٱلغالِبِ، أَزْهاراً، وَشَيْئًا مِنْ قَصَبِ ٱلـبَرْدِيِّ(٥)، لِيَصْنَعَ مِنْهُ وَرَقًا يَكْتُبُ عَلَيْهِ.

وَكانَ خوفو يَعْلَمُ بِفائِدَةِ قَصَبِ ٱلـبَرْدِيِّ، لَدى عَوْدَتِهِ إِلى مُواصَلَةِ ٱلدَّرْسِ، لِأَنَّهُ كانَ يَـنْبَغي لَهُ، وَهُوَ ٱبْنٌ لِفِرْعَوْنَ، أَن

---

(١) بهيجة: حسنة. (٢) ألغرين: ألطين الذي حمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً كان او يابساً. (٣) إستنبتوه: زرعوه لينبت. (٤) ثم: إسم يشار به إلى البعيد بمعنى هناك. (٥) ألبردي: نبات كالقصب كان قدماء المصريين يستخدمون قشره للكتابة.

يَتعَلَّمَ ٱلقِراءةَ والْـكِتابَةَ . وَكانَتِ ٱلْمَدْرسَـةُ في قَصْرِ أبيـهِ ، وَتُدْعى دارَ ٱلْـكُتُبِ . والأَوْلادُ الَّذينَ كانوا يَرْغَبونَ أَن يَصيروا كَتَبَةً ، وَيَتَعَلَّموا كَيْفَ يَمْسَحونَ[١] أَرْضَ فِرْعَوْنَ ، كانوا يَتَعَلَّمونَ مَعَ خوفو . وَكانَ ٱلْأَوْلادُ يَصْنَعونَ ، هُمْ أَنْفُسُهُمْ ، ما يَحْتاجونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلأَقْلامِ وَٱلْوَرَقِ . أَما ٱلأَقْلامُ فَكانوا يَتَّخِذونَها مِنْ قَصَبٍ ، يَبْرونَ أَطْرافَهُ ، وأَمّا ٱلْوَرَقُ ، فَكانوا يَصْنَعُونَهُ مِنَ ٱلْقَصَبِ أَيْضاً ، بِأَنْ يُشَقِّقوهُ شِقَقاً[٢] دَقيقَةً[٣] مُسْتَطيلَةً ، ثُمَّ يَضَعونَها ٱلواحِدَةَ إِلى جانِبِ ٱلأُخرى ، على شَيْءٍ مُسَطَّحٍ[٤] ، وَيَضَعونَ أُخرى فيما بَيْنَها ، في ٱلعَرْضِ ، ثُمَّ يُبَلِّلونَها بِٱلْمـاءِ ، وَيَضْغَطونَها بِشَيْءٍ ثَقيلٍ ، حَتَّى تَجِفَّ ، وَيَلْتَصِقَ بَعْضُها بِبَعْضٍ ، وَتَصيرَ صَحائِفَ[٥] ، مُعَدَّةً لِلصَّقْلِ[٦] . وَبَعْدَ أَنْ تُصْقَلَ هٰذِهِ الصَّحائِفُ ، تُجْعَلُ أَدْراجاً[٧] ، يَسْتَطيعُ التَّلاميذُ ، في دارِ ٱلْـكُتُبِ ، أَن يَتَمَرَّنوا بِها عَلَى ٱلْـكِتابَةِ .

---

(١) يمسحون الأرض: يقيسونها ويقسمونها. ٢ شقق جمع شقة (بكسر الشين) . ما شق مستطيلا . (٣) دقيقة : ضد غليظة. (٤) مسطح : منبسط جداً. (٥) صحائف جمع صحيفة : ألورقة. (٦) الصقل: الجلاء والتمليس. (٧) أدراج جمع درج(بفتح الدال) : ألورقة الملفوفة.

وَكانَ خوفو يَعْمَلُ مُجْتَهِداً ، وَغَشّى [١] كَثيراً مِنْ أَدْراجِ ٱلْبَرْدِيِّ بِٱلرُّسومِ، لِأَنَّ ٱلْمِصْرِيّينَ كانوا يَسْتَعْمِلونَ، لِلْكِتابَةِ، صُوَراً، بَدَلاً مِنَ ٱلحُروفِ ، وَكانَ يَلْزَمُهُمْ مِراسٌ [٢] طَويلٌ لِإِتْقانِ هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ .

وَلَمْ يَكُنْ خوفو يَرْكَنُ [٣] إِلى ٱلْكَسَلِ إِلاَّ فيما نَدَرَ، لِعِلْمِهِ أَنَّهُ يُصْبِحُ، يَوْماً ما، فِرْعَوْناً. وَلَمّا كانَ ٱلأَوْلادُ يَخْرُجونَ مِنَ ٱلمَدْرَسَةِ لِيَلْعَبوا، كانَ هُوَ يَذْهَبُ إِلى ٱلهَيْكَلِ، لِيَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُقَدِّمُ الذَّبائِحَ، وَيُخاطِبُ ٱلآلِهَةَ ، لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كانَ رَئيسَ ٱلْكَهَنَةِ في مِصْرَ .

وَقَدْ تَعَلَّمَ خوفو، في جُمْلَةِ ما تَعَلَّمَهُ مِنَ ٱلْكَهَنَةِ، أَنَّ روحَهُ، بَعْدَ مَوْتِهِ، تُسافِرُ سَفَراً طَويلاً، إِلى أَنْ يَحينَ وَقْتُ عَوْدَتِها، إِلى مَنْزِلِها ٱلْقَديمِ . وَلَمّا كانَ ٱلمِصْرِيّونَ يَعْتَقِدونَ أَنَّ الرّوحَ لا بُدَّ أَنْ تَعودَ، يَوْماً، إِلى ٱلْجَسَدِ، فَقَدْ ظَنّوا أَنَّ ٱلْجَسَدَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ مُجَهَّزاً عَلَى الدَّوامِ ، لِكَيْ يَتَيَسَّرَ لِلرّوحِ أَنْ تَهْتَدِيَ

---

(١) غشى : غطى . (٢) مراس : مزاولة ومعاناة . (٣) يركن . يميل

إِلَيْهِ. وَلِذا كانوا يُحَنِّطُونَ[١] الجَسَدَ بِأَنْواعِ الحَنوطِ[٢]، لِيَحْفَظوهُ مِنَ البِلى،[٣] وَيَلُفُّونَهُ بِعَصائِبَ[٤] حَتَّى لا يَمَسَّهُ شَيْءٌ. ثُمَّ يَضَعونَ الجُثَّةَ، الَّتي كانوا يُسَمّونَها مُومِيا، في صُنْدوقٍ، وَيُصَوِّرونَ وَجْهَ المَيْتِ بِالأَصْباغِ[٥]، على خارِجِ الصُّنْدوقِ؛ حَتَّى إِذا ما رَجَعَتِ الرُّوحُ مِنْ سَفْرَةِ المَوْتِ، يَسْهُلُ عَلَيْها الاهْتِداءُ إِلى مَنْزِلِها القَديمِ.

وَلَمّا كانَ فَراعِنَةُ مِصْرَ يَعْتَقِدونَ أَنَّ أَرْواحَهُمْ لا بُدَّ أَنْ تَعودَ، فَقَدْ بَنَوْا لِأَنْفُسِهِمْ قُبوراً عَظيمَةً جَميلَةً جِدّاً، وَصَوَّروا عَلَى جُدْرانِها صُوَراً، تُشيرُ إِلى حَياتِهِمِ اليَوْمِيَّةِ وأَعْمالِهِمِ العَظيمَةِ.

وَلَمّا كَبِرَ خوفو في السِّنِّ، وَصارَ فِرْعَوْناً، هُوَ أَيْضاً، صَمَّمَ عَلَى أَنْ يَكونَ لَهُ قَبْرٌ، أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ ما بُنِيَ مِنَ القُبورِ. وَيُمْكِنُكُمْ، إِذا ذَهَبْتُمْ إِلى مِصْرَ اليَوْمَ، أَنْ تَرَوْهُ هُناكَ، فَهُوَ قائِمٌ عَلَى حاشِيَةِ[٦] الصَّحْراءِ، قَريباً مِنْ مَدينَةِ القاهِرَةِ، وَيُسَمّى الهَرَمَ الأَكْبَرَ.

---

(١) يحنطون الميت: يعالجون جثته ويحشونها بالحنوط كي لا يدركها فساد.
(٢) الحنوط: كل طيب يمنع الفساد تحشى به جثة الميت بعد تجويفه فتحفظه من البلى طويلا. (٣) البلى: الفساد. (٤) عصائب جمع عصابة (بكسر العين): ما عصب به من منديل ونحوه. (٥) أصباغ جمع صبغ (بكسر الصاد) ما يصبغ به. (٦) الحاشية: الجانب

وَقَدْ أَقْبَلَ ٱلْعُمَّالُ عَلَى الرِّمالِ، فَأَزاحوها ومَهَّدوا[١] ٱلْمَكانَ. وَكانَ ٱلْبَنَّاؤُونَ يَشْتَغِلُونَ طولَ النَّهارِ في ٱلْحَرِّ. وَلَمّا كانَ في ٱلْعَزْمِ أَنْ يُجْعَلَ قَبْرُ خوفو كَبيراً جِدًّا، فَقَدْ دَعَتِ ٱلْحاجَةُ إِلى بِناءِ ظُلَلٍ[٢]، تَتَّسِعُ لِأَرْبَعَةِ آلافِ عامِلٍ. ثُمَّ مَهَّدَ بَعْضُ هٰؤُلاءِ ٱلْعُمّالِ طَريقاً طَويلاً، لِكَيْ تُجَرَّ عَلَيْهِ قِطَعُ ٱلْحِجارَةِ ٱلْكَبيرَةِ، وَٱشْتَغَلَ آخَرونَ في مَقاطِعِ ٱلْحِجارَةِ، الَّتي كانَتْ تَبْعُدُ سَبْعَةَ أَمْيالٍ، عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ الأُخْرى.

وَرَأَى خوفو، مَعَ ذٰلِكَ، أَنَّ عَدَدَ ٱلْعُمّالِ لَمْ يَكُنْ كافِياً، إِذْ كانَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ قَبْرُهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ ما عُرِفَ مِنَ القُبورِ. وَٱحْتاجَ إِلى عُمّالٍ آخَرينَ، لِيَشْتَغِلوا في مَقاطِعِ ٱلْحِجارَةِ، وآخَرينَ، لِيَنْحَتوا ٱلْحِجارَةَ ٱلْمُحَبَّبَةَ[٣] وٱلْجيرِيَّةَ[٤]، وإِلى آخَرينَ، لِيَرْفَعوا تِلْكَ ٱلْحِجارَةَ ٱلضَّخْمَةَ إِلى أَماكِنِها، وإِلى غَيْرِهِمْ، لِيُسَيِّروا ٱلْمَراكِبَ ٱلَّتي كانَتْ تَنْقُلُ هٰذِهِ ٱلْحِجارَةَ في نَهْرِ النّيلِ. وَلِذا،

---

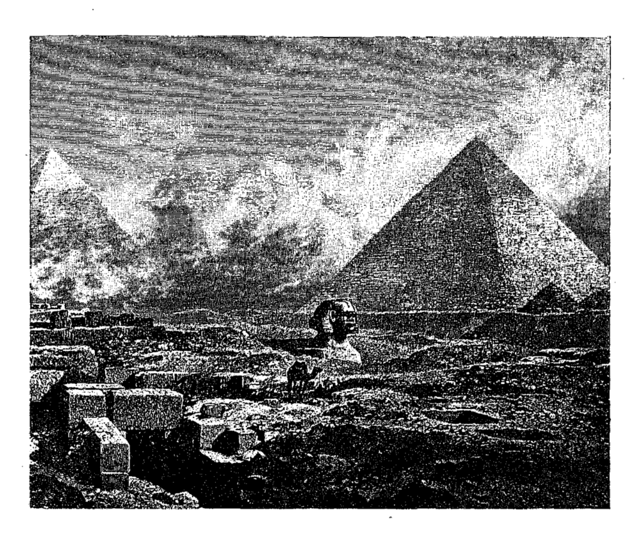
(١) مهد الطريق: بسطها وسهلها. (٢) ظلل جمع ظلة (بضم الظاء): ما يستظل به من الحر والبرد (٣) الحجارة المحببة: حجارة من الصوان (بفتح الصاد) تدعى بالغرانيت. (٤) الحجارة الجيرية: الحجارة الكلسية.

لَمَّا كانَ النِّيلُ يَفيضُ، فَلا يَقْدِرُ النّاسُ عَلَى الْعَمَلِ في الْمَزارِعِ، كانَ خوفو يُرْسِلُ الرُّسُلَ إلى أَنْحاءِ[1] الْمَمْلَكَةِ، وَيأْمُرُ النّاسَ، في كُلِّ قَرْيَةٍ، أَنْ يَأْتوا لِمُساعَدَةِ الْبَنّائينَ. فَاجْتَمَعَ لَدَيْهِ مِنَ الْعُمّالِ، عَلَى هٰذا الْوَجْهِ، نَحْوُ[2] مِئَةِ أَلْفٍ، كانوا يَشْتَغِلونَ، إلى أَنْ يَهْبِطَ الْماءُ، ثُمَّ يَعودونَ إلى مَنازِلِهِمْ.

وَقَدِ اهْتَمَّ خوفو بِقَبْرِهِ، فَكانَ يُراقِبُ الْبَنّائينَ، وَهُمْ يَرْفَعونَ الْحِجارَةَ الضَّخْمَةَ إلى أَماكِنِها. وَكانَتْ هٰذِهِ الْحِجارَةُ ثَقيلَةً جِدًّا، حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَهَيَّأُ[3]، إِلّا لِكَثيرينَ مِنَ الْعَمَلَةِ مُجْتَمِعينَ، أَنْ يَرْفَعوها، شَيْئًا فَشَيْئًا، بِالْعَتَلاتِ[4]. وَكانَ الْعُمّالُ، إِذا رَفَعوا الْجانِبَ الْواحِدَ، مِنْ أَحَدِ هٰذِهِ الْحِجارَةِ، يَدْعَمونَهُ[5] بِقِطْعَةٍ مِنَ الْخَشَبِ، حَتّى يَسْتَقِرَّ[6] في مَوْضِعِهِ. وَكانوا، إِذا رَفَعوا الْجانِبَ الْآخَرَ، يَدْعَمونَهُ بِقِطْعَةٍ أُخْرى مِنَ الْخَشَبِ. وَهٰكَذا اسْتَطاعوا أَنْ يَرْفَعوا هٰذِهِ الْحِجارَةَ، رُوَيْدًا[7] رُوَيْدًا، حَتّى أَثْقَلَها، إلى أَماكِنِها.

---

(١) أنحاء جمع نحو: الجهة (٢) النحو: المقدار. (٣) يتهيأ: يمكن.
(٤) العتلة: العصا الضخمة من حديد. (٥) دعم الحجر: أسنده لئلا يميل. (٦) يستقر: يثبت. (٧) رويداً: برفق وتمهل.



قبر خوفو أو الهرم الاكبر

وَظَـلَّ ٱلعَمَلَةُ يَشْتَغِلونَ ، في قَبْرِ خوفو ، عِشْرينَ سَنَةً ، وَفَرَغوا مِنْهُ⁽١⁾ أَخيراً ، بَعْدَ أَن بَنَوْا فيه سُلَّماً ، وَسَرَباً⁽٢⁾ ، يُؤَدِّيانِ إلى مَخْدَعَيْنِ⁽٣⁾ ، أَحَدُهما لِمُومِيا ٱلمَلِكِ ، وَٱلآخَرُ لِمُومِيا ٱلمَلِكَةِ . وَكانَ إلى جانِبِ ٱلقَبْرِ هَيْكَلٌ صَغيرٌ . وَلَمّا ماتَ خوفو ، تَـلا

(١) فرغوا منه : أتموه . (٢) السرب : الطريق تحت الأرض (٣) المخدع : البيت داخل البيت الكبير .

الكَهَنَةُ هُنـاكَ الصَّلَواتِ المُقَدَّسَةَ ، وُقوفاً على أرْضِ الهَيْكَلِ الصَّخْرِيَّةِ ، وَتَمَنَّوْا ، لِروحِ فِرْعَوْنَ المَيْتِ ، سَفَراً سَعيداً آمِناً . وَلَمّا انْتَهَوْا مِنَ الصَّلَواتِ ، هَمَسُوا [١] بِالنِّيابَةِ عَنْ خوفو المَيْتِ بِقَوْلِهِمْ :

« إنِّي لَنْ أموتَ ، بلْ سَأَعودُ إلى كِياني [٢] وَأَحْيا ، وأفوزُ بالفَلاحِ [٣] . إنِّي سَأَقومُ بِسَلامٍ » .

ثُمَّ سَدّوا بابَ القَبْرِ ، وَرَقَدَ خوفو ، تُحيطُ به الكُنوزُ الجَميلَةُ الثَّمينَةُ الَّتي دُفِنَتْ مَعَهُ .

---

(١) همسوا : قالوا بصوت خفي . (٢) الكيان : الطبيعة والخليقة . (٣) الفلاح : صلاح الحال .

فجر الشرق

كُلُّكُمْ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الكَثيرَ عَنْ بِلادِ العَرَبِ ، وَلِذا لا أُطيلُ الكَلامَ عَلَيْها ، وَلٰكِنّي أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الأَقْوامِ الَّتي خَرَجَتْ مِنْها .

تَكادُ بِلادُ العَرَبِ تَكونُ قَفْراً ، فَهِيَ خالِيَةٌ مِنَ الأَنْهارِ ، وَلا يَسْقُطُ فيها المَطَرُ إِلاَّ بِضْعَةَ أَسابيعَ ، في فَصْلِ الشِّتاءِ . فَكانَتْ لِذٰلِكَ ، عَلى رُحْبِها (١) ، عاجِزَةً عَنِ القِيامِ بِحاجَةِ أَهْلِها مِنَ المَعاشِ . وَكانَ سُكّانُها ، مُنْذُ أَقْدَمِ العُصورِ ، وَلا يَزالونَ ، مِنَ الجِنْسِ الأَبْيَضِ الكَبيرِ المَدْعُوِّ بِالسّامِيّينَ .

والسّامِيّونَ ، وهُمْ نَسْلُ سامِ بْنِ نوحٍ ، مُنْقَسِمونَ ، مُنْذُ القِدَمِ (٢) ، إِلى قَبائِلَ أَوْ أَقْوامٍ عَديدَةٍ . وَنَحْنُ نَعْرِفُ اثْنَيْنِ مِنْ هٰذِهِ الأَقْوامِ كُلَّ المَعْرِفَةِ ، وَهُما العَرَبُ والعِبْرانِيّونَ . وَقَدْ ظَلّوا أَعْصُراً يَظْعَنونَ (٣) مِنْ مَكانٍ إِلى آخَرَ ، مُنْتَجِعينَ (٤)

---

(١) الرحب : السعة . (٢) القدم : الزمان القديم . (٣) يظعنون : يرحلون .
(٤) إنتجع القوم الكلأ : ذهبوا لطلبه في مواضعه .

مَواقِعَ ٱلغَيْثِ [١] والْـكَلَإِ [٢] لِقُطْعانِهِمْ. وَكانوا، إِذا أَعْوَزَهُمُ [٣] ٱلْـكَلَأُ، يَخْرُجُونَ مِنْ أَرْضِ ٱلصَّحْراءِ. وَقَدْ نَزَحَتْ [٤] جَماعاتٌ مِنْهُمْ، في ٱلأَزْمِنَةِ ٱلقَديمَةِ، إِلى فِلِسْطينَ، وَإِلى ٱلأَرْضِ ٱلَّتي تُدْعى ٱلْـيَوْمَ ٱلعِراقَ، وَكانَتْ تُدْعى، وَقْتَئِذٍ. ما بَيْنَ ٱلنَّهْرَيْنِ.

وكانَتْ أَرْضُ ما بَيْنَ ٱلنَّـهْرَيْنِ هٰذِهِ كَثيرَةَ ٱلخِصْبِ، يُرْويها نَهْرانِ عَظيمانِ، هُما دِجْلَةُ وأُلفُراتُ. وَقَدِ ٱزْدَهَرَتْ [٥] أَقْدَمُ مَدَنِيَّةٍ في ٱلعالَمِ ما بَيْنَ هٰذَيْنِ ٱلنَّهْرَيْنِ. فَإِنَّ السّامِيّينَ حَلُّوا بِسَهْلِ أَكَّدَ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ بِثَلاثَةِ آلافِ سَنَةٍ، واسْتَقَرّوا [٦] هُناكَ. وَكانَ يُقيمُ إِلى ٱلجَنوبِ مِنْهُمْ شَعْبٌ عَظيمٌ حاذِقٌ، يُقالُ لَهُمُ ٱلسّومِرِيّونَ، لَمْ يَـكونُوا مِنَ ٱلجِنْسِ السّامِيِّ. وَقَدْ تَعَلَّمَ السّامِيّونَ مِنْ هٰؤُلاءِ السّومِرِيّينَ الشَّيْءَ ٱلْـكَثيرَ، لِأَنَّ السّامِيّينَ، وَهُمْ أَهْـلُ بادِيَةٍ رَحّالونَ، كانَتْ مَعارِفُهُمْ قاصِرَةً [٧] عَلى ٱلنَّزْرِ [٨] اليَسيرِ.

في ذٰلِكَ الزَّمانِ، كانَتْ إِحْدى ٱلأَميراتِ السّامِيّاتِ تَعيشُ عَلى

---

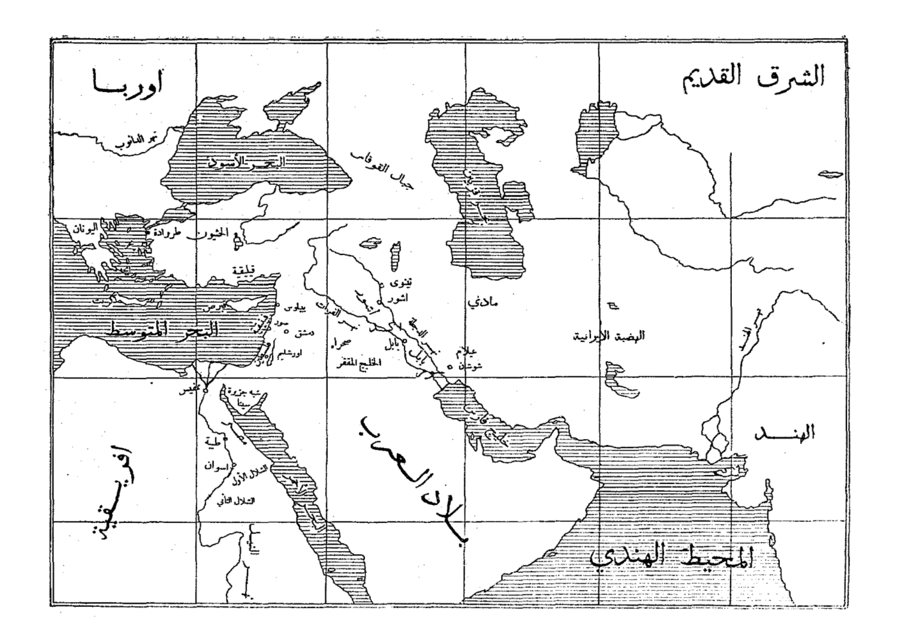
(١) الغيث: المطر. (٢) الـكلأ: العشب رطبه، ويابسه. (٣) أعوزهم الـكلأ: احتاجوا اليه. (٤) نزح عن دياره: بعد. (٥) ازدهرت: أضاءت وتلألأت. (٦) استقروا بالمـكان: سكنوا وثبتوا. (٧) قاصرة على القليل: لا تتجاوزه الى غيره. (٨) النزر: القليل التافه

ضِفافِ الفُراتِ. وَقَدْ وَضَعَتْ [١] غُلاماً ذَكَراً، دَعَتْهُ سَرْغونَ. وَخَشِيَتْ أَنْ يَفْتُكَ بِهِ [٢] أَحَدٌ، إذا عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ نَسْلٍ مَلَكِيٍّ، فَوَضَعَتْهُ في سَفَطٍ [٣]، وأرْسَلَتْهُ مَعَ تَيّارِ [٤] النَّهرِ. فَأَنْقَذَ أَحَدُ السَّقّائِينَ الطِّفْلَ، ورَبّاهُ كَأَنَّهُ وَلَدٌ لَهُ. وَظَهَرَ ذاتَ يَوْمٍ أَنَّ الغُلامَ مِنْ نَسْلِ المُلوكِ، فَوُضِعَ التّاجُ المَلَكِيُّ عَلى رَأْسِهِ، وكانَ أَوَّلَ مَلِكٍ سامِيٍّ عَظيمٍ، وَدُعِيَ سَرْغونَ الأَوَّلَ. وَقَدْ أَخْضَعَ السّومِرِيّينَ، وغَزا سورِيَّةَ وفِلِسْطينَ أَرْبَعَ مَرّاتٍ. وفي الأَنْباءِ أَنَّهُ تَسَلَّطَ عَلى أَقْطارِ [٥] بَحْرِ الشَّمْسِ الغارِبَةِ (أَيِ البَحْرِ المُتَوَسِّطِ). وكانَ أَوَّلَ الفاتِحينَ [٦] في العالَمِ، وإِمْبَراطورِيَّتُهُ أَقْدَمَ إِمْبَراطورِيَّةٍ عَرَفَها التّاريخُ. وَتُوُفِّيَ سَنَةَ خَمْسِ مِئَةٍ وأَلْفَيْنِ، قَبْلَ المَسيحِ.

واتَّحَدَ السّومِرِيّونَ والأَكَّدِيّونَ، بَعْدَ سَرْغونَ، ونَشَأَتْ مِنَ الفَريقَيْنِ أُمَّةٌ جَديدَةٌ، عَظُمَ شَأْنُها [٧] جِدًّا، ودامَتْ نَحْوَ ثَلاثِ مِئَةِ سَنَةٍ. وَلَوْ أُتيحَ [٨] لَكُمْ أَنْ تَعيشوا في ذٰلِكَ الزَّمانِ،

---

(١) وضعت المرأة: ولدت. (٢) يفتك به: يقتله. (٣) السفط: وعاء كالقفة.
(٤) تيار النهر: موجه (٥) أقطار جمع قطر (بضم القاف): الاقليم والناحية.
(٦) الفاتح: الذي يغلب على البلاد ويتملكها قهراً. (٧) الشأن: الحال. (٨) اتاح الله له الخير: قدره.



الشرق القديم
اوربا
نهر الدانوب
البحر الأسود
جبال القوقاس
اليونان
طروادة
الحثيون
قليقية
كريت
قبرص
البحر المتوسط
بيبلوس
صور
دمشق
اورشليم
صحراء
الخليج المقفر
نهر الفرات
نهر الدجلة
نينوى
اشور
بابل
عيلام
شوشان
مادي
الهضبة الإيرانية
بحر قزوين
منفيس
شبه جزيرة سيناء
طيبة
اسوان
الشلال الأول
الشلال الثاني
نهر النيل
افريقية
بلاد العرب
الخليج الفارسي
البحر الأحمر
نهر السند
الهند
المحيط الهندي

واتَّفقَ لكُمْ أنْ تنحَدروا في نَهرِ الفُراتِ . وتزوروا إحْدَى المُدُنِ ، لرَأيْتُمْ كَثيراً مِنَ البَدائعِ [١] التّي لَمْ يكُنْ لها نَظيرٌ وَقْتَئذٍ ، في أيِّ قُطْرٍ آخَرَ مِنْ أقْطارِ الأَرْضِ ، حتَّى في مِصْرَ . هُناكَ كانَ في إمْكانِكُمْ أنْ تُمَيِّزوا السّومِرِيَّ الحافِيَ القَدَمَيْنِ ، والحَليقَ الرَّأسِ واللِّحْيَةِ ، مِنَ السّامِيِّ المُنْتَعِلِ [٢] ، ذي اللِّحْيَةِ الكَثَّةِ [٣] ، والشَّعْرِ الغَزيرِ . وتَجْتازونَ في مَدينَتِهِمْ ، ذاتِ الأَكواخِ المَبْنِيَّةِ باللَّبِنِ [٤] ، فَتَرَوْنَهُمْ يَبيعونَ الشَّعيرَ ، والحِنْطَةَ [٥] والبَقَرَ ، والضَّأْنَ [٦] ، والماعِزَ ، والحَميرَ ، ما عدا الخَيْلَ ، إذْ لَمْ يَكُنْ لدَيْهِمْ وَقْتَئذٍ شَيْءٌ مِنْها . والأَغْرَبُ أنْ تَرَوْا الحَميرَ تَجُرُّ العَجَلاتِ [٧] ، وذلكَ لأَنَّهمْ أوَّلُ مَنِ احْتالَ بِالعَجَلَةِ لِنَقْلِ الأَثْقالِ . وقَدْ أتَوْا إبّانَ [٨] حُروبِهِمْ بِالمَعْدِنِ مِنْ مِصْرَ ، حَيْثُ وُجِدَ أوَّلاً .

وَكانَ أوْلادُهُمْ في مَدارِسِهِمِ المَبْنِيَّةِ بالطِّينِ ، يَنْهَمِكُونَ [٩] في العَمَلِ . فَقَدْ كانَ على كُلٍّ مِنْهُمْ ، أنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ لَوْحاً مُسَطَّحاً [١٠]

---

(١) البدائع جمع بديع : المخترعات . (٢) المنتعل : لابس النعل . (٣) الكثة : الكثيفة الغزيرة الشعر . (٤) اللبن : ما ضرب من الطين مربعاً للبناء . (٥) الحنطة : القمح . (٦) الضأن : اسم جنس لخلاف الماعز من الغنم . (٧) العجلات : الآلات التي تحمل عليها الاثقال . (٨) إبان الحرب : حينها . (٩) ينهمكون في العمل : يجدون . (١٠) المسطح : المنبسط .

مِنَ الطّينِ اللّيِّنِ ، لِيَرْسُمَ عَلَيْهِ صُوَراً أَو عَلاماتٍ ، بِقَصَبَةٍ طَرَفُها كالٌّ[١] مُرَبَّعٌ . وَكانَ كُلَّما أَخْطأَ يَبْسُطُ الطّينَ ، وَيَعودُ إِلى الرَّسْمِ مَرَّةً أُخْرى . وَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ في جَيْبِهِ مِمْحاةً ، كَما يَفْعَلُ صِغارُ الأَوْلادِ في أَيّامِنا . وَمَتى انْتَهى مِنْ عَمَلِهِ ، يَذُرُّ[٢] قَليلاً من التُّرابِ الجافِّ عَلَى لَوْحِهِ ، ثُمَّ يَضَعُهُ في الخارِجِ ، لِيَقْسُوَ في الشَّمْسِ ، أَوْ يَضَعُهُ في فُرْنٍ ، لِيَصيرَ خَزَفاً[٣] .

وَلَمّا تَعَلَّموا الكِتابَةَ ، أَخَذوا يُجيبونَ بِحِكاياتٍ بَسيطَةٍ ، عَنِ المَسائِلِ الكُبْرى الخاصَّةِ بِالحَياةِ وَالمَوْتِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ بِنا رَأْيُ المِصْرِيّينَ ، في هٰذِهِ المَسائِلِ .

وَهٰكَذا جاءَتْنا تِلْكَ الحِكايَةُ الجَميلَةُ عَنْ أَتانا الَّذي بَحَثَ عَنْ بَقْلَةٍ ، زَعَموا أَنَّ الحَياةَ كامِنَةٌ[٤] فيها . وَهِيَ أَقْدَمُ حِكايَةٍ ، عَنْ طَيَرانِ الإِنْسانِ .

وَتَقولُ الحِكايَةُ : « إِنَّ أَتانا اغْتَمَّ جِدّاً ، لِأَنَّ امْرَأَتَهُ تَعَسَّرَ عَلَيْها أَنْ تَضَعَ الوَلَدَ الَّذي حَبِلَتْ بِهِ . وَكانَ يَعْلَمُ بِوُجودِ بَقْلَةٍ

---

(١) كال : غير حاد . (٢) يذر : يرش . (٣) الخزف : ما شوي من الطين بالنار فصار فخاراً (بفتح الفاء) . (٤) كامنة : مختفية .

فيها ٱلعَوْنُ لِٱمْرَأَتِهِ ، إذا وَجَدَ إِلَيْها سَبيلاً . فٱسْتَغاثَ [١] بِشَمَشَ ، الشَّمْسِ ٱلإِلٰهِ ، لِيُساعِدَهُ عَلَى وِجْدانِها . فأَشارَ عَلَيْهِ شَمَشُ ، أَنْ يَسْتَشيرَ بَعْضَ النُّسورِ . فاهْتَدى أَتانا إِلى النَّسْرِ ، وَأَعانَهُ عَلى قِتالِ إِحْـدى ٱلحَيَّاتِ ، عَلى أَنْ يَحْمِلَهُ إِلى السَّماءِ ، لِيَسْتَغيثَ بِإِلٰهَةِ ٱلوِلادَةِ ، وَيَفوزَ [٢] بِتِلْكَ ٱلبَقْلَةِ لِامْرَأَتِهِ ، فَتَمَسَّكَ أَتانا بِالنَّسْرِ ، فَحَلَّقَ [٣] بِهِ إِلى السَّماءِ . وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ ، بَدَتِ ٱلأَرْضُ تَحْتَهُما شَبيهَةً بِتَلٍّ ، وَٱلبَحْرُ شَبيهاً بِبُحَيْرَةٍ . وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ، وَصَلا إِلى سَماءِ آنو ، ولٰكِنَّهُما لَمْ يَجِدا ٱلبَقْلَةَ هُنـاكَ ، فَواصَـلا الطَّيَرانَ . وَبَعْدَ أَنْ طارا ساعَتَيْنِ ثالِثَتَيْنِ ٱخْتَفَتِ ٱلأَرْضُ عَنْ أَعْيُنِهِما ، وَعـادَ أَتانا لا يرى البَحْرَ ، فَتَوَجَّسَ [٤] خَوْفاً ، وَأَمَرَ النَّسْرَ أَنْ يَكُفَّ [٥] عَنِ الصُّعودِ ، ويَعودَ بِـهِ إِلى ٱلأَرْضِ . وَحينَئِـذٍ سَقَطَ هُوَ والنَّسْرُ إِلى ٱلأَرْضِ ، وَماتا » . وَلَمْ تُعْلِمْنـا ٱلحِكايَةُ بِما جَرى لِلْوَلَدِ ، وٱلمَظْنونُ أَنَّهُ لَمْ يولَدْ .

وَأَدَّى سِرُّ ٱلمَوْتِ ٱلغامِضِ [٦] إِلى حِكايَةِ الصَّيّـادِ أَدابَةَ .

---

(١) استغاث : استعان . (٢) يفوز بالشيء : يظفر به . (٣) حلق الطائر : ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة . (٤) توجس خوفاً : أحس به . (٥) كف عن الصعود : امتنع . (٦) الغامض : الخفي المبهم .

وَتقولُ ٱلحِكايَةُ : « إنَّ أدابَةَ ٱلإنسانَ ٱلأوَّلَ ، وابْنَ ٱلإلهِ إيَهْ ، نالَ مِنْ أبيهِ ٱلحِكْمَةَ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَنَلْ مِنْحَةَ [1] ٱلخلودِ [2] . وَفيما هُوَ يَصْطادُ ذاتَ يَوْمٍ ، حَطَّمَتْ [3] ريحُ ٱلجَنوبِ زَوْرَقَهُ ، وَأَلْقَتْهُ إلى ٱلبَحْرِ . فَٱشْتَدَّ بِهِ ٱلحَنَقُ [4] ، وَكَسَرَ جَناحَيْ ريحِ ٱلجَنوبِ ٱنْتِقاماً . وَبَعْدَ سَبْعَةِ أيّامٍ ، دُعِيَ أدابَةُ لِيَمْثُلَ [5] أمامَ آنو ، أبي الآلِهَةِ وَمَلِكِها ، لِلْمُحاكَمَةِ . فَأَشْفَقَ [6] إيَهْ عَلَى ٱبنِهِ ، مِنَ ٱلمَكْروهِ [7] ٱلّذي تعَرَّضَ لَهُ ، وأوْصاهُ أنْ يَتَرَفَّقَ [8] في مُخاطَبَةِ بَوّابَيِ السَّماءِ ، وَأنْ يَلْبَسَ ثَوْبَ ٱلحُزْنِ ، وَيُظْهِرَ ٱلأسى [9] وٱلأسَفَ لِما وَقَعَ . وأعْلَمَ إيَهْ أدابَةَ أنَّ ٱلبَوّابَيْنِ لا بُدَّ أنْ يُقَدِّما لَهُ خُبْزَ ٱلمَوْتِ وَماءَهُ ، وَثَوْباً وَدُهْناً ، وَحَذَّرَهُ أنْ يأكُلَ أوْ يَشْرَبَ ، وَلٰكِنَّهُ أوْصاهُ أن يَقْبَلَ الثَّوْبَ وَيَلْبَسَهُ ، وَيَقْبَلَ الدُّهْنَ وَيَدَّهِنَ بِهِ .

وَلَمّا مَثَلَ أدابَةُ أمامَ عَرْشِ آنو ، جَرى ما أنْبَأَ [10] بِهِ إيَهْ .

---

(١) المنحة : العطية . (٢) الخلود : الدوام والبقاء . (٣) حطمت : كسرت .
(٤) الحنق : شدة الاغتياظ . (٥) يمثل : يقوم منتصباً . (٦) أشفق : خاف .
(٧) المكروه : الشر . (٨) يترفق : يتلطف . (٩) الأسى : الحزن .
(١٠) أنبأ : أخبر .

وَلَمّا أَبى[1] أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ ، قالَ آنو لِلْبَوّابَيْنِ :

— أَعيداهُ إِذَنْ إِلى الأَرْضِ .

وَهٰكَذا خَسِرَ أَدابَةُ بِاتِّباعِهِ وَصِيَّةَ أَبيهِ ، نِعْمَةَ الْخُلودِ الَّتي كانَ آنو مُزْمِعاً[2] أَنْ يَجودَ بِها عَلَيْهِ . وَلا شَكَّ أَنَّ إِيَهْ ، رَبَّ الْحِكْمَةِ ، كانَ يَعْلَمُ أَنَّ خُبْزَ الْحَياةِ وَماءَها ، لا بُدَّ أَنْ يُقَدَّما لِأَدابَةَ ، والظّاهِرُ أَنَّهُ تَعَمَّدَ[3] الْكَلامَ عَلى خُبْزِ الْمَوْتِ وَمائِهِ لِئَلاَّ يُصْبِحَ أَدابَةُ خالِداً نَظيرَهُ . »

عَلى هٰذا الْوَجْهِ ، حاوَلَ[4] أَجْدادُكُمْ أَنْ يَحُلّوا مَسْأَلَةَ الْحَياةِ والْمَوْتِ الْعَظيمَتَيْنِ . وَسَتُطالِعونَ ، فيما يَأْتي مِنْ أَيّامِكُمْ ، حِكاياتٍ أُخْرى كَثيرَةً ، مِنْ مِثْلِ هاتَيْنِ الْحِكايَتَيْنِ ، فَتَقِفونَ[5] مِنْها عَلى ما كانَ عَلَيْهِ أَجْدادُكُمْ مِنَ الآراءِ والْمُعْتَقَداتِ[6] .

وَفيما كانَ أَمْرُ مُلوكِ سومَرَ وَأَكَّدَ يَصيرُ إِلى الضَّعْفِ شَيْئاً فَشَيْئاً ، أَخَذَتْ قَبيلَةٌ سامِيَّةٌ جَديدَةٌ ، تَنْحَدِرُ إِلى أَرْضِ

---

(١) أبى : رفض . (٢) مزمعاً : عازماً . (٣) تعمد : قصد . (٤) حاول الشيء اراده وطلبه بحيلة . (٥) وقف على الأمر : فهمه واطلع عليه . (٦) المعتقدات : الامور التي يصدقها الانسان ويتدين بها .

الفُراتِ السُّفْلى. وَقَدِ اسْتَوْلَتْ هٰذِهِ القَبيلَةُ ، بُعَيْدَ [١] سَنَةِ أَلْفَيْنِ قَبْلَ المَسيحِ ، عَلى بابِلَ ، وكانَتْ وَقْتَئِذٍ قَرْيَةً حَقيرَةً ، لا ذِكْرَ لَها ، قائِمَةً على عَدْوَةِ [٢] الفُراتِ. وكانَ مُلوكُ بابِلَ الجُدُدُ ، مِنْ كِبارِ المُحارِبينَ ، وَلا سِيَّما حَمّورابي المَلِكُ العَظيمُ ، وَقَدْ مَلَكَ هٰذا في بابِلَ ، نَحْوَ سَنَةِ خَمْسينَ وَتِسْعِ مِئَةٍ وأَلْفٍ قَبْلَ المَسيحِ ، وكانَ ثانِيَ مَلِكٍ عَظيمٍ ، بَيْنَ المُلوكِ السّامِيّينَ - وَقَدْ كُشِفَتْ رَسائِلُ عَديدَةٌ ، كَتَبَها حَمّورابي ، تُشيرُ إلى أَعْمالِ هٰذا المَلِكِ العَظيمِ وَأَخْلاقِهِ [٣]. ولِأَوَّلِ مَرَّةٍ في التّاريخِ ، وَقَفَتْنا [٤] هٰذِهِ الرَّسائِلُ ، على طَرَفٍ [٥] مِنْ حَياةٍ عامِلَةٍ ، قَضاها مَلِكٌ آسِيَوِيٌّ قَديرٌ. فَقَدْ كانَ المَلِكُ يَجْلِسُ ، في مَكْتَبِهِ في بابِلَ ، مُسْتَعِدًّا لِيُمْلِيَ رَسائِلَهُ إلى الحُكّامِ. وكانَ كاتِبُ السِّرِّ يُخْرِجُ قَصَبَةً مِنْ مِنْطَقَتِهِ [٦] الجِلْدِيَّةِ ، وَيُغَطّي بِسُرْعَةٍ لَوْحًا صَغيرًا مِنَ الطّينِ بِالعَلاماتِ. ثُمَّ يَذُرُّ [٧] قَبْضَةً [٨] مِنَ التُّرابِ الجافِّ ،

---

(١) بعيد : تصغير بعد اي بعد قليل . (٢) العدوة : شاطىء النهر والوادي .
(٣) اخلاق جمع خلق (بضم القاف) : الطبع والعادة . (٤) وقفتنا : اطلعتنا .
(٥) الطرف : الجانب والقطعة من الشيء . (٦) المنطقة : مايشد به الوسط . (٧) بذر التراب : ينثره ويرشه . (٨) القبضة : ملء الكف .

عَلَى اللَّوْحِ النَّدِيِّ[١] ، لِئَلاَّ يَلْتَصِقَ بِالغِلافِ الطِّينِيِّ الَّذي يُدْرِجُ[٢] فيهِ الرِّسالَةَ . وَيَكْتُبُ العُنْوانَ عَلَى الغِلافِ ، وَيَبْعَثُ بِالرِّسالَةِ إِلى الفُرْنِ ، لِتُشْوَى فيهِ . وَهٰذِهِ الرَّسائِلُ ذاتُ شَأْنٍ ، وفي قِراءَتِها ما يُبْهِجُ[٣] ، وَقَدْ تُرْجِمَتْ إِلى لُغاتٍ عَديدَةٍ .

غَيْرَ أَنَّ هُناكَ ما هُوَ أَجْدَرُ[٤] بِالاهْتِمامِ ، مِنْ هٰذِهِ الرَّسائِلِ ، وَهُوَ الشَّرائِعُ الَّتِي سَنَّها[٥] حَمّورابي لِشَعْبِهِ . وقَدْ أَمَرَ أَنْ تُحْفَرَ هٰذِهِ الشَّرائِعُ في حَجَرٍ عُلُوُّهُ ثَمانونَ قَدَماً . وهاكُمْ[٦] بَعْضَها :

١ — إِذا كَذَبَ أَحَدُ الشُّهودِ ، في جُرْمٍ[٧] يَسْتَوْجِبُ المَوْتَ ، وعَجَزَ عَنْ تَأْييدِ[٨] مُدَّعاهُ بِالحُجَّةِ[٩] يُقْتَلُ .

٢ — إِذا أَصْدَرَ حاكِمٌ حُكْماً ، ونَقَضَهُ[١٠] فيما بَعْدُ ، يُحاكَمُ ، ويَدْفَعُ اثْنَيْ عَشَرَ ضِعْفَ[١١] المَبْلَغِ الَّذي حَكَمَ بِدَفْعِهِ ، ويُعْزَلُ عَنْ عَمَلِهِ ، ولا يَعودُ بَعْدَها ، إِلى مَنْصِبِ الحُكْمِ .

---

(١) الندي : المبتل . (٢) يدرج الشيء في الشيء : يدخله . (٣) يبهج : يفرح ويسر . (٤) أجدر : أحق . (٥) سن الشريعة : وضعها . (٦) هاكم : اسم فعل بمعنى خذوا . (٧) الجرم : الذنب . (٨) التأييد : الاثبات . (٩) الحجة : البرهان . (١٠) نقضه ابطله . (١١) ضعف المبلغ : مثله في المقدار .

٣ — مَنْ يَسْرِقْ مِنَ ٱلْهَيْكَلِ ، أَو مِنَ ٱلقَصْرِ ، يُقْتَلْ ، وَمَنْ يُلْفَ[1] عِنْدَهُ ٱلمَالُ ٱلمَسْروقُ يُقْتَلْ أَيْضاً .

٤ — قاطِعُ الطَّريقِ يُقْتَلُ ، مَتى قُبِضَ عَلَيْهِ .

٥ — إِذا أَسْلَمَ ٱلمَدينُ ٱمرَأَتَهُ ، وَوَلَدَهُ ، وَبِنْتَهُ إِلى الدّائِنِ ، لِيَعْمَلوا لَهُ ، فَإِنَّهُمْ يَقومونَ بِٱلعَمَلِ ثَلاثَ سَنَواتٍ ، ثُمَّ يُطْلَقُ سِراحُهُمْ .

٦ — إِذا أَهانَ الرَّجُلُ ٱمْرَأَتَهُ ، وَلَمْ تَأْتِ[2] عَيْباً تُؤاخَذُ[3] عَلَيْهِ ، يَحِقُّ لَها أَنْ تَأْخُذَ مَهْرَها[4] وتعودَ إِلى بَيْتِ أَبيها .

٧ — إِذا ضَرَبَ الرَّجُلُ أَباهُ تُقْطَعُ يَدُهُ .

٨ — إِذا أَتْلَفَ رَجُلٌ عَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ تُقْلَعُ عَيْنُهُ .

٩ — إِذا أَسْقَطَ رَجُلٌ سِنَّ رَجُلٍ آخَرَ تُقْلَعُ سِنُّهُ .

١٠ — إِذا ضَرَبَ عَبْدٌ رَجُلاً حُرّاً تُصْلَمُ[5] أُذُنُهُ .

١١ — إِذا جَرَحَ رَجُلٌ آخَرَ عَرَضاً[6] في مُشاجَرَةٍ ، يَدْفَعُ أَجْرَ الطَّبيبِ .

---

(١) يلفى : يوجد . (٢) يأتي الشيء : يفعله . (٣) آخذه على ذنبه : عاقبه عليه . (٤) المهر : الصداق (بكسر الصاد) وهو ما يجعل للمرأة من المال تنتفع به شرعاً . (٥) صلم الأذن : قطعها من أصلها . (٦) فعله عرضاً : بلا روية أو قصد.

١٢ — إِذا عالَجَ طَبيبٌ جُرْحَ رَجُلٍ نَبيلٍ ، وَدَمَلَ [١] ذٰلكَ ٱلجُرْحَ ، أَوْ قامَ بِعَمَلِيَّةٍ جِراحِيَّةٍ في عَيْنِهِ ، بِمِبْضَعٍ [٢] مِنَ النُّحاسِ ، يَقْتَضي [٣] عَلَى عَمَلِهِ عَشْرَ وَزَناتٍ مِنَ الفِضَّةِ أَجْراً . وإِذا أَجْرى ذٰلكَ لِرَجُلٍ فَقيرٍ ، يَقْتَضي خَمْسَ وَزَناتٍ . وإِذا أَجْرى ذٰلكَ لِعَبْدٍ ، يَتَقاضَى [٤] سَيِّدُهُ وَزْنَتَيْنِ .

١٣ - إِذا قامَ طَبيبٌ بِعَمَلِيَّةٍ جِراحِيَّةٍ بِمِبْضَعٍ مِنَ النُّحاسِ ، وماتَ ٱلعَليلُ ، تُقْطَعُ يَدُ الطَّبيبِ .

١٤ إِذا ٱسْتَكْرى رَجُلٌ ثَوْراً وسَبَّبَ لَهُ ٱلْعَمى ، يَدْفَعُ نِصْفَ ثَمَنِهِ لِصاحِبِهِ .

١٥ — إِذا ٱسْتَكْرى رَجُلٌ ثَوْراً ، وَضَرَبَ اللهُ الثَّوْرَ فَماتَ ، يُكَلَّفُ [٥] ٱلحَلْفَ ، وَ لا يُطالَبُ بالثَّوْرِ .

هٰذِهْ بَعْضُ الشَّرائِعِ ، وَكُلُّها يَشْغَلُ [٦] ثَلاثَةَ آلافٍ وسِتَّ مِئَةِ سَطْرٍ في ٱلحَجَرِ . وَإِذا قَرَأْتُموها كُلَّها يَأْخُذُكُمُ ٱلعَجَبُ مِنْ جَوْدَتِها .

---

(١) دمل الجرح : أبرأه . (٢) المبضع : آلة يشق بها الجلد . (٣) يقتضي : يطلب ويأخذ . (٤) تقاضاه الدين : طلبه وقبضه منه . (٥) يكلف الشيء : يطلب منه عمله على مشقة او على خلاف عادته . (٦) يشغل : يملأ .

وَلَمَّا ماتَ حَمُّورابي ، نَغَّصَتْ[1] هٰذِهِ الحَياةَ الهادِئَةَ الرَّغْدَةَ[2] قبائِلُ جديدَةٌ ، يُقالُ لَهُمُ الأَشّورِيّون . وَكانَ هٰؤُلاءِ سامِيّين أَيضاً ، وَأَتَوْا مَعَهُمْ بِحَيَوانٍ غَريبٍ ، دَعَوْهُ «حَيَوانَ الجِبالِ» . وَهُوَ الفَرَسُ الَّذي أَخَذوهُ مِنَ الهُنودِ الأوروبِيِّينَ ، وَهُمْ قَوْمٌ ، عاشوا في آسِيا وأُورُبّا ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَكونوا سامِيّينَ .

وَقَدْ جاءَ الأَشّوريّونَ مِنْ أَشّورَ ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ نَهْرِ دِجْلَةَ . وَكانوا قَدْ تَعَلَّموا الشَّيْءَ الكَثيرَ مِنَ الأَقْوامِ حَوْلَهُمْ ، وَلا سِيَّما المِصْرِيّونَ . وَقَدْ تَعَلَّموا الكِتابَةَ مِنَ المِصْرِيِّينَ لا مِنَ السّومِرِيّينَ وَالأَكَّدِيّينَ . وكانوا بِالأَخَصِّ مِنْ كِبارِ المُحارِبينَ ، وَأَسْبَقَ السّامِيّينَ إِلى اسْتِخْدامِ الخَيْلِ في الحَرْبِ . فَزَحَفوا جَنوباً إِلى بابِلَ ، واسْتَوْلَوْا[3] عَلَيْها ، وَغَدَوْا في نَحْوِ سَنَةِ ثَلاثِ مِئَةٍ وأَلْفٍ ، قَبْلَ المَسيحِ ، مَمْلَكَةً قَديرَةً . وَكانَ إِلى الغَرْبِ مِنْهُمْ أُمَمٌ قَوِيَّةٌ أَيْضاً . فَقَدْ كانَتْ هُناكَ مِصْرُ ، ثُمَّ فِلِسْطينُ الَّتي حَلَّ بِها العِبْرانِيّونَ ، ثُمَّ المُدُنُ الفينيقِيَّةُ ، عَلَى ساحِلِ

---

(١) نغص الحياة : كدرها . (٢) الحياة الرغدة : الطيبة المتسعة . (٣) استولى على المدينة : ملكها .

فِلِسْطينَ وَسورِيَّةَ ، وأَخيراً ٱلأَرامِيّونَ أَوِ السّورِيّونَ في سورِيَّةَ ، وَكانَتْ عاصِمَتُهُمْ دِمَشْقَ .

وَأَخَذَتْ أَشُّورُ تَزْدادُ قُوَّةً ، سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ ، وَٱبْتَنَتْ لَها عاصِمَةً كَبيرَةً في نينَوى. وَلَمْ يَطُلِ الزَّمَنُ ، حَتّى خَضَعَتْ آسِيا ٱلغَرْبِيَّةُ كُلُّها لِنينَوى. فَقَدْ قامَ في ٱلأَشّورِيّينَ ، بينَ سَنَةِ ٱثْنَتَيْنِ وَعِشْرينَ وَسَبْعِ مِئَةٍ ، وَسَنَةِ سِتٍّ وَعِشْرينَ وَسِتِّ مِئَةٍ ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ ، أَرْبَعَةُ مُلوكٍ عُظَماءَ ، هُمْ سَرْغُونُ الثّاني ، وَسَنْحاريبُ ، وأَسَرْحَدّونُ ، وأَشّورَبانيبالُ . وَنَقْرَأُ فيما خَلَّفوهُ[1] ، مِنَ ٱلآثارِ ٱلمَكْتوبَةِ ، ما هُوَ نَظيرُ هٰذا :

« قَدْ أَخْضَعْتُ أَقْطاراً وَجِبالاً وَمُدُناً ، وَحارَبْتُ سِتّينَ مَلِكاً ، وَوَصَلْتُ في غَزَواتي إِلى جِبالِ لُبْنانَ . »

وَنَقْرَأُ أَيْضاً :

« أَرْسَلْتُ شَبيهاً بِإِلٰهِ ٱلرَّعْدِ مَطَراً هَطّالاً ،[2] وَنَثَرْتُ أَشْلاءَ[3] ٱلقَتْلى ، وَوَقَفْتُ بِها نَهْرَ أُورُنْتُسَ (العاصي) عَنْ مَجْراهُ ».

---

(١) خلف الشيء : تركه وراءه . (٢) المطر الهطال : النازل متتابعاً عظيم القطر (بفتح القاف) . (٣) أشلاء جمع شلو (بكسر الشين وسكون اللام) : عضو الانسان بعد التفرق ، والجسد .



ملك اشوري

وَنَقْرَأُ أيْضاً :

„ حاصَرْتُ مَدينَـةَ ٱلسّامِرَةِ ، وٱسْتَوْلَيْتُ عَلَيْها ، وَسَبَيْتُ [١] سَبْعَةً وَعِشْرينَ ألفاً وَمِئَتَيْنِ وَثَمانينَ مِنْ أَهْلِها ، وَغَنِمْتُ خَمسينَ مِنْ مَرْكَباتِهِمْ ، وَأَطْلَقْتُ أَيادِيَ خَدَمي في مُمْتَلَكاتِهِمْ ، وأَقَمْتُ عَلَيْهِمْ عُمّالي ، وفَرَضْتُ عَلَيْهِمِ ٱلجِزْيَةَ [٢] ٱلَّتي كانَ قَدْ فَرَضَها عَلَيْهِمِ ٱلمَلِكُ السّابِقُ ".

وَيُعْزى [٣] هٰذا ٱلبَيانُ ٱلأَخيرُ ، إلى سَرْغونَ الثّاني ، الذي كانَ أَميرَ ٱلجَيْشِ ، وَغَدا مَلِكاً ، وهُوَ يُحاصِرُ مَدينَةَ السّامِرَةِ ، وَهِيَ نابُلُسُ ٱليَوْمَ . وَهٰذا ٱلبيانُ ٱلأَخيرُ يُعْلِمُنا بِما أَصابَ فِلِسْطينَ ، بِأَيدي ٱلأَشّوريّينَ ، ومِثْلُ هٰذا أَصابَ مِصْرَ أَيْضاً .

وَخَضَعَ ٱلعالَمُ ٱلقديمُ لِنينَوَى ، وَمِنْ هُناكَ ، كانَ ٱلإِمبَراطورُ ٱلأَشّوريُّ يُصْدِرُ أوامِرَهُ . وَقَدْ جَعَلَ نِظاماً خاصّاً ، لِسُعاةٍ [٤] يَحْمِلونَ رَسائِلَهُ إلى ٱلأَطْرافِ [٥] ، فَكانَ هٰذا النِّظامُ شَبيهاً بِنِظامِ ٱلبَريدِ [٦] في أَيّامِنا .

---

(١) سبي سكان المدينة : أسرهم وابعدهم وغربهم . (٢) الجزية : خراج الارض ، وما يؤخذ من المغلوب . (٣) تعزى : ينسب . (٤) السعاة جمع الساعي : البريد والرسول (٥) الاطراف : النواحي . (٦) البريد : ما تسميه العامة بالبوسطة .

وَكُشِفَتْ مَجْموعَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنِ ٱثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلفَ لَوْحٍ ، في غُرَفِ مَكْتَبَةِ أَشُّورَبَانيبالَ في نينَوى . وَقَدْ بَقِيَتْ هٰذِهِ ٱلأَلْواحُ عَلَى أَرْضِ ٱلمَكْتَبَةِ ، مُدَّةَ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ وَأَلْفَيْنِ . وَهِيَ ٱليومَ في لَنْدَنَ . وَعَلَيْها كُلِّها طابِعُ[1] ٱلمَلِكِ ٱلخاصُّ، عَلَى نَحْوِ[2] ما تُوسَمُ[3] بِهِ ٱلكُتُبُ في إِحْدى مَكْتَباتِنا ٱلحَديثَةِ . وَلِكَيْ تُصانَ هٰذِهِ ٱلأَلْواحُ، فَلا يَأْخُذَها أَحَدٌ ، أَوْ يَكْتُبَ ٱسْمَهُ عَلَيْها ، ضُمِّنَ[4] الطَّابِعُ هٰذا التَّحْذيرَ[5] :

« كُلُّ مَنْ يَأْخُذُ هٰذا ٱللَوحَ ، أَوْ يَكْتُبُ ٱسْمَهُ عَلَيْهِ إِلى جانِبِ ٱسْمي ، فَلْيَحِلَّ عَلَيْهِ سُخْطُ[6] أَشُّورَ وَبيليتَ وَغَضَبُهُما ، وَلْيَقْرِضا[7] ٱسْمَهُ وَنَسْلَهُ في الأَرْضِ .

وَكانَ أَشُّورُ وَبيليتُ مِنْ آلِهَةِ ٱلأَشُّوريّينَ .

وَوَقَعَ ٱلأَمرُ ٱلعَظيمُ فَجْأَةً . فَإِنَّ نينَوى إِمْبَراطوريَّةَ ٱلأَشُّوريّينَ ٱلقَديرَةَ عاجَلَها ٱلقَضاءُ[8] فَمَحَقَها[9] . وكانَ السَّبَبُ في

---

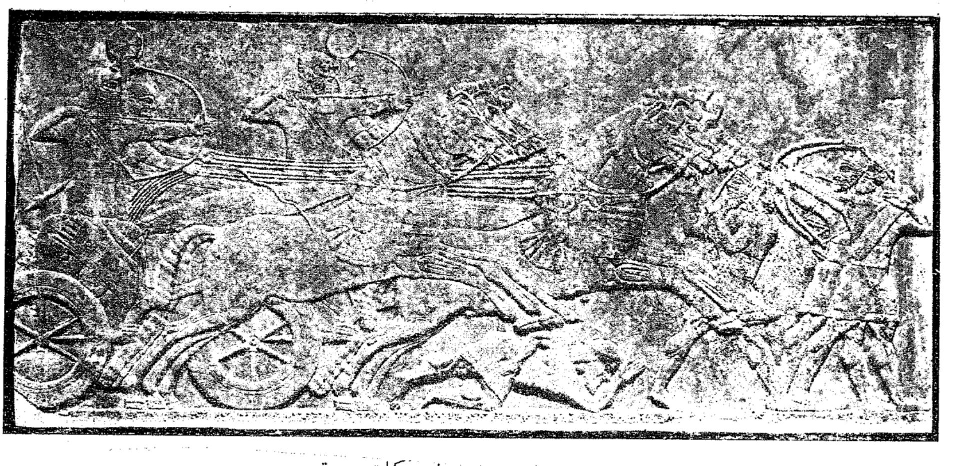
(١) الطابع : الخاتم يختم به . (٢) النحو : المثل (بكسر الميم) والطريقة
(٣) وسم الشيء : أثر فيه بعلامة ما . (٤) ضمن الطابع تحذيراً : جعل التحذير فيه .
(٥) التحذير : التنبيه . (٦) السخط : الغضب . (٧) قرض النسل : اهلكه .
(٨) عاجلها القضاء : لم يمهلها حكم الله . (٩) محقها : أبطلها ومحاها .

ذٰلِكَ هُوَ ٱلسَّبَبَ نَفْسَهُ ٱلَّذي أَسْقَطَ ٱلإِمْبَراطوريّاتِ ٱلعَظيمَةَ كُلَّها . فَإِنَّ ٱلفَلّاحينَ كانوا يُدْعَوْنَ لِلْقِتالِ في ٱلحُروبِ ، فَلَمْ يَنْقَضِ طَويلُ زَمَنٍ ، حَتّى حَلَّ ٱلفَقْرُ بِٱلبِلادِ . فَٱلفَلّاحونَ أَصْحابُ ٱلمَزارِعِ ، وَلا سِيَّما الصَّغيرَةُ مِنْها ، هُمْ قِوامُ [١] كُلِّ مِصْرٍ ، وَلَوْلاهُمْ لَما قامَتْ لِأَيِّ قُطْرٍ عَظيمٍ قائِمَةٌ [٢] .

ثُمَّ نَشَأَ [٣] أَعْداءٌ جُدُدٌ ، فَجاءَتْ قَبيلَةٌ أُخْرى مِنَ الصَّحْراءِ ، يُقالُ لَهُمُ ٱلكَلْدانِيّونَ . وَجاءَ مِنَ الشِّمالِ ٱلهُنودُ ٱلأُورُبِّيّونَ ، وٱلسِّكيثِيّونَ ، وٱلمادِيّونَ ، وٱلفُرْسُ . وَأَصْبَحَ مُعْظَمُ تِجارَةِ ٱلبِلادِ في أَيْدي ٱلأَرامِيّينَ . وَكانَ ، مِنْ تَأْثيرِ ذٰلِكَ ، أَنْ غَدَتِ ٱلأَرامِيَّةُ أَخيراً لُغَةَ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ كُلِّها ، وحَلَّتْ في فِلِسْطينَ مَحَلَّ ٱللُّغَةِ ٱلعِبْرِيَّةِ .

وَهٰكَذا دَبَّ الضَّعْفُ إِلى نينَوى ، فَسَقَطَتْ سَنَةَ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِئَةٍ ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ . وَسَمِعْنا مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ٱلعِبْرِيِّ ناحومَ صَدَى [٤] هُتافِ [٥] الفَرَحِ ، ٱلَّذي رَدَّدَتْهُ [٦] ٱلآفاقُ ، مِنْ بَحْرِ

(١) قوام الأمر : نظامه وعماده . (٢) قائمة الشيء : ما يقوم عليه . (٣) نشأ : حدث وتجدد . (٤) الصدى : ما يرده الجبل اوغيره الى المصوت مثل صوته . (٥) الهتاف : الصوت العالي . (٦) ردد الصوت : كرره .



اشوريون يهاجمون العدو في مركبات حربية

قَرْنَيْنِ إلى نَهْرِ النّيل، لمّا دَرَتِ ٱلأُمَمُ أنَّ بَلِيَّةَ الشَّرْقِ ٱلعُظْمى قَدْ سَقَطَتْ، فَلا تَقومُ لَهـا قائِمَةٌ أَبَدَ ٱلدَّهْرِ [١]. ولَمّا جـازَ [٢] ٱليونانُ هُناكَ بَعْدَ قَرْنَيْنِ، كانَتِ ٱلأُمَّةُ ٱلأَشّورِيَّةُ قَدْ بادَتْ، وَكادَ ذِكْرُها يَضْمَحِلُّ [٣]، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نينَوى، مَدينَتِهِمِ ٱلعَظيمَةِ سِوى رُكامٍ [٤] عَظيمٍ مِنَ ٱلأَنْقاضِ [٥] كَما هِيَ ٱليَوْمَ.

وَنَهَضَتْ إِمْبَراطورِيَّةُ ٱلكَلْدانِيّينَ ٱلجَديدَةُ، واتَّخَذَتْ بابِلَ عاصِمَةً لها. وَكانَ أَعْظَمُ مُلوكِها نَبوخَذْنَصَّرَ (بُخْتَنَصَّرَ)، الَّذي مَلَكَ أَرْبَعينَ سَنَةً، بَلَغَ فيها، مِنَ ٱلعَظَمَةِ وٱلْمَجْدِ، ما جَعَلَهُ مِنْ أَعْظَمِ الشَّخْصِيّاتِ النَّابِهَةِ [٦] في تاريخِ الشَّرْقِ.

وَقَدِ ٱغْتاظَ نَبوخَذْنَصَّرُ مِنْ تَمَرُّدِ أُورَشَليمَ عَلَيْهِ لِمَرَّةٍ بَعْدَ ٱلمَرَّةِ، فَهَدَمَ ٱلمَدينَةَ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمانينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ، وَسَبى مُعْظَمَ أَهْلِها إلى بابِلَ.

وَقَدْ جَعَلَ بابِلَ مِنْ أَجْمَلِ مُدُنِ العالَمِ. هُناكَ، كانَ قَصْرُهُ

---

(١) أبد الدهر : ظرف زمان للتأكيد في المستقبل نفياً واثباتاً . (٢) جاز : مر .
(٣) يضمحل : يتلاشى . (٤) الركام : المتراكم بعضه فوق بعض كالرمل وماشبه .
(٥) أنقاض جمع نقض (بضم النون) : ما تهدم من البناء . (٦) النابهة : الشهيرة .
(٧) يشرف عليه : يطلع عليه من فوق .

أُلمَلَكِيُّ يُشْرِفُ [٧] عَلَيْهِ مِنْ وَرائِهِ التَّلُّ، الَّذي كانَ يَقومُ عَلَيْهِ الهَيْكَلُ، وَتَليهِ [١] سُطوحٌ، بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ، كُسِيَتْ مِنْ نَباتِ البِلادِ الحارَّةِ حُلَّةً خَضْراءَ، فَكانَتْ حَدائِقَ شامِخَةً [٢] في الهَواءِ. في هٰذِهِ الحَدائِقِ، كانَ المَلِكُ العَظيمُ يَجْلِسُ في ظِلِّ النَّخيلِ الظَّليلِ [٣]، وَيَقْضي ساعاتِ فَراغِهِ [٤] مُمَتِّعاً الطَّرْفَ [٥] بِجَمالِ مَدينَتِهِ. وَهٰذِهِ الحَدائِقُ، الَّتي أُقيمَتْ سُطوحاً مُتَدَرِّجَةً في الصُّعودِ، كانَتْ هِيَ الجَنّاتِ المُعَلَّقَةَ، الَّتي امْتَدَّ ذِكْرُها إِلى الغَرْبِ، وَعَدَّها اليونانُ في جُمْلَةِ عَجائِبِ الدُّنْيا. وَلَمْ يَبْقَ الآنَ إِلاَّ آثارٌ ضَئيلَةٌ [٦]، مِنْ كُلِّ تِلْكَ الرَّوائِعِ والغَرائِبِ، الَّتي أَذاعَتْ شُهْرَةَ بابِلَ في ذٰلِكَ الزَّمَنِ.

---

(١) ولي الشيء يليه : قرب منه . (٢) شامخة : عالية . (٣) الظليل : ذو الظل او الدائم الظل . (٤) الفراغ : الخلو من العمل . (٥) الطرف : العين . (٦) ضئيلة : قليلة حقيرة .

ضُحَى الشَّرْقِ [1]

تقدَّمَ بِنا الحَديثُ عَنِ الإِمْبَراطورِيَّةِ الكَلْدانِيَّةِ ، وَمَلِكِها العَظيمِ ، نَبوخَذْنَصَّرَ ، الَّذي ماتَ سَنَةَ إِحْدى وَسِتّينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ ، قَبْلَ المَسيحِ . فَهٰذا المَلِكُ كانَ آخِرَ المُلوكِ العُظَماءِ ، قَبْلَ سُقوطِ الأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ العَظيمَةِ. وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ أَقْطارَ المَشْرِقِ المُتَمَدِّنَةَ القَديمَةَ فَقَدَتْ ، مُنْذُ ذاكَ الوَقْتِ فَصاعِداً ، مُعْظَمَ ما كانَ لَها مِنَ الاقْتِدارِ على السَّيْرِ إِلى الأَمامِ، والقِيامِ بِاكْتِشافاتٍ وَفُتوحٍ جَديدَةٍ ، في مِضْمارِ [2] الحَضارَةِ ، كَما كانَ شَأْنُها في الأَعْصُرِ الثَّلاثَةِ الكَبيرَةِ ، عَلَى الرّافِدَيْنِ [3] .

وَفي الواقِعِ ، أَنّ زَعامَةَ [4] الشُّعوبِ السّامِيَّةِ ، في العالَمِ القَديمِ ، كانَتْ قَدْ شارَفَتِ [5] النِّهايَةَ ، وأَنَّ هٰذِهِ الشُّعوبَ أَوْشَكَتْ أَنْ تُخْلِيَ السَّبيلَ أَمامَ شُعوبٍ جَديدَةٍ . وَكانَ أَهْلُ

---

(١) الضحى : حين تشرق الشمس. (٢) المضمار : الفسحة الواسعة للسباق. (٣) الرافدان : نهرا دجلة والفرات . والرافد مجرى ماء يصب في نهر كبير . (٤) الزعامة : الرئاسة . (٥) شارفت النهاية : قاربتها ودنت منها .

الصَّحْراءِ الجَنوبِيَّةِ الرَّحالونَ قَدْ أَوْشَكوا أَنْ يَخْضَعوا لِلشُّعوبِ الأَشِدّاءِ، أَهْلِ الجبالِ والسُّهولِ الشَّماليَّةِ والشَّرْقِيَّةِ. وَكانَ هٰؤُلاءِ الرَّحّالونَ القادِمونَ مِنَ الشَّمالِ جِنْساً أَبْيَضَ، نَدْعوهُ الجِنْسَ الهِنْدِيَّ الأُورُبِّيَّ، لِأَنَّ أَنْسالَهُمْ (١) مُنْتَشِرونَ اليَوْمَ، في آسِيا الغَرْبِيَّةِ وَأُورُبّا، مِنْ تُخومِ (٢) الهِنْدِ إِلى المُحيطِ الأَطْلَسِيِّ.

وَقَدْ عاشَ أَجْدادُهُمُ الأَوَّلونَ عَيْشَ القَبائِلِ الرَّحّالَةِ، يُطَوِّفونَ (٣) في المَراعي الفَسيحَةِ، في أُورُبّا وآسِيا الوُسْطى، مِنْ بَحْرِ البَلْطيكِ إِلى الجِبالِ، في غَرْبِيِّ الصّينِ. وانْحَدَرَتْ قَبائِلُ كَثيرَةٌ مِنْهُمْ جَنوباً، إِلى البَحْرِ المُتَوَسِّطِ، وَإِلى الجَنوبِ الغَرْبِيِّ مِنْ آسِيا. وأَخَصُّ (٤) هٰذِهِ القَبائِلِ هُمُ الآرِيّونَ الَّذينَ حَلّوا بِشِمالِيِّ الهِنْدِ، والحِثِّيّونَ بِآسِيا الصُّغْرى، والفُرْسُ والمادِيّونَ بِإِيرانَ، واليونانُ، والرّومانُ، والقَبائِلُ الإِيطالِيَّةُ.

وَتَلَبَّثَتْ (٥) بِالشَّمالِ قَبائِلُ أُخْرى، تَحَدَّرَ (٦) مِنْها أَخَصُّ شُعوبِ أُورُبّا الحَديثَةِ، وَمِنْهُمُ الرّوسُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الشُّعوبِ

(١) أنسال جمع نسل : ذرية . (٢) تخوم جمع تخم (بضم التاء وفتحها وسكون الخاء) : حدود . (٣) يطوفون في المراعي : يسيرون فيها ويجولون . (٤) أخص : أفضل واوجه . (٥) تلبثت : توقفت . (٦) تحدر : نزل وتولد .

السَّلافِيَّةِ، والْجِرْمانُ، والْبِرِيطانِيُّونَ، والفِرَنْساوِيّونَ، وَكَثِيرونَ غَيْرُهُمْ.

وَكانَ الْمادِيّونَ والْفُرْسُ أَوَّلَ الشُّعوبِ الْكَبِيرَةِ، الَّتِي احْتَكَّتْ[1] بِحَضارَةِ الشَّرْقِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي تَكَلَّمْنا عَلَيْها في الْفَصْلِ السّابِقِ. وكانوا يُقيمونَ بِالْجِبالِ، إلى الشَّرْقِ مِنْ دِجْلَةَ. وَكانوا قَوْماً جَبَلِيّينَ، جُفاةً[2] أَشِدّاءَ، يَعيشونَ عَلَى الْفِلاحَةِ، لا يَعْرِفونَ فَنّاً، وَلا أَدَباً، سِوى ذِكْرَياتِ الْماضي الْمُثِيرَةِ. وَلٰكِنَّهُمْ كانوا عَلَى نَوْعٍ راقٍ مِنَ الدِّينِ، وأَخْلاقٍ سامِيَةٍ.

وَكانَ أَحَدُ مُلوكِ الْمادِيِّينَ يُدْعى أَسْتِياجُسَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْأَوْلادِ سِوى بِنْتٍ واحِدَةٍ، تُدعى مَنْدانَةَ. فَزَوَّجَها رَجُلاً مِنَ الْفُرْسِ يُدعى قَمْبيزَ. وَبَعْدَ انْقِضاءِ سَنَةٍ عَلَى هٰذا الزَّواجِ، رَأَى أَسْتِياجُسُ، في رُؤْيا، كَأَنَّ كَرْمَةً[3] نَجَمَتْ[4] مِنْ أَحْشاءِ[5] مَنْدانَةَ، وامْتَدَّتْ حَتّى ظَلَّلَتْ آسِيا كُلَّها. فَأَدْرَكَ مَغْزى[6] الرُّؤْيا، وَأَرْسَلَ في طَلَبِ ابْنَتِهِ، وفي عَزْمِهِ أَنْ يَفْتُكَ[7]

---

(١) احتك به : اتصل به . (٢) الجفاة جمع الجافي : الغليظ الخشن . (٣) الكرمة شجرة العنب . (٤) نجمت : ظهرت وطلعت . (٥) أحشاء جمع حشا : ما انضمت عليه الضلوع . (٦) المغزى : المقصد . (٧) فتك به : قتله .

بوَلَدِها لَـدى مَوْلِدِهِ . فوَضَعَتْ مَنْدانَـةُ غُلامـاً ذَكَراً ، دُعِيَ كُورُشَ . فاسْتَدْعى أَسْتِياجُسُ قائِدَهُ الأَمينَ هَرْباغوسَ وَخاطَبَهُ قائِلاً :

— إنّي مُعَوِّلٌ[١] عَلَيْكَ في أَمْرٍ ، وآمُلُ أَنْ تَكونَ عِنْدَ ثِقَتي بِكَ ، وأَلاّ تَكِلَ[٢] إلى آخَرينَ القِيامَ بِما أَرْغَبُ أَنْ تَقومَ بِـهِ ، أَنْتَ نَفْسُكَ . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ما آمُرُكَ بِهِ ، كانَتِ العاقِبَةُ وَخيمَةً[٣] عَلَيْكَ . والآنَ خُذِ الغُلامَ كورُشَ واقْتُلْهُ .

فأَجابَ هَرْباغوسُ :

— عَلَيَّ السَّمْعُ والطاعَةُ .

وَلَمْ يَشَأْ هَرْباغوسُ أَنْ يَحْمِلَ دَمَ الغُلامِ ، فَسَلَّمَهُ إلى راعيهِ مِتْريداتَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتْرُكَهُ في الجِبالِ عُرْضَةً[٤] لِلسِّباعِ . واتَّفَقَ أَنَّ زَوْجَةَ الرّاعي مِتريداتَ كانَتْ قَدْ وضَعَتْ ، قَبْلَ يَوْمٍ ، وَلَداً مَيْتاً . فَلَمّا رَأَتِ الطِّفْلَ الجَميلَ ، وعَرَفَتْ أَصْلَهُ ، عَرَضَتْ

---

(١) عول عليه : استعان به واتكل عليه . (٢) وكل اليه الأمر يكل : سلمه وفوضه اليه . (٣) العاقبة الوخيمة : الآخرة الرديئة الضارة . (٤) جعلته عرضة للسباع : لصبته لها .

عَلَى زَوْجِها أَنْ يَحْمِلَ وَلَدَها المَيْتَ إِلى الجِبالِ . فَوافَقَها مِتْرِيداتُ عَلَى ذٰلِكَ ، وعُنِيَتْ [١] زَوْجَةُ الرّاعي بِتَرْبِيَةِ كورُشَ .

وَلَمّا بَلَغَ كورُشُ العاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، عَلِمَ أَسْتِياجُسُ بِالْمَكيدَةِ [٢] ، وَلَمْ يُظْهِرْ شَيْئاً مِنَ الغَضَبِ ، بَلِ اسْتَدْعى هَرْباغوسَ وَقالَ :

— إِنِّي أَعْرِفُ أَنَّ الوَلَدَ لا يَزالُ حَيّاً ، فَلا بَأْسَ [٣] عَلَيْكَ . وقَدْ أَشْجاني [٤] أَمْرُ الغُلامِ ، ولَسْتُ أَقْوَى عَلَى [٥] عِتابِ بِنْتي في شَأْنِهِ . وَالآنَ ، وَقَدْ كانَتِ العاقِبَةُ [٦] خَيْراً ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُرْسِلَ وَلَدَكَ ، لِيَكونَ في صُحْبَةِ كورُشَ ، وأَنْ تَكونَ أَنتَ في صُحْبَتي عَلَى المائِدَةِ هٰذا المَساءَ . فَقَدْ عَزَمْتُ أَنْ أُقيمَ عيداً ، شُكْراً لِلآلِهَةِ الَّتي تَسَبَّبَتْ [٧] بِنَجاةِ الغُلامِ .

وَأَمَرَ أَسْتِياجُسُ أَنْ يُقَطَّعَ وَلَدُ هَرْباغوسَ لَدى وُصولِهِ ، إِرْباً إِرْباً [٨] ، وَأَنْ يُشوى بَعْضُهُ ، وَيُسْلَقَ البَعْضُ الآخَرُ ، وَيُهَيَّأَ

---

(١) عنيت بتربيته : اهتمت . (٢) المكيدة : الخديعة والحيلة . (٣) لا بأس عليك : لا خوف . (٤) أشجاني : احزنني . (٥) أقوى عليه : اقدر . (٦) العاقبة : آخر كل شيء . (٧) تسببت بنجاته : كانت سبباً لها . (٨) ارباً ارباً : عضواً عضواً.

كُلُّهُ لِيُقَدَّمَ عَلَى ٱلمـائِدَةِ . وَلَمّا حـانَ وقتُ ٱلعَشاءِ ، قُدِّمَتِ ٱلصِّحافُ[١] مِنْ لَحْمِ ٱلضَّأْنِ إِلى سائِرِ ٱلمَدْعُوِّينَ ، وَأَمّا هَرْباغوسُ فَقُدِّمَ إِلَيْهِ جَسَدُ ٱبْنِهِ كُلُّهُ ، ما عَدا ٱلرَّأْسَ وَٱلأَطْرافَ[٢] ، فإِنَّها وُضِعَتْ عَلَى حِدَةٍ[٣] في سَلَّةٍ مُغَطَّاةٍ . وَبَعْدَ أَنْ أَكَلَ هَرْباغوسُ جاءَ ٱلخَدَمُ بِٱلسَّلَّةِ . فَلَمّا رَآها ، سَأَلَهُ أَسِتياجُسُ قائِلاً :

— أَتَدْري مِنْ لَحْمِ أَيِّ وَحْشٍ ضارٍ[٤] أَكَلْتَ ؟

فَأَجابَ هَرْباغوسُ :

— نَعَمْ يا مَوْلايَ . وَكُلُّ ما يَسُرُّ ٱلمَلِكَ يَسُرُّني أَنا أَيْضاً .

وَقَدْ دَرى هَرْبـاغوسُ بِٱلأَمْرِ ، فَحَقَدَ عَلَى ٱلمَلِكِ . وَبَلَغَ كورُشُ مَبْلَغَ ٱلرِّجالِ ، وَساعَدَهُ هَرْباغوسُ سِرًّا في ٱلتَّمَرُّدِ[٥] عَلَى ٱلمَلِكِ . فَٱسْتَوْلَيا عَلَى ٱلمَمْلَـكَةِ ، وَطَرَحا أَسْتِياجُسَ في ٱلسِّجْنِ . وَلَمْ يَلْبَثْ كورُشُ أَنْ غَدا سَيِّدَ ٱلبِلادِ . وَلَمْ تَـنْقَضِ خَمْسُ سِنينَ حَتّى كانَتْ قُوّاتُ ٱلمَمْلَـكَةِ ٱلفـارِسِيَّةِ ٱلصَّغيرَةِ قَـدِ

(١) الصحاف جمع صحفة : القصعة المنبسطة . (٢) اطراف البدن : اليدان والرجلان والرأس . (٣) وضعه على حدة : اي متميزاً من غيره . (٤) ضري بالصيد : تعوده واولع به وافترسه . (٥) التمرد . العصيان (بكسر العين) .

اُكْتَسَحَتْ[١] آسِيا اَلصُّغْرى بِقِيادَةِ كورُشَ ، وَبَلَغَتِ اَلبَحْرَ اَلمُتَوَسِّطَ ، وَأَصْبَحَتْ زَعيمَةَ اَلمَمالِكِ في اَلعالَمِ اَلشَّرْقِيِّ . وَأَخَذَ أَهْلُ اَلغَرْبِ يَنْظُرونَ إِلى كورُشَ نَظَرَ اَلإِعْجابِ وَاَلخَوْفِ .

وَكانَ اَلجَيْشُ اَلفارِسِيُّ اَلَّذي قادَهُ كورُشُ مُؤَلَّفاً مُعْظَمُهُ مِنَ اَلْأَساوِرَةِ[٢] . وَكانَ هٰؤُلاءِ يُمْطِرونَ اَلعَدُوَّ عَنْ بُعْدٍ وابِلاً[٣] مِنْ سِهامِهِمْ ، قَبْلَ اَلْتِحامِ[٤] اَلحَرْبِ بَيْنَ اَلجَيْشَيْنِ . ثُمَّ تَشُدُّ[٥] عَلَى اَلعَدُوِّ كَواكِبُ[٦] مِنْ مَهَرَةِ اَلفُرْسانِ ، تَظَلُّ حَتَّى ذٰلِكَ اَلوَقْتِ تُحَوِّمُ[٧] عَلى جَناحَيْهِ ، فَتُجْهِزُ[٨] عَلَيْهِ .

وَسَرْعانَ[٩] ما اُقْتَبَسَ[١٠] اَلفُرْسُ مِنَ اَلمَدَنِيَّةِ اَلعَظيمَةِ اَلَّتي وَجَدوها ، فيما اُسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ مِنَ اَلبِلادِ ، وَكَوَّنوا مِنْهُ إِمْبَراطورِيَّةً كَبيرَةً ، اُمْتَدَّتْ مِنْ نَهْرِ اَلهِنْدوسِ إِلى بَحْرِ إِيجَةَ ، وَمِنَ اَلمُحيطِ اَلهِنْدِيِّ إِلى بَحْرِ قَزْبِينَ . وَمِثْلُ هٰذِهِ اَلإِمْبَراطورِيَّةِ اَلواسِعَةِ اَلمُمْتَدَّةِ اَلأَطْرافِ كانَ يَقْتَضي ، مِنَ اَلقُدْرَةِ عَلى إِدارَتِهِ ،

---

(١) اكتسح البلاد : ذهب بها واستولى عليها . (٢) الاساورة جمع الاسوار (بضم الهمزة وكسرها) : الرامي بالسهام . (٣) الوابل : المطر الشديد . (٤) التحمت الحرب : اشتبكت . (٥) شد على العدو : حمل عليه . (٦) كواكب جمع كوكبة : الجماعة . (٧) حوم على العدو : دار به . (٨) أجهز عليه : شد عليه وأتم قتله . (٩) سرعان : اسم فعل بمعنى أسرع . (١٠) اقتبس : بمعنى تعلم .

وَالِاضْطِلاعِ بِشُؤونِهِ[1] ما لَمْ يَعْهَدْ في[2] مَلِكٍ مِنَ المُلوكِ فيما مَضى. وَقَدْ كانَ هٰذا العَمَلُ عَظيمًا جِدًّا، بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ في وَسْعِ[3] كورُشَ إِنْجازُهُ[4]. وَلٰكِنَّهُ كانَ البادِئَ بِهِ، وَأَتَمَّهُ بَعْدَهُ داريوسُ الكَبيرُ (سَنَةَ إِحْدى وَعِشْرينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ إِلى سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمانينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ قَبْلَ المَسيحِ). فَكانَتْ إِمْبَراطورِيَّتُهُ المُنَظَّمَةُ أَحْسَنَ تَنْظيمٍ مِنْ أَعْظَمِ الأَعْمالِ، في تاريخِ الشَّرْقِ القَديمِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ في تاريخِ العالَمِ.

وَكانَ داريوسُ عادِلاً في حُكْمِهِ، رَفيقاً[5] حَكيماً، غَيْرَ أَنَّ رَعِيَّتَهُ لَمْ يَكُنْ لَها، وَلا رَيْبَ، رَأْيٌ في إِدارَةِ البِلادِ. بَلْ كانَ كُلُّ ما يَأْمُرُ بِهِ المَلِكُ العَظيمُ يُعَدُّ شَريعَةً، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى شَعْبِهِ سِوى أَنْ يُذْعِنَ صاغِراً[6] لإِرادَتِهِ. وَقَدْ أَنْشَأَ طُرُقاً جَيِّدَةً، وَصَلَتْ أَقْسامَ الإِمْبَراطورِيَّةِ بَعْضَها بِبَعْضٍ، فَكانَ السُّعاةُ المَلَكِيّونَ يَحْمِلونَ أَوامِرَهُ إِلى الجِهاتِ في آسِيا، وَفي مِصْرَ الَّتي كانَتْ، هِيَ أَيْضاً، خاضِعَةً لَهُ. وَرُبَّما لَمْ تَكُنْ رَسائِلُهُ

---

(١) اضطلع بالعمل: قوي عليه. (٢) يعهد: يعرف. (٣) الوسع: القدرة. (٤) أنجز العمل: قضاه. (٥) الرفيق: اللطيف. (٦) أذعن صاغراً: خضع ذالاً.

تَصِلُ إِلى أَصْحابِها في مِثْلِ ٱلسُّرْعَةِ ٱلَّتي تَصِلُ فيها رَسائِلُنا ٱليَوْمَ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَصِلُ في سُرْعَةٍ لَمْ تُعْهَدْ فيما مَضى. وَلَمْ تُنْقَلْ عَلَى هٰذِهِ ٱلطُّرُقِ ٱلرَّسائِلُ وَحْدَها، بَلْ نُقِلَتْ أَنْواعُ ٱلسِّلَعِ[1] أَيْضاً. وَفي جُمْلَةِ ما حَمَلَهُ ٱلتُّجّارُ مِنَ ٱلهِنْدِ الدَّجاجُ، ٱلَّذي كانَتِ ٱلهِنْدُ مَوْطِنَهُ ٱلأَصْلِيَّ، وَظَلَّ مَجْهولاً في أَقْطارِ ٱلبَحْرِ ٱلمُتَوَسِّطِ، حَتَّى حَمَلَتْهُ ٱلمُواصَلاتُ ٱلفارِسِيَّةُ مِنَ ٱلهِنْدِ إِلى أُورُبّا.

وَكانَ ٱلحُكْمُ ٱلفارِسِيُّ، لِلْعالَمِ الشَرْقِيِّ عامَّةً، عَهْدَ[2] غِبْطَةٍ[3] وَسَلامٍ. وَقَدْ دامَ هٰذا ٱلحُكْمُ زُهاءَ[4] مِئَتَيْ سَنَةٍ (إِنْتَهَتْ نَحْوَ سَنَةِ ثَلاثٍ وَثَلاثِينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ). وَعَلَى تَراخي[5] الزَّمَنِ دَبَّ الضَّعْفُ إِلى مُلوكِ الفُرْسِ، وَلَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ نَظيرُ كُورُشَ وَدارِيُوسَ قُوَّةً وَحِذْقاً، بَلْ مالوا إِلى التَّرَفِ[6]، وَرَكَنوا إِلى الدَّعَةِ[7]، وَتَرَكوا كَثيراً مِنْ مَهامِّ ٱلمُلْكِ لِلْحُكّامِ وَٱلمُوَظَّفينَ. فَكانَ بِذٰلِكَ مِنَ ٱلفَسادِ وَٱلخَلَلِ[8] في الإِدارَةِ ما أَدّى إِلى الضَّعْفِ وَٱلاِنْحِطاطِ.

---

(١) السلع جمع سلعة: المتاع وما يتاجر به. (٢) العهد: الزمان. (٣) الغبطة: حسن الحال. (٤) زهاء: مقدار. (٥) تراخي الزمن: امتداده. (٦) الترف: التنعم ورغد العيش. (٧) الدعة: الراحة وخفض العيش. (٨) الخلل: الوهن والفساد.

وَلَمَّا كُنَّا قَدْ نَظَرْنا في دِيانَةِ ٱلمِصْرِيِّينَ والسّامِيِّينَ ٱلقُدَماءِ، يَجْدُرُ[1] بنا أَنْ نَنْظُرَ أَيْضاً في دِيانَةِ هٰؤُلاءِ ٱلهُنودِ ٱلأُورُبِّيِّينَ أَوِ ٱلآرِيِّينَ :

لَمْ يَكُنِ ٱلآرِيُّونَ القُدَماءُ يَعْرِفونَ ٱلكِتابَةَ ، وَلَمْ يُخَلِّفوا شَيْئاً مِنَ ٱلآثارِ ٱلمَكْتوبَةِ ، غَيْرَ أَنَّ مُعْتَقَداتِ أَنْسالِهِمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كانَ لَهُمْ نَوْعٌ راقٍ مِنَ ٱلدِّينِ ، يَحْصُرُ سُلوكَ ٱلإِنْسانِ في « ٱلأَفْكارِ ٱلصّالِحَةِ » و « ٱلأَعْمالِ ٱلصّالِحَةِ ». وَلِلنّارِ في هٰذا ٱلدِّينِ مَنْزِلَةٌ سامِيَةٌ . وَكانَ لَهُمْ لَفيفٌ[2] مِنَ ٱلكَهَنَةِ دُعوا « موقِدي ٱلنّارِ » .



الملك داريوس

غَيْرَ أَنَّ ٱلمادِيِّينَ وَٱلفُرْسَ دانوا[3] بدينٍ جَديدٍ ، مِنَ ٱلخَطَرِ[4] بِمَكانٍ ، لا يَزالُ يَدينُ بِهِ قَوْمٌ في إِيرانَ ، يُدْعَوْنَ

---

(١) يجدر : يحسن . (٢) اللفيف : الجمع العظيم من اخلاط شتى . (٣) دان بالدين : اتخذه ديناً . (٤) الخطر : ارتفاع القدر .

زَرْدُشْتِيّينَ. وَمُؤَسِّسُ هٰذا ٱلدّينِ رَجُلٌ ٱسْمُهُ زَرْدُشْتُ، نَشَأَ نَحْوَ سِتِّمِئَةٍ وَسَنَةِ أَلْفٍ قَبْلَ ٱلمَسيحِ، في ٱلجِبالِ ٱلشَّرْقِيَّةِ. وَيُؤْثَرُ (١) عَنْ هٰذا ٱلرَّجُلِ أَنَّهُ ضَحِكَ في يَوْمِ مَوْلِدِهِ نَفْسِهِ. وَكانَ في حَداثَتِهِ (٢) يُحِبُّ الحِكْمَةَ وَٱلِاسْتِقامَةَ، وَٱعْتَزَلَ (٣) ٱلنّاسَ، وَأَقامَ مُنْفَرِداً في أَحَدِ ٱلجِبالِ، حَيْثُ كانَ يَعيشُ عَلَى ٱلجُبْنِ. وَقَدْ دَمَّرَتِ ٱلنّيرانُ ٱلجَبَلَ ذاتَ يومٍ، غَيْرَ أَنَّ زَرْدُشْتَ نَجا سالِماً، وَأَخَذَ مِنْ ثَمَّ يَعِظُ ٱلنّاسَ.

وَعَلى رَأْيِ زَرْدُشْتَ أَنَّ عَهْدَ جَمْشيدَ، مَلِكِ إِيرانَ ٱلقَديمِ، كانَ هُوَ ٱلعَهْدَ ٱلذَّهَبِيَّ لِبِلادِهِ. «وَكانَ جَمْشيدُ أَبا شَعْبِهِ، وَأَعْظَمَ إِنْسانٍ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسُ. فَلَمْ يَهْلَكْ في أَيّامِهِ حَيَوانٌ، وَلَمْ تَدْعُ ٱلحاجَةُ إِلى ٱلماءِ، أَوْ إِلى أَشْجارٍ مُثْمِرَةٍ، أَوْ إِلى حَيَواناتٍ صالِحَةٍ لِقوتِ ٱلبَشَرِ. وَلَمْ يَكُنْ في ضِياءِ مُلْكِهِ بَرْدٌ، وَلا حَرٌّ لافِحٌ، وَلا مَوْتٌ، وَلا أَهْواءٌ (٤) جامِحَةٌ (٥)، وَلا غَيْرُ ذٰلِكَ، مِمّا يُعَدُّ مِنْ أَعْمالِ ٱلأَرْواحِ ٱلشِّرّيرَةِ. وَكانَ ٱلنّاسُ يَبْدونَ (٦)

---

(١) يؤثر : ينقل . (٢) الحداثة : الشباب واول العمر . (٣) اعتزل الناس : ابتعد عنهم . (٤) أهواء جمع هوى : أميال النفس . (٥) جامحة : لايمكن ضبطها . (٦) يبدون : يظهرون .

دائماً في سِنٍّ ٱلخامِسَةَ عَشْرَةَ ، وَٱلأَوْلادُ يَـكْبَرونَ في مَنْجًى[1] مِنَ ٱلأَخْطارِ ، في عَهْدِ جَمْشيدَ أَبي شَعْبِهِ ".

وَكانَتْ غايَةُ الدِّينِ الَّذي نادى بِهِ زَرَدُشْتُ هي ٱلعَوْدَةَ إلى مِثْلِ هٰذا ٱلعَصْرِ الذَّهَبِيِّ . وَهاكَ ما عَلَّمَهُ هٰذا الدِّينُ :

في ٱلبَدْءِ كانَ الرّوحانِ ، روحُ ٱلخَيْرِ وَروحُ الشَّرِّ . وَلِكُلٍّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلرّوحَيْنِ قُدْرَةٌ عَلى ٱلخَلْقِ وَٱلإِبْداعِ[2] . فَأَهُرَمَزْدُ هُوَ النّورُ وَٱلحَياةُ ، وَيَخْلُقُ كُلَّ ما هُوَ تَقِيٌّ صالِحٌ ، كالشَّريعَةِ ، والنِّظامِ ، والصِّدْقِ . وَأَهْرِمَنُ هُوَ الظُّلْمَةُ ، وَٱلقَذَرُ ، والموتُ ، وَيَخْلُقُ كُلَّ ما هُـوَ شَرٌّ في هٰذا ٱلعَالَمِ . وَلَمّا قامَ زَرَدُشْتُ بِدَعْوَتِهِ ، كانَ الرّوحانِ مُتَعادِلَيْنِ[3] في القُوَّةِ . والغايَةُ الَّتي تَوَخّاها[4] هِيَ تَغْليبُ روحِ ٱلخَيْرِ أَخيراً على روحِ الشَّرِّ .

وَأَهُرَمَزْدُ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ وَٱلإِلٰهُ في عالَمِ الصَّلاحِ ، غَيْرَ أَنَّ لَهُ مِنَ ٱلأَرواحِ ٱلمُقَدَّسَةِ أَعواناً كَثيرينَ . وَهِيَ قُوّاتُ ٱلفِكْرِ الصّالِحِ ، والنِّظامِ ٱلمُحْكَمِ ، وَٱلمَمْلَكَةِ ٱلفاضِلَةِ ، وَٱلخُلُقِ

---

(١) منجى : مكان النجاة . (٢) الابداع : صنع الشيء لا على مثال .
(٣) متعادلين : متساويين . (٤) توخاها : تعمدها وتطلبها دون سواها .

ٱلْمُقَدَّسِ ، والصِّحَّـةِ ، واُلْخُلودِ . وَقُوّاتُ الشَّرِّ هِيَ نَقيضُ [١] قُوّاتِ ٱلخَيْرِ .

وَيَبْدَأُ ٱلعِراكُ عِنْدما تَلْتَقي ٱلأَرْواحُ . وَتاريخُ هٰذا العِراكِ هُوَ تاريخُ ٱلعالَمِ . والخَليقَةُ كُلُّها تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ ، أَحَدُهُما خاصٌّ بِأَهُرَمَزْدَ ، والثّاني خاصٌّ بِأَهْرِمَنَ . وَلا يَعْتَرِكُ الرّوحانِ وإِنَّما تَعْتَرِكُ مَخْلوقاتُهُما الّتي يُرْسِلانِها إلى ٱلميدانِ . وميدانُ هٰذا العِراكِ هُوَ ٱلعالَمُ الحاليُّ .

وَٱلإِنْسانُ يَقومُ في وَسَطِ ٱلمَعْرَكَةِ ، وَروحُهُ هِيَ مَوْضوعُ هٰذِهِ ٱلحَرْبِ . وَلَمّا كانَ ٱلإِنْسانُ أَحَدَ مَخْلوقاتِ أَهُرَمَزْدَ كانَ لِأَهُرَمَزْدَ ٱلحَقُّ أَنْ يُناقِشَهُ [٢] ٱلحِسابَ . غَيْرَ أَنَّ أَهُرَمَزْدَ خَلَقَهُ حُرًّا في مَقاصِدِهِ وَأَعْمالِهِ ، فَكانَ لِذٰلِكَ عُرْضَةً لِتَأْثيرِ قُوّاتِ ٱلشَّرِّ . وَيَشْتَرِكُ ٱلإِنْسانُ في هٰذا ٱلعِراكِ بِحَياتِهِ كُلِّها وَأَعْمالِهِ في هٰذا ٱلعالَمِ . وهُوَ ، بِتَدَيُّنِهِ [٣] ٱلصّادِقِ ، وبِأَعْمالِهِ ، وأَقْوالِهِ ، وأَفْكارِهِ ٱلصّالِحَةِ ، وبِٱحْتِفاظِهِ عَلى ٱلدَّوامِ بِطَهارَةِ

---

(١) النقيض : المخالف . (٢) يناقشه الحساب : يبلغ الغاية في حسابه . (٣) التدين : اتخاذ الدين (بكسر الدال) .

جَسَدِهِ وَنَفْسِهِ ، يُضْعِفُ قُوَّةَ الشَّيْطانِ ، وَيَزِيدُ قُوَّةَ الصَّلاحِ ، وَيُقيمُ لَهُ حَقًّا في الْجَزاءِ عِنْدَ أَهُرَمَزْدَ . وَهُوَ ، بِتَدَيُّنِهِ الكاذِبِ ، وَبِأَعْمالِهِ ، وَأَقْوالِهِ ، وأَفْكارِهِ الطّالِحَةِ [1] ، وبِأَنْواعِ الرِّجْسِ [2] يَزيدُ قُوَّةَ الشَّرِّ ، وَيَخْدِمُ الشَّيْطانَ .

وَتَنْقَسِمُ حَياةُ الإِنْسانِ إلى قِسْمَيْنِ : قِسْمٍ يَعيشُهُ عَلَى الأَرْضِ ، وَقِسْمٍ يَعيشُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَالْقِسْمُ الَّذي يَعيشُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ تَبِعَةٌ [3] وَنَتيجَةٌ لِحَياتِهِ عَلَى الأَرْضِ . فَإِنَّ أَفْكارَ كُلِّ إِنْسانٍ ، وَأَقْوالَهُ ، وَأَعْمالَهُ تُسَجَّلُ [4] في سِفْرِ الْحَياةِ عَلَى حِدَةٍ . وَتَكونُ أَعْمالُهُ الطّالِحَةُ دُيونًا عَلَيْهِ . وَهٰذِهِ الأَعْمالُ الطّالِحَةُ لا تُنْسَخُ [5] ، ولٰكِنْ في الإِمْكانِ أَنْ تُوازَنَ [6] بِفَضْلٍ مِنَ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ .

وَتَصِلُ روحُ الإِنْسانِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلى جِسْرِ الْحِسابِ الْقائِمِ عَلَى الطَّريقِ الْمُفْضي [7] إِلى السَّماءِ . وَهُنا يُناقَشُ الْحِسابَ عَلَى

---

(١) الطالحة : بخلاف الصالحة . (٢) الرجس : القذر والعمل القبيح .
(٣) التبعة : ما يترتب على الفعل من الخير او الشر . (٤) تسجل : تكتب وتقيد .
(٥) تنسخ : تبطل . (٦) توازن : تقابل وتساوى . (٧) المفضي : المنتهي والموصل .

أَعْمالِهِ في ٱلحَياةِ . فَإِذا رَجَحَتْ (١) أَعْمالُهُ الصالِحَةُ ، يَسيرُ مِنْ فَوْرِهِ (٢) إِلى الفِرْدَوْسِ وَحَياةِ النَّعيمِ . وَإِذا رَجَحَتْ أَعْمالُهُ الطَّالِحَةُ ، يَسْقُطُ نِهائِيّاً في حَوْزَةِ (٣) الشَّيْطانِ ، وَيُقْضى عَلَيْهِ بِعَذابِ جَهَنَّمَ إِلى الأَبَدِ . وَإِذا تَكافَأَتْ (٤) أَعْمالُ ٱلخَيْرِ ، وأَعْمالُ الشَّرِّ ، فَإِنَّ الرّوحَ تَصيرُ إِلى طَوْرٍ (٥) وَسَطٍ مِنَ ٱلوُجودِ ، وَلا يُبَتُّ (٦) نَصيبُها النِّهائِيُّ إِلاَّ عِنْدَ الدَّيْنونَةِ ٱلأَخيرَةِ .

بَيْدَ أَنَّ ٱلإِنْسانَ جَديرٌ بالشَّفَقَةِ ! فَقَدْ أُصيبَ بِٱلعَمايَةِ (٧) وَٱلجَهْلِ ، فَلا يَعْرِفُ الشَّريعَةَ ٱلأَزَلِيَّةَ ، وَلا ما يَنْتَظِرُهُ بَعْدَ ٱلمَوْتِ وَسَرْعانَ ما يَنْشَبُ (٨) في حِبالَةِ (٩) قُوّاتِ الشَّرِّ الَّتي تَعْمَلُ عَلى (١٠) هَلاكِهِ ٱلأَبَدِيِّ .

وَلِذا أَرادَ أَهُرَمَزْدُ بِنِعْمَتِهِ أَنْ يَفْتَحَ عُيونَ البَشَرِ ، بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نَبِيّاً ، يَقودُهُمْ في الطَّريقِ السَّوِيِّ (١١) ، طَريقِ ٱلخَلاصِ . وَلَمّا كانَ زَرَدُشْتُ رَجُلاً روحانِيًّا ، فَقَدْ وُجِدَ أَهْلاً

(١) رجحت : ثقلت حتى مالت . (٢) من فوره : حالا دون أن يستقر . (٣) الحوزه : الناحية . (٤) تكافأت : تساوت . (٥) الطور : الحال . (٦) يبت الحكم : يقطع ويمضى . (٧) العماية : الغواية والضلال . (٨) ينشب : يعلق . (٩) الحبالة : المصيدة . (١٠) عمل على هلاكه : سعى فيه . (١١) السوي : المستوي والمستقيم .

لِهٰذِهِ ٱلْمُهِمَّةِ . وَأَعْتَقَدَ أَنَّ ٱلْوَقْتَ قَدْ حانَ لِقِيامِ نَبِيٍّ ، يَكُونُ بِمَثابَةِ[١] دَعْوَةٍ أَخِيرَةٍ مِنْ أَهُرَمَزْدَ لِلْبَشَرِ عامَّةً ، لِأَنَّ مَلَكُوتَ ٱلسَّماءِ كانَ قَدِ ٱقْتَرَبَ ، فَلا يَلْبَثُ أَهُرَمَزْدُ أَنْ يَدْعُوَ قُوّاتِهِ كُلَّها لِحَرْبٍ نِهائِيَّةٍ مَعَ قُوّاتِ ٱلشَّرِّ . وَعِنْدَئِذٍ ، يَكُونُ أَوَّلُ عَهْدِ ٱلْمَمْلَكَةِ ٱلْوَحِدَةِ[٢] ، مَمْلَكَةِ ٱللّٰهِ ٱلْكامِلَةِ ، فِي ٱلسَّماءِ وَعَلَى ٱلْأَرْضِ . وَفِي هٰذِهِ ٱلْمَمْلَكَةِ تُشْرِقُ ٱلشَّمْسُ عَلَى ٱلدَّوامِ ، وَيَعِيشُ ٱلْأَتْقِياءُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ عِيشَةً سَعِيدَةً رَغْدَةً[٣] ، لا تُزْعِجُها قُوَّةٌ مِنْ قُوّاتِ ٱلشَّرِّ ، فِي صُحْبَةِ أَهُرَمَزْدَ وَمَلائِكَتِهِ ، إِلَى ٱلْأَبَدِ . وَيَنالُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ، مُكافَأَةً لَهُ ، ٱلْبَقَرَةَ ٱلَّتِي لا نَفادَ[٤] لَها ، وَنِعْمَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلصّالِحِ . وَيَنالُ ٱلنَّبِيُّ ، وَٱلْأُمَراءُ حُماتُهُ جَزاءً خاصًّا .

وَٱلْبَقَرَةُ عَطِيَّةُ أَهُرَمَزْدَ لِلْإِنْسانِ ، وَكانَتْ تُعَدُّ حَيَوانًا مُقَدَّسًا . وَتِلْكَ فِكْرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِقَوْمٍ مُتَحَضِّرِينَ[٥] ، أَلِفُوا[٦] فِلاحَةَ ٱلْأَرْضِ . فَٱلْبَقَرَةُ هِيَ ٱلْحَيَوانُ ٱلَّذِي يُؤْتِي[٧] ٱلْإِنْسانَ

(١) المثابة : المنزلة . (٢) الوحدة مؤنث الوحد : المنفردة . (٣) عيشة رغدة : طيبة متسعة . (٤) النفاد : الفنــاء . (٥) المتحضرون : المقيمون المستقرون بخــلاف الرحالين . (٦) ألفوا : تعودوا . (٧) يؤتي مضارع آتى : أعطى .

قوتاً ، وَيُساعِدُهُ عَلَى أَعْمالِهِ اليَوْمِيَّةِ ، وَبِهِ تَقومُ صِناعَةُ الفَلاّحِ ، بِخِلافِ قاطِعِ الطَّريقِ المُتَوَحِّشِ في القَفْرِ ، فإِنَّهُ لا يَعْرِفُ البَقَرَةَ .

وَلَمْ يُبْقِ زَرْدُشْتُ إِلاَّ عُنْصُراً واحِداً ، مِنْ عَناصِرِ الدّينِ القَديمِ ، في كامِلِ قَدامَتِهِ ، وَهُوَ النّارُ الَّتي كانَتْ تُعَدُّ أَنْقى مَظْهَرٍ لِأَهُرَمَزْدَ وَقُوّاتِ الخَيْرِ . فأُقيمَتْ مَعابِدُ لِلنّارِ في كُلِّ مَكانٍ ، وَعَدَّ النَّبِيُّ موقِدِي النّارِ كَهَنَةَ الدّينِ الحَقيقِيِّ ، والوُسَطاءَ[١] بَيْنَ اللهِ والنّاسِ . وَغدا زَرْدُشْتُ أَوَّلَ مُؤَسِّسٍ عَظيمٍ لِمُعْتَقَدٍ[٢] دينِيٍّ . وَدُعِيَ كِتابُهُ المُقَدَّسُ أَفِسْتا .

وَقَدْ كانَ مُلوكُ الفُرْسِ ، الَّذينَ مَرَّ بِنا ذِكْرُهُمْ ، مِنْ أَخْلَصِ[٣] النّاسِ إِيماناً بِدينِ زَرْدُشْتَ وَتَعْليمِهِ . وَقَدِ انْتَشَرَ هٰذا الدّينُ بِسُلْطانِهِمْ[٤] في آسِيا الغَرْبِيَّةِ كُلِّها . وَقَدْ زَعَمَت[٥] الأُمَمُ الَّتي كانَ لَها السُّلْطانُ بَعْدَ الفُرْسِ ، وَأَخَصُّها اليونانُ ، أَنَّ مُلوكَ الفُرْسِ كانوا طُغاةً[٦] شَرْقِيّينَ ، قُساةً ، بَرابِرَةً . وَهٰذا لا يَصْدُقُ كُلُّهُ ، فَإِنَّ مُلوكَ الفُرْسِ ، لَمّا كانوا مِنْ أَتْباعِ زَرْدُشْتَ

---

(١) الوسطاء جمع الوسيط : المتوسط بين المتخاصمين وغيرهم . (٢) المعتقد : ما يصدقه الانسان ويؤمن به . (٣) أخلص : أنقى وأصفى . (٤) السلطان : القدرة والملك . (٥) زعم : قال قولا حقاً او باطلا . (٦) الطغاة جمع الطاغي : الظالم .

الصّادقينَ ، كانوا يَشْعُرونَ بِما يَجِبُ عَلَيْهِمْ لِلْأُمَمِ الَّتي عَنَتْ[1] لِسُلْطانِهِمْ مِنْ عدالَةِ الْحُكْمِ . وَقَدْ جاءَ في الْكِتابَةِ الْبَهِسْتُونِيَّةِ عَلَى لِسانِ دارِيوسَ الْكَبيرِ ما نَصُّهُ[2] :

„لِهٰذا ساعَدَني أَهُرَمَزْدُ ، . . . لِأَنّي لَمْ أَكُنْ شرّيراً ، وَلا كَذّاباً ، وَلَمْ أَكُنْ ظالماً ، لا أَنا وَلا أَحَدٌ مِنْ أُسْرَتي . وَقَد حَكَمْتُ بِالْعَدْلِ والْحَقّ ".



(١) عنت : خضعت وذلت . (٢) النص من الكلام : هو ما لا يحتمل الا معنى واحداً .

حضارة وادي الخشبي

لَمْ تَلْبَثْ هٰذِهِ الْحَيَاةُ الرَّاقِيَةُ ، الَّتِي رَأَيْناها في مِصْرَ وَآسِيا، أَنْ عَبَرَتْ بَحْرَ إِيجَة إِلى أُورُبّا ، واسْتَقَرَّتْ[1] أَوَّلاً عِنْدَ الشُّعوبِ ، الَّتي كانَتْ تَقْطُنُ في الْأَقْطارِ ، الَّتي نَدْعوها اليَوْمَ بِلادَ الْيونانِ ، وَقَدْ دُعِيَتْ هٰذِهِ الْمَدَنِيَّةُ الْجَديدَةُ إِجْمالاً بِالْمَدَنِيَّةِ الْإِيجِيَّةِ ، في حينِ أَنَّ مَدَنِيَّةَ مِسِّينَةَ ، الْمَدينَةِ الشَّهيرَةِ في بِلادِ اليونانِ نَفْسِها ، دُعِيَتْ بِالْمَدَنِيَّةِ الْمِسِّينِيَّةِ ، وفي حينِ أَنَّ مَدَنِيَّةَ إِكْريتَ دُعِيَتْ بِالْمَدَنِيَّةِ الْمِنُوانِيَّةِ .

وَكانَتْ جَزيرَةُ إِكْريتَ أَوَّلَ مَواطِنِ الْمَدَنِيَّةِ في الْعالَمِ الْإِيجِيِّ . وَكانَ مُلوكُها ، الَّذينَ دُعوا مُلوكَ الْبَحْرِ ، مُتَسَلِّطينَ في كِنَسُّوسَ ، إِحْدى مُدُنِها الشَّهيرَةِ . وَكانَتْ هٰذِهِ الْمَدَنِيَّةُ الْإِيجِيَّةُ أَرْقى مَدَنِيّاتِ الْعالَمِ الْقَديمِ عَلى الْإِطْلاقِ[2] . وَلَمْ تَلْبَثْ مَدينَةُ كِنَسُّوسَ أَنْ دُمِّرَتْ ، نَحْوَ سَنَةِ خَمْسينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ وَأَلْف ،

---

(١) استقرت : سكنت وثبتت . (٢) على الاطلاق : على وجه عام لا استثناء فيه .

قَبْلَ المسيح ، وانْتَقَلَتِ المَدَنِيَّةُ الإيجيةُ إلى مسِّينَةَ ، وَإلى آسيا الصُّغرى . وَلَمْ تَلْبَثْ هُناكَ أَنْ عَدَتْ عَلَيْها العَوادي (١) أَيْضاً .

فَإِنَّ شعْباً هِنْدِيًّا أُورُبِّيًّا قَدِ انْحَدَرَ زاحِفاً مِنَ الشِّمالِ ، واسْتَوْلى عَلى البِلادِ . وَكانَ هٰؤُلاءِ الغُزاةُ أَشَدَّ مِنَ السُّكّانِ الأَصْلِيّينَ ، وَلٰكِنَّهُمْ كانوا أَحَطَّ ثَقافَةً (٢) . وَقَدْ أَعْمَلوا في البِلادِ يَدَ التَّخْريب ، إلاَّ أَنَّهُمُ اسْتَبْقَوْا (٣) ما كَفى لِكَيْ تَنْشَأَ مِنْهُ فيما بَعْدُ مَدَنِيَّةٌ أَعْظَمُ .

وَهٰؤُلاءِ الغُزاةُ هُمُ الشَّعْبُ ، الَّذي نَدْعوهُ اليَوْمَ بِاليونانِيّينَ ، مَعَ أَنَّهُمْ كانوا ، في ذٰلِكَ الزَّمَنِ ، قَبائِلَ شَتَّى . وَقَدِ اسْتَوْلى قِسْمٌ كَبيرٌ مِنْهُمْ عَلَى بِلادِ اليونانِ ، وَعَبَرَ كَثيرونَ أَيْضاً مَضيقَيِ البوسِفورِ والدَّرْدانيلِ ، واسْتَقَرّوا في آسِيا الصُّغْرى حَيْثُ بَنَوْا مَدينَةَ طِرْوادَةَ الشَّهيرَةَ ، في مَوْقِعِ مَدينَةٍ سابِقَةٍ . وَفي نَحْوِ سَنَةِ مِئَتَيْنِ وَأَلْفٍ ، قَبْلَ المَسيحِ ، نَشِبَتِ (٤) الحَرْبُ الطِّرْوادِيَّةُ ، بَيْنَ أَهْلِ طِرْوادَةَ وَسُكّانِ بِلادِ اليونانِ الجُدُدِ . وَقَدْ كانَ الطِّرْواديّونَ

---

(١) عدت عليها العوادي : نزلت بها المصائب . (٢) الثقافة : الحذق والفهم .
(٣) استبقى الشيء : تركه يبقى . (٤) نشبت الحرب : ثارت واشتبكت .

واليونانيّونَ ، في الأَصْلِ ، شَعْباً واحِداً ، مُتَّفِقاً في اللُّغَةِ والعاداتِ .

وانْقَضَّتْ عَلَى بِلادِ اليونانِ ، بَعْدَ الحَرْبِ الطِّرْواديَّةِ ، قَبائِلُ يونانِيَّةٌ أُخْرى ، وَاسْتَقَرَّتْ كُلُّها أَخيراً هُناكَ ، وَتَعايَشَتْ(١) . وَلَسْنا نَعْرِفُ ، مِنْ تاريخِ اليونانِيّينَ القَديمِ ، إِلاَّ ما ذَكَرَهُ هوميروسُ ، الشّاعِرُ اليونانِيُّ العَظيمُ ، الَّذي تَغَنَّى(٢) بِمُدُنِ البَشَرِ وَالآلِهَةِ .

وَكانَ اليونانِيّونَ ، بِخِلافِ أَهْلِ المَشْرِقِ ، يُؤْثِرونَ(٣) الحُرِّيَّةَ عَلَى كُلِّ ما عَداها . وَكانوا يَعيشونَ في مُدُنٍ صَغيرَةٍ ، مُسْتَقِلَّةٍ(٤) ، لا عَلاقَةَ لِلْواحِدَةِ مِنْها بِالأُخْرى . وَكُلُّ مَدينَةٍ كانَتْ مَمْلَكَةً في حَدِّ نَفْسِها ، وَلِذا نُسَمّيها مَمالِكَ المُدُنِ ، أَوِ المُدُنَ المَمالِكَ . وَكانَ في بِلادِ اليونانِ أَرْبَعٌ مِنْ هٰذِهِ المَمالِكِ ، وَهِيَ : أَثينا ، وَإِسْبَرْطَةُ ، وَأَرْغوسُ ، وَثيبَةُ . وَلَمْ تَسْتَوْلِ هٰذِهِ المَمالِكُ عَلى أَمْلاكِ الشُّعوبِ المُجاوِرَةِ ، كَما فَعَلَتِ المَمالِكُ المَشْرِقِيَّةُ ، بَلْ كانَتْ ، عِنْدَ ازْدِيادِ عَدَدِ سُكّانِها ، تُرْسِلُ الجالياتِ(٥) إِلى الأَقْطارِ ، حَوْلَ البَحْرِ المُتَوَسِّطِ .

---

(١) تعايش القوم: عاشوا مجتمعين. (٢) تغنى الشاعر بكذا : قال فيه شعراً مادحاً أو هاجياً . (٣) يؤثرون : يفضلون . (٤) مستقلة : منفردة بأمورها لا تشرك فيها غيرها . (٥) الجالية : الغرباء الذين هجروا أوطانهم .

غَيْرَ أَنَّ ٱليونانِيّينَ كانوا قَوْماً خَصِمين[١]، وَكَثيراً ما نَشِبَتِ ٱلحُروبُ فيما بَيْنَهُمْ. وَلٰكِنَّهُمْ ٱتَّفَقوا أخيراً، عَلَى مُحارَبَةِ ٱلفُرْسِ، ٱلَّذينَ فَرَضوا ٱلجِزْيَةَ عَلى ٱلمُدُنِ ٱليونانِيَّةِ، في آسِيا الصُّغْرى. وَكانَ أَهْلُ بِلادِ ٱليونانِ قَدْ أَرْسَلوا مَدَداً[٢] إلى إخْوانِهِمْ في آسيا الصُّغْرى، فَأَوْغَروا[٣] بِذٰلِكَ صُدورَ ٱلفُرْسِ، فَغَزَوْا بِلادَ ٱليونانِ ٱنْتِقاماً. وَلٰكِنَّ ٱلفُرْسَ أَخْفَقوا[٤] في غَزْوَتِهِمْ هٰذِهْ. وَجاءَ وَقْتٌ، قامَ في ٱليونانِيّينَ رَجُلٌ عَظيمٌ، يُدْعى ٱلإسْكَنْدَرَ ٱلكَبيرَ، فَٱسْتَوْلى عَلى ٱلإمْبَراطورِيَّةِ الفارِسِيَّةِ ٱلعَظيمَةِ.

*
* *

بَعْدَ أَنِ ٱكْتَسَحَتِ ٱلقَبائِلُ الشِّمالِيَّةُ بِلادَ ٱليونانِ، كانَ ثَمَّةَ[٥] أَميرَةٌ يونانِيَّةٌ، تُدْعى هيلانَةَ. وكانَتْ بارِعَةَ[٦] ٱلجَمالِ. حَتّى وَدَّ كُلُّ أَميرٍ رَآها لَوْ يَتَّخِذُها زَوْجَةً. فَكانَ ذٰلِكَ مَدْعاةً[٧] إلى خَوْفِ أَبيها تِنْداروسَ، لِأَنَّهُ قالَ في نَفْسِهِ:

---

(١) الخصم: المجادل والمنازع. (٢) المدد: العون والغوث. (٣) أوغر الصدر: أوقده من الغيظ. (٤) أخفق في عمله: خاب ولم يصب فيه نجاحاً. (٥) ثمة: اسم يشار به الى البعيد بمعنى هناك. (٦) بارعة الجمال: فائقته. (٧) المدعاة: السبب.

,, إِذا أَنا أَعْطَيْتُ ٱبْنَتي واحِداً مِنْ هٰؤلاءِ ٱلأُمَراءِ زَوْجَةً، فَكُلُّ ٱلآخَرِينَ الَّذينَ يُحِبّونَها يَصيرونَ لي أَعْداءً ".

وَبَقِيَ مُدَّةً طَويلَةً لا يَدْري ما يَصْنَعُ، وَلٰكِنَّهُ ٱهْتَدى أَخيراً إِلى وَجْهِ(١) ٱلحيلَةِ. فَبَعَثَ السُّعاةَ إِلى ٱلأُمَراءِ، في كُلِّ ٱلممالِكِ ٱليونانِيَّةِ، يَدْعوهُمْ إِلى وَليمَةٍ(٢) أَوْلَمَها لَهُمْ.

وٱنْطَلَقَ ٱلسُّعاةُ وَوَفَدوا عَلى مَنَلاوُسَ، مَلِكِ إِسْبَرْطَةَ، وَعَلى أَخيهِ أَغَمِمْنُونَ، مَلِكِ مِسِّينَةَ، وَكانَ هٰذا طَويلَ ٱلقامَةِ جِدًّا، فَسَمّاهُ شَعْبُهُ «مَلِكَ الرِّجالِ». وَرَحَلوا إِلى الجَزائِرِ، وَإِلى ٱلمُرْتَفَعاتِ، وَلَمْ يَنْسَوْا أَحَداً.

وَلَمْ يَلْبَثِ الأُمَراءُ أَنْ أَقْبَلوا، بَعْضُهُمْ لابِسينَ الدُّروعَ البَرّاقَةَ، وَبَعْضُهُمُ ٱلأَثْوابَ الصّوفِيَّةَ. وَكانَ فَريقٌ مِنْهُمْ مُمْتَطِينَ(٣) جِيادَهُمُ ٱلحَرْبِيَّةَ، مُسَلَّحينَ بِٱلأَسْلِحَةِ النُّحاسِيَّةِ. وَجاءَ ٱلفَريقُ ٱلآخَرُ في مَرْكَباتٍ مُحَلّاةٍ بِالذَّهَبِ وٱلفِضَّةِ. فَخَرَجَ والِدُ هيلانَةَ إِلى السّاحَةِ العامَّةِ لِاسْتِقْبالِهِمْ وَخاطَبَهُمْ قائِلاً:

---

(١) وجه الحيلة: سبيلها. (٢) الوليمة: كل طعام يتخذ لجمع أو لدعوة.
(٣) ممتطين: راكبين.

— كُلُّكُمْ يُحِبُّ ٱبْنَتِي ، وَلَمَّا كانَ يَعْسُرُ عَلَيَّ ٱلِٱخْتِيارُ ، فَإِنَّ هيلانَةَ سَتَخْتارُ هيَ نَفْسُها ، زَوْجاً لَها مِنْ بَيْنِكُم . وَلٰكِنْ قَبْلَ أَن تَفْعَلَ ، أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَعِدوني وَعْدَيْنِ : أَحَدُهما أَن تَرْضَوْا بِٱخْتِيارِ هيلانَةَ وَلا تَتَنازَعوا[1] ، وَثانيهِما أَنْ تُساعِدوا زَوْجَها ، كُلَّما ٱحْتاجَ إِلَيْكُمْ .

فَأَشْرَعَ[2] ٱلأُمَراءُ رِماحَهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَصاحوا قائلينَ :

— إِنَّنا نَعِدُ .

عِنْدَئِذٍ غادَرَتْ[3] هيلانَةُ مَكانَها بِجانِبِ أَبيها ، وَبادَرَتْ إِلى مَنَلاوُسَ ، مَلِكِ إِسْبَرْطَةَ ، وَوَقَفَتْ أَمامَهُ لا تُبْدي حَراكاً . فَعَلا صِياحُ ٱلأُمَراءِ ، وَنَفَخَ ٱلْمُبَوِّقونَ في ٱلأَبْواقِ . وَأَمَّا مَنَلاوُسُ فَظَلَّ صامِتاً لِعِلْمِهِ أَنَّهُ فازَ بِأَجْمَلِ عَروسٍ في بِلادِ ٱليونانِ .

وَقَضى ٱلأُمَراءُ والشَّعْبُ أَيّاماً في ٱلأَفْراحِ ، وَلَمّا ٱنْقَضَتْ أَيّامُ ٱلعُرْسِ ، رَحَلَ مَنَلاوُسُ بِهيلانَةَ إِلى إِسْبَرْطَةَ ، فَأُعْجِبَ ٱلكُلُّ هُناكَ بِجَمالِها .

---

(١) تنازع القوم : اختلفوا وتخاصموا . (٢) أشرع الرمح : سدده ورفعه جداً .
(٣) غادرت : تركت .

وَٱنْقَضَتْ عِدَّةُ سَنَوات ، لازَمَتْ هيلانَةَ فيها السَّعادَةُ . غَيْرَ أَنَّهُ ، ذاتَ يَوْمٍ ، قَدِمَ إِلى إِسْبَرْطَةَ رَجُلٌ غَريبٌ ، يُدْعى باريسَ . وَكانَ هٰذا أَصْغَرَ أَوْلادِ بِرْيامَ ، مَلِكِ طِرْوادَةَ ، وَهِيَ ٱلْمَدينَةُ ٱليونانِيَّةُ ٱلواقِعَةُ عَلى ساحِلِ آسِيا ٱلصُّغْرى ، وَراءَ ٱلبَحْر.

وَكانَ باريسُ قَدْ أَوْفَدَهُ [1] أَبوهُ في مُهِمَّةٍ [2] إِلى مَدينَةِ صورَ ، فَمَرَّ لَدى عَوْدَتِهِ إِلى طِرْوادَةَ بِبِلادِ ٱليونانِ . وَكانَ باريسُ أَجْمَلَ فَتًى في زَمانِهِ . فَرَأَى هيلانَةَ وأَحَبَّها لِفَرْطِ جَمالِها ، ثُمَّ أَغْراها [3] بِأَنْ تَهْرُبَ مَعَهُ إِلى طِرْوادَةَ .

وَلَمّا دَرى ٱلمَلِكُ مَنَلاوُسُ بِٱلأَمْرِ ، أَرْسَلَ إِلى طِرْوادَةَ طالِباً أَنْ تُعادَ إِلَيْهِ ٱمْرَأَتُهُ . وَلٰكِنَّ أَهْلَ طِرْوادَةَ ، ٱعْتِقاداً مِنْهُمْ أَنْ لَيْسَ في ٱلعالَمِ مَلِكٌ يَسْتَطيعُ مُناوَأَتَهُمْ [4] ، وَحُبّاً بِأَنْ يُفاخِروا أَنَّ أَجْمَلَ ٱمْرَأَةٍ في ٱلعالَمِ في مَدينَتِهِمْ ، أَبَوْا أَنْ يُعيدوا إِلى مَنَلاوُسَ ٱمْرَأَتَهُ . وَكانَتْ طِرْوادَةُ أَعْظَمَ مُدُنِ ٱلبَشَرِ ، أَسْوارُها مَنيعَةٌ [5] شاهِقَةٌ [6] ، فَلا يَسَعُ ٱلأَعْداءَ أَنْ يَهْدِموها أَوْ يَتَسَلَّقوها

---

(١) أوفده : أرسله . (٢) المهمة : الأمر ذو الشأن . (٣) أغراها بالهرب : حضها عليه . (٤) المناوأة : المعارضة والمعاداة . (٥) منيعة : يتعذر الوصول اليها . (٦) شاهقة : مرتفعة .

وَكانَتْ أَبْراجُها عالِيَةً ، وَأَبْوابُها كَبيرَةً ، وَفي قِلاعِها رِجالٌ أَشِدّاءُ مُسَلَّحونَ بِأَفْضَلِ ٱلسِّلاحِ ، وَفي خَزائِنِها كُنوزٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّةِ . وَكانَ لِمَلِكِها بِرْيامَ خَمْسونَ وَلَداً ، أَكْبَرُهُمْ هِكْتورُ ٱلَّذي كانَ قائِدَ جُيوشِ ٱلمَدينَةِ .

فَغَضِبَ مَنَلاوُسُ وَٱغْتَمَّ ، وَدَعا أُمَراءَ ٱليونانِ كُلَّهُمْ ، وَخاطَبَهُمْ قائِلاً :

— إِنَّكُمْ وَعَدْتُموني ، يَوْمَ تَزَوَّجْتُ هيلانَةَ ، أَنْ تُساعِدوني كُلَّما نَزَلَ بي خَطْبٌ ، وَها قَدْ حانَ لَكُمْ أَن تَبِرّوا في وَعْدِكُمْ (١) .

فَأَشْرَعَ ٱلأُمَراءُ رِماحَهُمْ ، وَصاحوا قائِلينَ :

ـ تَكَلَّمْ يا مَنَلاوُسُ فَإِنَّنا لا نَزالُ عَلَى ٱلوَعْدِ .

حينَئِذٍ ، أَخْبَرَهُمْ مَنَلاوُسُ بِما جَرى ، فَوَعَدوهُ أَنْ يُحارِبوا مَدينَةَ طِرْوادَةَ ، وَيُرْجِعوا هيلانَةَ إِلى بِلادِها . وَٱنْقَضَتْ أَيّامٌ تَأَهَّبَ (٢) فيها ٱلقَوْمُ لِلْحَرْبِ . وَلَمّا تَمَّ ٱلاِسْتِعْدادُ ، ٱجْتَمَعَ لِمُساعَدَةِ مَنَلاوُسَ أَرْبَعَةٌ وَثَلاثونَ أَميراً ، وَعَشَرَةُ آلافِ رَجُلٍ ،

---

(١) بر في وعده : صدق . (٢) تأهب : استعد

وَرَسَتْ[1] أَلْفُ سَفِينَةٍ فِي ٱلْخَلِيجِ. وَكَانَ هٰؤُلاءِ ٱلأُمَرَاءُ أَشَدَّ ٱليونانِيِّينَ، وأَكْرَمَهُمْ حَسَباً[2]. فَقَدْ كانَ بَيْنَهُمْ أَخيلُ، وَنَسْطورُ، وَعُولُسُ ٱلحَكِيمُ، وَأَغَمِمْنونُ الَّذي ٱخْتِيرَ قائداً، لِأَنَّهُ كانَ مَلِكَ الرِّجالِ. وَأَقْبَلَ النِّساءُ وٱلأَوْلادُ إِلى ٱلبَحْرِ لِيَرَوُا السُّفُنَ ٱلجَميلَةَ ذاتَ ٱلقُلوعِ السَّوْداءِ، تَنْسابُ[3] عَلَى وَجْهِ ٱلماءِ. وَلٰكِنَّ السُّفُنَ لَمْ تُقْلِعْ[4]، لِإِعْوازِ[5] الرِّيحِ.

وَبَيْنا كانَ ٱليونانِيّونَ يَنْتَظِرونَ هُبوبَ الرِّيحِ تَحَدَّثوا فيما بَيْنَهُمْ قائِلينَ:

« ما يَقْتَضينا التَّغَلُّبُ عَلَى مَدينَةِ طِرْوادَةَ مِنَ الزَّمَنِ؟ ».

وَفيما هُمْ يَتَحَدَّثونَ رَفَعَ أَحَدُهُمْ طَرْفَهُ[6] إِلى جُمَّيْزَةٍ باسِقَةٍ[7]، فَرَأَى حَيَّةً تَتَسَلَّقُها إِلى عُشٍّ فيهِ عُصْفورَةٌ تَزُقُّ[8] أَفْراخاً لَها تِسْعَةً. فَأَكَلَتِ ٱلحَيَّةُ ٱلأَفْراخَ التِّسْعَةَ وَأُمَّها، وَما لَبِثَتْ أَنِ ٱنْقَلَبَتْ بَغْتَةً حَجَراً. فَعَجِبوا كُلُّهُمْ لِذٰلِكَ، وَأَرْسَلوا في طَلَبِ رَجُلٍ

---

(١) رست السفينة : وقفت والقت المرساة . (٢) الحسب : شرف الأصل .
(٣) تنساب : تمشي مسرعة . (٤) أقلعت السفن : رفعت قلوعها . (٥) اعواز الريح : الاحتياج اليها . (٦) الطرف : العين . (٧) باسقة : طويلة مرتفعة الأغصان . (٨) تزق فراخها : تطعمها بمنقارها .

حَكيمٍ ، واُسْتَعْلَموهُ مَعْنى ما رَأَوْا. فأَجابَهُمُ اُلحَكيمُ :

— هٰذا يَعْني أَنَّكم تُحارِبونَ اُلمَدينَةَ تِسْعَ سِنينَ ، وتُدَمِّرونَها في العاشِرَةِ .

وما لَبِثَتِ الرّيحُ أَنْ هَبَّتْ ، فَأُقْلِعَتِ السُّفُنُ، وَأَشارَ النّاسُ على الشّاطِئِ مُوَدِّعينَ مَنْ فيها . وَجَرَتِ الأُمورُ كما أَنْبَأَ الرَّجُلُ اُلحَكيمُ . فَإِنَّ اليونانِيّينَ حارَبوا طِرْوادَةَ تِسْعَ سِنينَ طويلَةٍ ، وكانَتِ اُلحَرْبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِها سِجالاً [١] ، تارَةً يَنْتَصِرونَ ، وَتارَةً يُغْلَبونَ . وَقَتَلَ أَخيلُ هِكْتورَ، بَطَلَ طِرْوادَةَ اُلعَظيمَ . وَرَمى باريسُ أَخيلَ اُلجَبّارَ بِسَهْمٍ في عَقِبِهِ [٢] فَماتَ . وَأَصابَ باريسَ سَهْمٌ عائِرٌ [٣] فَماتَ هُوَ أَيْضاً . وَكانَتْ هيلانَةُ تُشْرِفُ [٤] مِنْ أَسْوارِ اُلمَدينَةِ عَلَى السَّهْلِ أَمامَها تُراقِبُ سَيْرَ القِتالِ . واُنْقَضى الشَّهْرُ تِلْوَ الشَّهْرِ ، والسَّنَةُ تِلْوَ السَّنَةِ، واُلمَعارِكُ دائِرَةٌ ، وَقَدْ عَجِزَ اُليونانيّونَ عَنْ فَتْحِ طِرْوادَةَ .

أَخيراً جَمَعَ عُولُسُ اُلمَشْهورُ بِالدَّهاءِ واُلحِكْمَةِ جُموعَ اليونانِيّينَ، وَخاطَبَهُمْ قائِلاً :

(١) الحرب بينهم سجال : اي تارة لهم وتارة عليهم . (٢) العقب : مؤخر القدم .
(٣) سهم عائر : لا يدرى من رمى به . (٤) أشرف على المكان : اطل .

— يَنْبَغي أَنْ نَرْكَبَ سُفُنَنا، وَنُظْهِرَ أَنَّنـا مُرْتَحِلونَ إِلى أَوْطانِنا، وَلٰكِنّا سَنُخَلِّفُ(١) في هٰذا ٱلْمَكانِ شَيْئاً.

ثُمَّ أَفضى(٢) إِلى ٱلزُّعَماءِ بِسِرٍّ، فَما هُوَ إِلاَّ ٱلْقَليلُ حَتّى سُمِعَ في مُعَسْكَرِ عُولُسَ صَوْتُ خَشَبٍ يُنْشَرُ، وَمَساميرَ تُدَقُّ. وَلَمّا هَمَدَ(٣) الصَّوْتُ، رَأَى أَهْلُ طِرْوادَةَ سُفُنَ ٱليونانِيّينَ مُرْتَحِلَةً عَنْ مَدينَتِهِمْ.

فَٱبْتَهَجوا بِذٰلِكَ جِدًّا، وَأَخَذوا يُغَنّونَ وَيَتَأَهَّبونَ(٤) لِيَوْمِ عيدٍ عَظيمٍ. وَفَتَحوا أَبْوابَ ٱلْمَدينَةِ، وَبادَروا إِلى حَيْثُ كانَ ٱليونانِيّونَ ضارِبينَ(٥) خِيامَهُمْ. فَلَمْ يَرَوْا سِوى شَيْءٍ غَريبٍ، عَلَى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ. فَدَنَوْا مِنْهُ، فَإِذا هُوَ حِصانٌ خَشَبِيٌّ، ضَخْمٌ جِدًّا، قائِماً مُنْفَرِداً عَلَى ٱلرَّمْلِ. فَقالَ بَعْضُهُمْ:

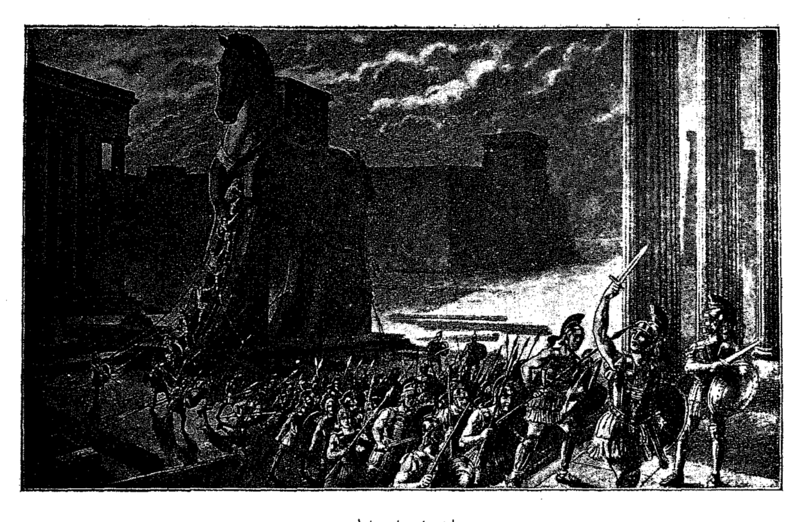
— حَذارِ وَٱبْتَعِدوا، فَإِنَّها آلَةٌ حَرْبِيَّةٌ قَدْ تُؤْذينا.

وَقالَ آخَرونَ:

— إِنَّها تَقْدِمَةُ(٦) سَلامٍ، وَيَنْبَغي أَنْ نَنْقُلَها إِلى ٱلْمَدينَةِ.

---

(١) خلف الشيء: تركه وراءه. (٢) افضى اليه بسره: أعلمه به. (٣) همد الصوت: سكن وخمد. (٤) يتأهبون: يستعدون. (٥) ضرب الخيمة: نصبها. (٦) التقدمة: الهدية، والقربان وهو كل ما يتقرب به الى الله من ذبيحة وغيرها.



حصان طروادة الخشبي

عِنْدَئِذٍ رَأَوْا جُنْدِيًّا يونانِيًّا ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ ٱلْمَكانِ ، يَبْكي بُكاءً مُرًّا ، وَيَداهُ مُقَيَّدَتانِ خَلْفَ ظَهْرِهِ . فَٱسْتَعْلَموهُ خَطْبَهُ[1] فَأَجابَ .

— إِنَّ ٱليونانِيِّينَ ، أَسْيادي ، كانوا قَدْ عَزَموا عَلى قَتْلي ، غَيْرَ أَنِّي تَمَكَّنْتُ مِنَ ٱلْهَرَبِ ، فَٱشْفَقوا عَلَيَّ وَأَرْثوا لِحالي[2] .

وَكانَ بِرْيامُ ، مَلِكُ طِرْوادَةَ ، رَقيقَ ٱلْقَلْبِ ، فَفَكَّ قُيودَ الرَّجُلِ ، وَقالَ لَهُ :

— لا بَأْسَ عَلَيْكَ[3] . قُلْ لي ما ٱسْمُكَ ، وَأَعْلِمْني لِماذا غادَرَ[4] أَسْيادُكَ هٰذا ٱلْحِصانَ ٱلْخَشَبِيَّ في هٰذا ٱلْمَكانِ ؟

فَأَجابَ الرَّجُلُ :

إِسْمي سينونُ ، وَهٰذا ٱلْحِصانُ ٱلْخَشَبِيُّ تَقْدِمَةٌ ، يَجْدُرُ بِكُمْ أَنْ تَحْتَرِموها وَتَنْقُلوها إِلى ٱلْمَدينَةِ .

فَسُرَّ ٱلطِّرْوادِيّونَ بِذٰلِكَ . وَجَرّوا ٱلْحِصانَ ٱلْخَشَبِيَّ ٱلْعَظيمَ إِلى ٱلْمَدينَةِ . وَكانَ سينونُ يَبْتَسِمُ وَهُوَ يُراقِبُهُمْ .

---

(١) استعلموه خطبه : سألوه عن الامر العظيم المكروه الذي اصابه . (٢) رثى له : رق له ورحمه . (٣) لابأس عليك : لاخوف عليك . (٤) غادر : ترك وأبقى .

وَأَقامَ الطِّرْوادِيّونَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عيداً عَظيماً ، فَشَرِبوا خَمْراً ، وَرَقَصوا ، وَغَنَّوْا ، وَغَلَبَهُمُ النُّعاسُ أَخيراً فَناموا نَوْماً عَميقاً. وَلٰكِنَّ سينونَ لَمْ يَنَمْ، بَلْ إِنَّهُ لَمّا رَأَى السَّكينَةَ[1] قَدْ سادَتْ تَسَلَّقَ الحِصانَ الخَشَبِيَّ وَفَتَحَهُ ، فَخَرَجَ مِنْهُ أَبْطالُ اليونانِيّينَ الأَشِداءِ ، وَبَيْنَهُمْ عُولُسُ، وَأَغَمْمنونُ ، وَمَنلاوُسُ. فَزَحَفوا إِلى الشّاطِىءِ ، وَأَوْقَدوا النّارَ عَلامَةً لِقَوْمِهِمْ. فَرَجَعَتِ السُّفُنُ وَأَنْسَلَّ[2] اليونانِيّونَ إِلى المَدينَةِ ، فَأَعْمَلوا في أَهْلِها البُسلاءِ[3] القَتْلَ ، وَهُمْ لا يَزالونَ نِياماً ، وَأَفاقَ بَعْضُهُمْ فَرَأَى النّارَ تَشْتَعِلُ في المَدينَةِ.

وَفيما كانَ عَمودٌ عَظيمٌ مِنَ الدُّخانِ يَرْتَفِعُ فَوْقَ الأَسْوارِ، كانَ مَنَلاوُسُ يَسيرُ بِهيلانَةَ إِلى شاطِىءِ البَحْرِ. وَقَدْ مَرَّتْ صامِتَةً بَيْنَ صَفَّيْنِ مِنَ اليونانِيّينَ . فَأَغْمَضَ هٰؤُلاءِ عُيونَهُمْ دونَ جَمالِها الباهِرِ[4]، وَهَمَسوا قائِلينَ :

— لا عَجَبَ أَنْ تَحْتَرِقَ طِرْوادَةُ مِنْ أَجْلِها !

---

(١) السكينة : الهدوء . (٢) انسل : انطلق في استخفاء . (٣) بسلاء جمع باسل : شجاع . (٤) الباهر : الغالب .

ابن الحجار

كانَ في قديمِ الزَّمانِ وَلَدٌ بَشِعُ المَنْظَرِ ، قَصيرُ القامَـةِ ، أَفْطَسُ الأَنْفِ ، جاحِظُ[1] العَيْنَيْنِ ، يُدْعى سُقْراطَ . وَكانَ دائِماً رَثَّ الثِّيابِ[2] لِأَنَّ أَباهُ كانَ حَجّاراً فَقيراً ، عَمَلُهُ مُساعَدَةُ المَثّالينَ[3] والنَّقّاشينَ ، في الدّونِ[4] مِنْ أَعمالِهِمْ .

وَقَدْ وُلِدَ سُقْراطُ في مَدينَةِ أَثينا ، نَحْوَ سَنَةِ أَرْبَعِ مِئَةٍ ، قَبْلَ المَسيحِ . وَكانَ ذٰلِكَ العَصْرُ ، وَقْتَئِذٍ ، عَصْرَ أَثينا الزّاهِرِ . فَإِنَّ اليونانيّينَ كانوا قَدْ قَهَروا[5] الفُرْسَ وَطَرَدوهُمْ مِنْ بِلادِهِمْ ، وَكانَ بَلاءُ[6] أَثينا في مُحارَبَتِهِمْ أَعْظَمَ مِنْ بَلاءِ سائِرِ المُدُنِ اليونانِيَّةِ . فَفَخَرَ الأَثينيّونَ بِمَدينَتِهِمْ ، وَحُقَّ لَهُمْ أَنْ يَفْخَروا .

وَكانَ سُقْراطُ ، كَسائِرِ لِداتِهِ[7] يَخْتَلِفُ إِلى المَدْرَسَةِ ، حَيْثُ كانَتِ الموسيقى ، وَالرِّياضَةُ البَدَنِيَّةُ أَهَمَّ الدُّروسِ . وَقَدْ

---

(١) جحظت العين : عظمت مقلتها ونتأت . (٢) الثوب الرث : البالي (٣) المثال : صانع التماثيل . (٤) العمل الدون : الخسيس الحقير . (٥) قهروا : غلبوا . (٦) أبلى في الحرب بلاء حسناً : أظهر فيها بأسه . (٧) اللدات جمع لدة : الذي ولد وتربى معك .

تَعَلَّمَ أَيْضاً شَيْئاً مِنَ الطَّبيعِيّات، وَالرِّياضِيّات، وَقَليلاً عَنِ الْكَواكِبِ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنَ التّاريخِ وَالْجُغْرافِيَةِ بِقَدَرِ ما يَتَعَلَّمُ الْأَوْلادُ في أَيّامِنا. غَيْرَ أَنَّ سُقْراطَ كانَ كَثيرَ التَّفْكيرِ، وَقَلَّما فاتَهُ شَيْءٌ وَلَمْ يَسْتَرْعِ[1] انْتِباهَهُ.

كانَ سُقْراطُ دَميمَ[2] الصّورَةِ، ولٰكِنَّ الْمَدينَةَ الَّتي عاشَ فيها، كانَ بِها مِنَ الْبَدائِعِ شَيْءٌ كَثيرٌ. فَإِنَّ زَعيمًا أَثينِيًّا، يُدْعى بِرِكْليسَ، كانَ في حَداثَةِ سُقْراطَ يَسْتَنْهِضُ الْهِمَمَ، وَيَحُضُّ الْفَنّانينَ[3] وَالْمَثّالينَ عَلَى نَحْتِ التَّماثيلِ الْجَميلَةِ، وإِنْشاءِ الْمَباني الْفَخْمَةِ، وَيُغْري[4] الشُّعَراءَ بِنَظْمِ الْقَصائِدِ الرَّنّانَةِ[5] وَالصُّنّاعَ بِإِجادَةِ النَّقْشِ وَالتَّصْويرِ ما اسْتَطاعوا.

وَكانَ سُقْراطُ يَطوفُ في الْمَدينَةِ، يَتَمَتَّعُ بِمَناظِرِها الْجَميلَةِ. وَيَصْعَدُ الأَكْرُوبُولِيسَ، وَهِيَ صَخْرَةٌ عَظيمَةٌ، كانَتْ تُشْرِفُ عَلَى الْمَدينَةِ، وَتَقومُ عَلَيْها الْهَياكِلُ الْمَبْنِيَّةُ بِالرُّخامِ، والْحِجارَةِ الْبيضِ. وَكانَ أَجْمَلُ هٰذِهِ الْهَياكِلِ هَيْكَلَ الْبَرْتِينُونِ،

---

(١) هذا الأمر يسترعي الانتباه: يحمل عليه. (٢) دميم الصورة: قبيح المنظر.
(٣) الفنان: صاحب الفن. (٤) أغراه بالعمل: حضه عليه. (٥) الرنانة: الكثيرة الرنين.

وَمَعْناهُ بَيْتُ ٱلعَذْراءِ، وَكانَ خاصًّا بِأَثينا، إِلٰهَةِ ٱلحِكْمَةِ عِنْدَ ٱليونـانِ. وَكانَ ٱلأَهْلونَ، قَبْلَ بِضْعِ سَنَواتٍ، بَعْدَ أَنْ أَقاموا حَفَلاتِ ٱلموسيقى، والمُسابَقاتِ، والأَلعابِ، قَدْ صَعِدوا كُلُّهُمْ إِلى الهَيْكَلِ، لِيُدَشِّنوا[1] تِمْثالاً، صُنِعَ مِنَ الذَّهَبِ والعاجِ[2]، لِتِلْكَ ٱلإِلٰهَـةِ الَّتي كانَتْ حـامِيَةَ ٱلمَدينَةِ. وَكانَ ٱلأَثينِيّونَ يُفاخِرونَ[3] بِهٰذا التِّمْثالِ، وَيُقيمونَ في كُلِّ سَنَةٍ عيداً لِلْأُلٰهَةِ. وَلَمْ يَكُنْ سُقْراطُ يَفوتُهُ أَنْ يَشْهَدَ[4] هٰذا ٱلعيدَ.

وَكَثيراً ما كانَ ٱلفَتى يُرى قَريباً مِنَ ٱلأَغْرا، وَهِيَ السُّوقُ العامَّةُ، حَيْثُ كانَ باعَةُ الـكُتُبِ يَعْرِضونَ سِلَعَهُمْ. وَوَدَّ أَنْ يَبْتاعَ نُسْخَةً مِنْ إِلياذَةِ هوميرُسَ، لِيَقْرأَ فيها حِكايَةَ طِرْوادَةَ، غَيْرَ أَنَّ ذٰلِكَ كانَ يَقْتَضي ثَمَناً كَبيراً. فَبَحَثَ بَدَلاً مِنْ ذٰلِكَ عَنْ كِتابٍ جَليلٍ لِلْمُؤَرِّخِ هيرُودُوتُسَ، عُنْوانُهُ «الحروبُ ٱلفارسِيَّةُ».

وَكانَ الكُلُّ يَوَدُّ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ ظَفِرَ ٱليونـانِيّونَ في حَرْبِ مَراتونَ، وَكَيْفَ سَقَطَ آخِرُ رَجُلٍ مِنْهُمْ في تِرْمُوبيلَ،

(١) دشن التمثال: قدسه. (٢) العاج: ناب الفيل. (٣) فاخر بالشيء: باهى به. (٤) شهد العيد: حضره.

وَكَيْفَ فازوا في مَعْرَكَةِ سَلاميسَ ٱلبَحْرِيَّةِ ، وٱنْتَصَروا أخيراً عَلَى ٱلفُرْسِ . وَكانَ الكُلُّ يَوَدُّ أَنْ يَقْرَأَ هٰذا الكِتابَ لِيَعْرِفَ كَيْفَ تَمَّتِ ٱلغَلَبَةُ [1] لِليونانِ عَلَى ٱلفُرْسِ . وَلَمْ يَكُنِ الكِتابُ قَدْ أُكْمِلَ وَقْتَئِذٍ ، إلاَّ أَنَّ أَجْزاءً مِنْهُ كانَتْ تُعْرَضُ لِلْبَيْعِ ، فَيَتَلَقَّفُها [2] النَّاسُ بِلَهْفَةٍ ، حالَما كانَ عَبيدُ النَّاشِرينَ يَفْرَغونَ مِنْ نَسْخِها .

وَكانَ سُقْراطُ يُرى أَحْياناً في ٱلمَراضِ [3] . وكانَ يُدْعى ٱلليسيُومَ . وَكانَ الشُّبّانُ يُعْنَوْنَ هُناكَ بِٱلمُلاكَمَةِ، وٱلمُصارَعَةِ ، وٱلمُحاضَرَةِ [4] ، وٱلقَفْزِ ، وَإِطْلاقِ ٱلحِرابِ ، وَقَذْفِ ٱلأَقْراصِ . وَكانَ سُقْراطُ يُحِبُّ أَنْ يُشاهِدَ هٰـذِهِ ٱلأَلْعابَ لا أَنْ يَشْتَرِكَ فيهـا . وَكانَ يُفَضِّلُ أَنْ يُطيلَ التَّأَمُّلَ والتَّفْكيرَ ، أَوْ بِٱلأَوْلى أَنْ يُبَكِّرَ في الذَّهابِ صَباحاً إلى دارِ التَّمْثيلِ ؛ حَيْثُ كانَتْ تُمَثَّلُ مَأْساةٌ [5] كَبيرَةٌ لِسُوفُكْلِيسَ ، وَتَتْلوها رواياتُ يُورُوبِيدِسَ . وَكانَ سُقْراطُ يُحِبُّ يُورُوبِيدِسَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ

---

(١) الغلبة : القهر والنصر . (٢) يتلقفها : يتناولها بسرعة . (٣) المراض : مكان الرياضة . (٤) المحاضرة : المغالبة في الركض . (٥) المأساة : الحادث المحزن ، وتطلق على الرواية التي تنتهي بفاجعة تبعث على الحزن والأسى .

إلاَّ حقائِقَ ، وَلَمْ يَخْشَ النّاسَ ولا الآلِهَـةَ . وَكانَ سُقْراطُ يَجْلِسُ في ذٰلِكَ المَلْهى[1] المَكْشوفِ ، يَسْتَمِعُ إلى الشُّعراءِ والمُمَثِّلينَ الَّذينَ كانوا يَتَوارَدونَ[2] إلى المَكانِ ، لِيَتَبارَوْا[3] في سَبيلِ الجوائِزِ . وَكانَ مَتى أَدْرَكَهُ السَّأَمُ يُطَوِّفُ عائِداً إلى مَنْزِلِهِ ، وَيَمُرُّ في طَريقِهِ بِمَنازِلِ النُّبَلاءِ ، والأَغْنِياءِ ، وَيَرى ، مِنَ الأَبْوابِ ، ما في تِلْكَ المَنازِلِ مِنْ فاخِرِ الأَثاثِ ، والمَتاعِ ، والأَوْعِيَةِ الجَميلَةِ ، والآنِيَةِ المَنْقوشَةِ المُزَخْرَفَةِ .

وَلَمْ يَكْبَرْ سُقْراطُ ، وَيَبْلُغْ مَبْلَغَ الرِّجالِ ، في أَحَدِ هٰذِهِ المَنازِلِ الفاخِرَةِ ، بَلْ في بَيْتٍ حَقيرٍ ، قَليلِ الأَثاثِ . وَلَمْ يَكُنْ يُبالي بِالغِنى أَوْ بِالمُقْتَنَياتِ[4] النَّفيسَةِ ، بَلْ كانَ كُلَّما تَقَدَّمَ في السِّنِّ يَقِلُّ اكْتِراثُهُ لِراحَتِهِ الجَسَديَّةِ ، ومَلاذِّهِ ، وَيَنْصَرِفُ إلى كُلِّ ما هُوَ فاضِلٌ ، جَليلٌ ، عادِلٌ . وكانَ يُحِبُّ الشَّجاعَةَ أَيْضاً . وهاكَ ما قالَهُ فيهِ أَحَدُ كِبارِ أَصْدِقائِهِ :

„كُنْتُ وَسُقْراطَ جُنْدِيَّيْنِ في وَقْتٍ واحِدٍ . وَكانَ اقْتِدارُهُ

(١) الملهى : مكان اللهو واللعب . (٢) يتواردون : يحضر الواحد بعد الآخر .
(٣) تبارى القوم : تسابقوا . (٤) المقتنيات : الممتلكات .

عَلَى تَحَمُّلِ ٱلبَرْدِ يُدْهِشُنا. فَقَدِ ٱشْتَدَّ الصَّقيعُ[١] ذاتَ يَوْمٍ، وَكُلُّنا، ما عَدا سُقْراطَ، لَزِمْنا ٱلبُيوتَ، أَوْ كُنّا، إِذا ٱضْطُرِرْنا إِلى ٱلخُروجِ، نَتَلَفَّعُ[٢] بِٱلكَثيرِ مِنَ الثِّيابِ، وَنَنْتَعِلُ أَغْلَظَ النِّعالِ، وَنُعَصِّبُ[٣] أَرْجُلَنا بِٱللِّبْدِ[٤]، وَٱلجَزائِزِ[٥]. وَكانَ سُقْراطُ، مَعَ ذٰلِكَ، يَسيرُ عَلَى ٱلجَليدِ، حافِيَ ٱلقَدَمَيْنِ، مُكْتَسِياً بِثِيابِهِ ٱلعادِيَّةِ، فَيَبْدُو أَجْلَدَ[٦] عَلَى السَّيْرِ مِنْ سائِرِ ٱلجُنودِ ٱلمُنْتَعِلينَ».

وَكانَ سُقْراطُ كُلَّما تَقَدَّمَ في السِّنِّ، يَزْدادُ رَثاثَةً، وَدَمامَةً، وَتَفْكيراً. وَصارَ النّاسُ، إِذا ما رَأَوْا وَجْهَهُ ٱلمَأْلوفَ في الشَّوارِعِ، يَقولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

— هٰذا سُقْراطُ، هَلُمّوا نُحادِثْهُ.

وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱبْنَ ٱلحَجّارِ أَصْبَحَ مُعَلِّماً مَشْهوراً. وَكانَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يُطَوِّفَ في ٱلأَغْرا، طولَ النَّهارِ، مُحادِثاً وَمُحاجّاً[٧] أُولٰئِكَ الَّذينَ كانوا يُحَيّونَهُ[٨]، طارِحاً عَلَيْهِمْ أَسْئِلَةً عَديدَةً.

---

(١) الصقيع: الجليد أو ما يسقط من السماء في الليل كأنه ثلج. (٢) نتلفع بالثياب: نشتمل بها ونتغطى. (٣) نعصب أرجلنا: نشدها بالعصائب. (٤) اللبد: ما تلبد من الشعر ونحوه. (٥) الجزائز جمع جزة (بكسر الجيم): ما يجز من صوف الشاة في السنة. (٦) أجلد: أقوى وأصبر. (٧) محاجاً: مغالباً بالحجة والبرهان. (٨) يحيونه: يسلمون عليه.

وَكانَ النَّاسُ بَعْدَ أَنْ يَفْرَغوا مِنَ ٱلحَديثِ مَعَهُ، يَنْصَرِفونَ مُضْطَرِبي ٱلعُقولِ. وأَخَذوا، بِتَأْثيرِ ٱلأَسئِلَةِ ٱلَّتي كانَ يَطْرَحُها عَلَيْهِمْ، يَشُكّونَ في كَثيرٍ، مِمّا كانوا يَعُدّونَهُ مِنَ ٱلحَقائِقِ ٱلمُقَرَّرَةِ[1]. وَصاروا يُفَكِّرونَ طَويلاً في أُمورٍ، كانوا يَعْتَقِدونَ حَتّى ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ صِحَّتَها.

وَكانَ، مِنْ رَأْيِ سُقْراطَ، أَنَّهُ يَنْبَغي، لِكُلِّ إِنْسانٍ، أَنْ يَتَعَلَّمَ ٱلتَّفْكيرَ لِنَفْسِهِ، حَتّى يَسْتَطيعَ، إِذا ما ٱسْتَعْمَلَ ٱلعَقْلَ، أَنْ يَعْرِفَ ما هُوَ مُسْتَقيمٌ، وَما هُوَ حَقٌّ، وَما هُوَ جَميلٌ، وَيُكَيِّفَ[2] سيرَتَهُ بِحَسَبِ ذٰلِكَ. وَكانَ يُريدُ أَنْ تَكونَ أَثينا بَلَداً كامِلاً. وَكانَ يَقولُ لِتَلاميذِهِ إِنَّ ذٰلِكَ لا يَتِمُّ، إِلاَّ إِذا هَذَّبَ كُلٌّ مِنَ ٱلأَهْلينَ عَقْلَهُ، كَيْما يَعْرِفَ ما هُوَ قَويمٌ[3]، وَما هُوَ نَبيلٌ، وَكانَ مِنْ رَأْيِهِ، أَنَّ في ٱلتَّساؤُلِ وَٱلتَّناقُشِ[4] ما يُساعِدُ عَلَى ذٰلِكَ. وَلِذا كانَ دائِماً يُحادِثُ قَوْمَهُ في ٱلشَّوارِعِ.

وكانَ يُعَلِّمُ ٱلأَوْلادَ كَما كانَ يُعَلِّمُ ٱلكِبارَ. وٱتَّفَقَ أَنْ زارَ

---

(١) المقرر: المثبت المحقق. (٢) كيف سيرته: جعل لها كيفية معلومة. (٣) القويم: المعتدل المستقيم. (٤) التناقش: المجادلة.

مَرَّةً إِحْدى ٱلْمَدارِسِ، فَجاءَ ٱثْنانِ مِنْ صِغارِ ٱلْأَوْلادِ، وَجَلَسا بِجانِبِهِ. فَسَأَلَهُما سُقْراطُ:

— أَيُّكُما أَكْبَرُ سِنًّا مِنَ ٱلْآخَرِ؟

فَأَجابَ أَحَدُهُما:

— إِنَّنا نَتَخاصَمُ في ذٰلِكَ.

فَقالَ سُقْراطُ:

— أَيُّكُما أَشْرَفُ، وأَيُّكُما أَجْمَلُ؟ وهَلْ تَرَيانِ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأُمورِ مَوْضوعًا لِلْخِصامِ؟

فَضَحِكَ ٱلْوَلَدانِ وَأَجابا:

— نَعَمْ.

ولٰكِنَّ سُقْراطَ نَظَرَ إِلَيْهِما جادًّا وَقالَ:

— لَسْتُ أَسْأَلُ أَيُّكُما أَغْنى، لِأَنَّكُما صَديقانِ، وكُلُّ شَيْءٍ بَيْنَ ٱلْأَصْدِقاءِ مُشْتَرَكٌ [1]، فَلَيْسَ ٱلْواحِدُ مِنْهُمْ أَغْنى مِنَ ٱلْآخَرِ.

وَلَمّا طَعَنَ سُقْراطُ في السِّنِّ ذاعَتْ [2] شُهْرَتُهُ في ٱلْآفاقِ،

(١) المشترك: ما كان لك ولغيرك حصة فيه. (٢) ذاعت: انتشرت.

وَفُتِحَتْ في وَجْهِهِ أَبْوابُ كَثيرٍ مِنْ مَنازِلِ الأَغْنِياءِ والأَشْرافِ، لِأَنَّ النَّاسَ كانوا يَرَوْنَ شَرَفاً لَهُمْ أَنْ يَسْتَضيفَهُمْ[1] سُقْراطُ. وَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ مَعَ الزَّمَنِ زُمْرَةٌ[2] مِنَ الطُّلّابِ، وَكانوا يَتْبَعونَهُ أَيْنَما سارَ. وكانَ بَيْنَهُمْ شابٌّ، يُدْعى أَفلاطونَ، وَعى[3] كُلَّ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِها مُعَلِّمُهُ، وَغَدا فيما بَعْدُ مُعَلِّماً شهيراً، كَسُقْراطَ نَفْسِهِ. وَقامَ أَفْلاطونُ بِعَمَلِ سُقْراطَ وَواصَلَ تَهْذيبَ عُقولِ النَّاسِ، لِجَعْلِهِمْ يُفَكِّرونَ لِأَنْفُسِهِمْ. وَلَمْ يَكْتَفِ أَفْلاطونُ بِأَنْ يُعَلِّمَ بِالْمُحادَثَةِ، كَما فَعَلَ مُعَلِّمُهُ، بَلْ قَضى مُعْظَمَ حَياتِهِ يَكْتُبُ وَيُؤَلِّفُ مُحادَثاتٍ، بَيْنَ سُقْراطَ وَآخَرينَ، تَكادُ لا تَعْدو[4] الواقِعَ. وَقَدِ اسْتَقَيْنا أَكْثَرَ ما نَعْرِفُهُ عَنْ سُقْراطَ، مِنْ كُتُبِ أَفْلاطونَ، لِأَنَّ سُقْراطَ نَفْسَهُ لَمْ يَكْتُبْ شَيْئاً.

وَمَعَ أَنَّ كَثيرينَ كانوا يُحِبّونَ سُقْراطَ الشَّيْخَ، وَيَبْتَهِجونَ بِحِكْمَتِهِ، فَإِنَّ الْبَعْضَ لَمْ تَرُقْهُمْ[5] تَعاليمُهُ. فَإِنَّهُ كانَ يُعَلِّمُ:

---

(١) استضافه : طلب اليه الضيافة . (٢) زمرة : جماعة . (٣) وعى الحديث : حفظه . (٤) لاتعدو : لاتتجاوز . (٥) لم ترقهم : لم تعجبهم ولم تسرهم .

„أَنَّ لِعَقْلِ ٱلإِنْسانِ تَأْثيراً في سيرتِهِ أَعْظَمَ مِنْ تَأْثيرِ ٱلآلِهَةِ". فَظَهَرَ ذٰلِكَ لِبَعْضِهِمْ بِدْعَةً (١) جَديدَةً، وَرَأْياً فائِلاً. (٢) وَكانَ يَقول: „إِنَّ مِنَ ٱلأَعْمالِ ما هُوَ أَشْرَفُ مِنَ التَّضْحِيَةِ لِلآلِهَةِ أَثينا، وَغَيْرِها مِنْ آلِهَةِ ٱليونانِ". فَظَنَّ ٱلكَثيرونَ أَنَّهُ إِنَّما يَقودُ الشَّبيبَةَ في سَبيلِ الضَّلالِ.

حينَئِذٍ ٱسْتَدْعى حُكّامُ أَثينا سُقْراطَ لِيَمْثُلَ أَمامَهُمْ لِمُحاكَمَتِهِ. فَرَغِبَ إِلَيْهِ (٣) أَصْدِقاؤُهُ أَنْ يَهْرُبَ، أَوْ أَنْ يَخْتَبِئَ، رَيْثَما (٤) تَنْقَضي ٱلعاصِفَةُ. إِلاّ أَنَّ سُقْراطَ لَمْ يَكُنْ جَباناً. فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ شَرّاً، وَإِنَّما عَلَّمَ ما كانَ يَراهُ عَدْلاً وَحَقّاً. وَلِذا ذَهَبَ إِلى ٱلمَحْكَمَةِ شَيْخاً قَصيرَ ٱلقامَةِ، دَميمَ ٱلخِلْقَةِ، مُغْبَرّاً عَلَيْهِ آثارُ السَّفَرِ. غَيْرَ أَنَّ قَلْباً نَبيلاً كانَ يَخْفُقُ تَحْتَ ثِيابِهِ الرَّثَّةِ الَّتي أَلِفَها (٥) ٱلجَميعُ.

وَلا يَزالُ في إِمْكانِنا أَنْ نَقْرَأَ عَنْ مُحاكَمَةِ سُقْراطَ وَمَوْتِهِ، لِأَنَّ تِلْميذَهُ ٱلحَبيبَ، أَفْلاطونَ، كَتَبَ في ذٰلِكَ وَصْفاً يُعَدُّ

(١) البدعة : العقيدة المحدثة المخالفة للايمان : (٢) الرأي الفائل : الخاطىء .
(٣) رغب اليه : التمس . (٤) ريثما تنقضي العاصفة : مقدار مهلة انقضائها . (٥) الف الشيء : تعوده .

مِنْ أَفْضَلِ ما كُتِبَ في تاريخِ ٱلعالَمِ . فَذَكَرَ كَيْفَ مَثَلَ مُعَلِّمُهُ أَمامَ ٱلقُضاةِ لِيَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ ٱلتُّهَمَ . فَأَعْلَمَهُمْ أَنهُ في ٱلحَقيقَةِ صَديقٌ لِلأَثينيّينَ ، وَإِنْ كانوا يَجْهَلونَ ذٰلِكَ . وَقالَ لَهُمْ إِنَّهُمْ لا يَغْنَمونَ شَيْئًا إِذا سَلَبوهُ السَّنَواتِ ٱلأَخيرَةَ ٱلقَليلَةَ مِنْ حَياتِهِ ، وَلٰكِنَّهُ يَرْضى أَنْ يَموتَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، في سَبيلِ ما يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ .

وَقَدِ ٱسْتَمَعَ لَهُ ٱلقُضاةُ ، وَطَرَحوا عَلَيْهِ أَسْئِلَةً ، وَأَخيراً حَكَموا عَلَيْهِ بِٱلموتِ . فَلَمْ يَتَظَلَّمِ الشَّيْخُ ، بَلْ تَوَكَّأَ [1] عَلى عَصاهُ ، وَأَجالَ طَرْفَهُ في ٱلجَمْعِ ٱلمُحْتَشِدِ [2] في ٱلمَحْكَمَةِ وَقالَ :

— أَلمَوْتُ إِمّا إِنَّهُ ٱلعَدَمُ ، وَإِمّا إِنَّه ٱنْتِقالُ ٱلرّوحِ مِنْ هٰذا ٱلعالَمِ إِلى عالَمٍ آخَرَ . وَلِذا ٱبْتَهِجوا ، وَتَيَقَّنوا أَنْ لا ضَرَرَ يُصيبُ ٱلإِنْسانَ الصّالِحَ في ٱلحياةِ أَوْ بَعْدَ ٱلمَوْتِ . وَقَدْ حانَتْ ساعَةُ ٱلفِراقِ ، فَيَذْهَبُ كُلٌّ مِنّا في سَبيلِهِ ، أَنا أَذْهَبُ إِلى ٱلمَوْتِ وأَنْتُمْ إِلى ٱلحياةِ . واللهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ أَيُّ السَّبيلَيْنِ أَفْضَلُ .

وَأُخِذَ مِنْ ثَمَّ إِلى السِّجْنِ ، فَتَبِعَهُ إِلَيْهِ ٱمْرَأَتُهُ وَأَوْلادُهُ

---

(١) توكأ على عصاه : اعتمد وتحمل عليها : (٢) المحتشد : المجتمع .



سقراط الفيلسوف

اَلثَّلاثَةُ ، وَتَلاميذُهُ . فَأَلْقى عَلَيْهِمْ كَثيراً مِنَ الدُّروسِ الْحَكيمَةِ، وَلٰكِنَّ الْحُزْنَ كانَ يَمْلَأُ قُلوبَهُمْ . وَذٰلِكَ ، كَما كَتَبَ أَفْلاطونُ ، "لِأَنَّهُ كانَ لَنا أَباً ، كُنّا عَلَى وَشْكِ أَنْ نَفْقِدَهُ ، وَنَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَياتِنا يَتامى" .

وَفي صَباحِ الْيَوْمِ الْمَشْؤُومِ (١) اجْتَمَعَ أَصْدِقاؤُهُ في السِّجْنِ وَقَضَوْا مُعْظَمَ النَّهارِ يَتَباحَثونَ في خُلودِ النَّفْسِ . وَعِنْدَ الْمَساءِ

(١) المشؤوم : الذي يجر الشر .

أَقْبَلَ السَّجّانُ ، وَسَأَلَ سُقْراطَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ . وَكانَتِ العادَةُ في أَثينا ، إِذا حُكِمَ عَلَى أَحَدٍ بِالْمَوْتِ أَنْ يُسْقى كَأْساً مِنَ السَّمِّ . وَقالَ السَّجّانُ :

— إِنِّي أَعْلَمُ يا سُقْراطُ أَنَّكَ أَشْرَفُ وَأَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَنْ جاءَ حَتَّى الآنَ إِلى هٰذا المَكانِ ، وأَعْلَمُ أَنَّكَ لا تَغْتاظُ مِنِّي إِذا سَأَلْتُكَ أَنْ تَشْرَبَ السَّمَّ ، فَما أَنا المُذْنِبَ ، بَلْ غَيْري . وَداعاً وَحاوِلْ أَنْ تَتَحَمَّلَ بِصَبْرٍ ما يَنْبَغي أَنْ يَكونَ . وَأَنْتَ أَدْرى بِمُهِمَّتي .

وَخَرَجَ السَّجّانُ دامِعَ العَيْنِ ، وَعادَ بِكَأْسٍ مِنَ الشَّوْكَرانِ [1] . فَقالَ سُقْراطُ :

— عَسى أَنْ تُسَهِّلَ الآلِهَةُ ارْتِحالي مِنْ هٰذا العالَمِ إِلى العالَمِ الآخَرِ . ثُمَّ رَفَعَ الكَأْسَ إِلى شَفَتَيْهِ .

وَحاوَلَ تَلاميذُهُ أَنْ يَضْبِطوا [2] دُموعَهُمْ ، إِلاّ أَنَّ واحِداً مِنْهُمُ انْتَحَبَ [3] ، وَفي الحالِ دَوَّتِ الغُرْفَةُ بِالعَويلِ [4] .

---

(١) الشوكران : نبات سام (٢) ضبط الدمع : قوي عليه وحبسه . (٣) انتحب : بكى شديداً . (٤) العويل : رفع الصوت بالبكاء .

فَأَمْسَكَ[١] سُقْراطُ عَنْ تَجَرُّعِ[٢] ما بَقِيَ مِنَ السَّمِّ وَقالَ:

— ما هٰذا الضَّجيجُ الْغَريبُ؟ إِنّي إِنَّما أَخْرَجْتُ النِّساءَ لِئَلاّ يَفْعَلْنَ ما أَنْتُمْ فاعِلونَ، فَقَدْ قيلَ لي إِنَّ الإِنْسانَ يَنْبَغي أَنْ يَموتَ بِسَلامٍ. فَالْزَموا السَّكينَةَ إِذَنْ، ولا تَجْزَعوا[٣].

ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ كَمَنْ فَطِنَ لِشَيْءٍ، وَهَمَسَ[٤] إِلى أَحَدِ تَلاميذِهِ:

— إِنّي مَدينٌ يا كَريتُو إِلى أَسْلابِيُوسَ بِثَمَنِ ديكٍ *، أَفَتَذْكُرُ أَن تَدْفَعَ الدَّيْنَ ؟

فَأَجابَ كَريتُو:

— إِنَّ الدَّيْنَ سَيُدْفَعُ، فَهَلْ لَكَ حاجَةٌ أُخْرى ؟

وَأَنْصَتَ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ جَوابًا، فَإِنَّ سُقْراطَ، أَعْظَمَ الْيونانِيّينَ جَميعًا، كانَ قَدْ ماتَ.

* كانَتِ الْعادَةُ عِنْدَ الْقُدَماءِ، إِذا أُصيبَ أَحَدُهُمْ بِمَرَضٍ،

(١) أمسك عن الشيء: كف عنه وامتنع. (٢) تجرع السم: شربه شيئاً فشيئاً.
(٣) جزع (بكسر الزاي): لم يطق صبراً. (٤) همس اليه: كلمه بصوت خفي.

أَنْ يَنْذِرَ⁽¹⁾ دِيْكاً أَوْتَقْدِمَةً أُخْرى لِأَسْلابِيُوسَ ، إِلٰهِ الشِّفاء ، وأَنْ يَأْخُذَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُوفِيَ⁽²⁾ ، لَدى شِفائِهِ ، ما يَكونُ قَدْ نَذَرَهُ عَلَى فِراشِ الْمَرَضِ . وَقَدْ رَغِبَ سُقْراطُ أَن يُؤَدِّيَ⁽³⁾ دَيْنَهُ ، لِأَنَّهُ كانَ قَدْ شُفِيَ مِنْ مَرَضِ الْحَياةِ الطَّويلِ .



(١) نذر لله تقدمة : اوجبها على نفسه تبرعاً . (٢) أوفى النذر يوفيه : أبلغه .
(٣) يؤدي الدين : يوصله .

الأسكندر الكبير

في السِّنينَ الَّتي تَلَتْ قَهْرَ اليونانِ لِلفُرْسِ ، نَشِبَتِ الحَرْبُ بَيْنَ أَثينا وَإِسْبَرْطَةَ ، فَكانَ بِنَتيجَةِ ذٰلِكَ أَنْ صارَ الفَريقانِ إِلى الضَّعْفِ . وَعِنْدَئِذٍ قامَ مَلِكٌ داهِيَةٌ[1] ، وَصَمَّمَ أَنْ يُوَحِّدَ اليونانِيِّينَ جَميعاً ، وَيُخْضِعَهُمْ لِحُكْمِهِ ، ثُمَّ يَزْحَفَ بِهِمْ لِقِتالِ الفُرْسِ أَعْدائِهِمِ القُدَماءِ . وَهٰذا الرَّجُلُ يُدْعى فيليبَ .

وَكانَ فيليبُ جُنْدِيًّا عَظيمًا ، عاشَ في أَرْضِ مَكْدونِيَةَ ، وَهِيَ قُطْرٌ إِلى الشِّمالِ مِنْ بِلادِ اليونانِ . وَفي ذاتِ يَوْمٍ ، كانَ فيليبُ يُقيمُ عيداً لِنَصْرٍ أَحْرَزَهُ عَلى أَعْدائِهِ ، فَجاءَهُ ثَلاثَةُ سُعاةٍ عَلى التَّوالي[2] ، وَأَعْلَموهُ أَنَّ جَوادَهُ سَبَقَ في الأَلْعابِ الأُولِمْبِيَّةِ ، وَأَنَّ قائِدَهُ بَرْمِنْيُونَ تَغَلَّبَ عَلى الإِلِّيرِيِّينَ ، وَأَنَّ زَوْجَتَهُ أُولِمْبِيا وَلَدَتْ لَهُ غُلاماً . وَكانَ فيليبُ مَلِكاً عَظيمًا ، وَلٰكِنَّ ابْنَهُ الصَّغيرَ ، هٰذا ، كانَ عَتيداً[3] أَنْ يَصيرَ أَعْظَمَ مِنْهُ .

---

(١) الداهية : الذي يفعل الامور العظيمة . (٢) على التوالي : اي يلي الواحد الآخر . (٣) العتيد : الحاضر المهيأ .

فَعادَ فيليبُ إلى قَصْرِهِ لِيَرى طِفْلَهُ ، وَسَمّاهُ ٱلإِسْكَنْدَرَ ،[١] وَعَقَدَ النِّيَّةَ[٢] عَلَى أَنْ يُعَلِّمَهُ ، لِيَصيرَ مَلِكاً كَبيراً ، وَجُنْدِيّاً عَظيماً . وَكانَ فيليبُ وٱلإِسْكَنْدَرُ أَوَّلَ مَلِكَيْنِ ، وَحَّدا مُدُنَ ٱليونانِ الشَّهيرَةَ ، وَأَخْضَعاها لِإِدارَةٍ واحِدَةٍ ، مَعَ أَنَّهُما لَمْ يَكونا يونانِيَّيْنِ .

وَعُهِدَ[٣] في تَرْبِيَةِ ٱلإِسْكَنْدَرِ ، وَهُوَ في طُفولِيَّتِهِ ، إلى إِحْدى ٱلمُرَبِّياتِ . وَلَمّا بَلَغَ السّادِسَةَ مِنَ ٱلعُمْرِ ، قالَ أَبوهُ في نَفْسِهِ : ,,إِنَّ وَلَدي يَتَقَدَّمُ في السِّنِّ ، وَقَدْ حانَ لَهُ أَنْ يَقْتَبِسَ ٱلعِلْمَ ، وَيَشْرَعَ في ٱلتَّدَرُّبِ[٤] عَلَى ٱلأَعْمالِ ٱلجُنْدِيَّةِ " .

وَلِذا ٱخْتارَ ٱلمُعَلِّمينَ لِلأَميرِ الصَّغيرِ . فَعَلَّمَ هٰؤُلاءِ ٱلمُعَلِّمونَ ٱلإِسْكَنْدَرَ أَنْ يَقْرَأَ ، وَيَكْتُبَ ، وَيُلْقِيَ ٱلخُطَبَ . وَكانَ عَلَيْهِ في كُلِّ يَوْمٍ أَنْ يَرْتاضَ[٥] وَيَرْكَبَ ٱلخَيْلَ ، لِيَحْفَظَ جَسَدَهُ سَليماً . وَكانَ في الشِّتاءِ يَلْبَسُ الثِّيابَ الرَّقيقَةَ لِيَتَعَوَّدَ ٱلبَرْدَ ، وَفي الصَّيْفِ يُصارِعُ ، وَيُحاضِرُ[٦] ، لا يَشْكو ٱلحَرَّ .

---

(١) الاسكندر : يعني في اليونانية نصير الرجال (٢) عقد النية على العمل : صمم عليه .
(٣) عهد اليه في كذا : أوصاه واوعز اليه . (٤) التدرب : التعود . (٥) الارتياض : تذليل النفس وتعويدها المتاعب . (٦) يحاضر : يسابق في الركض .

وَلَمّا بَلَغَ ٱلأَميرُ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، رَأَى فيلبُ أَنَّ وَلَدَهُ قَدْ غَدا قَوِيّاً شُجاعاً ، وقالَ في نَفْسِهِ :

„إِنَّ ٱلإِسكَنْدَرَ سَيَكونُ مِنْ خيرَةِ ٱلجُنودِ ، فَيَنْبَغي ٱلآنَ تَعْليمُهُ أَنْ يَكونَ مَلِكاً".

فاُسْتَقْدَمَ (١) رَجُلاً يونانِيّاً ، يُدْعى أَرِسْطُوطاليسَ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُهَذِّبَ وَلَدَهُ ، لِكَيْ يَصيرَ مَلِكاً حَكيماً . فَتَعَلَّمَ ٱلإِسْكَنْدَرُ مِنْ أَرِسْطوطاليسَ أَنْ يُحِبَّ كُلَّ ما هُوَ يونانِيٌّ . فَصارَ موسيقِيّاً ماهِراً ، وعُنِيَ بِعِلْمِ الطِّبِّ ، والطَّبيعيّاتِ ، والشِّعْرِ ، عِنايَةً كَبيرَةً . وَمَعَ أَنَّ أَرِسْطوطاليسَ كانَ مُرَبِّيَ ٱلإِسْكَنْدَرِ ، الَّذي غَدا مِنْ أَعْظَمِ الفاتِحينَ ، وَمَعَ أَنَّهُ رُزِقَ أَثْقَبَ (٢) ذِهْنٍ (٣) رُبَّما عَرَفَهُ ٱلعالَمُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ ٱسْمَ ٱلإِسْكَنْدَرِ في كُلِّ كُتُبِهِ ٱلشهيرَةِ . أَفَلَيْسَ هٰذا غَريباً ؟

وَٱتَّفَقَ ذاتَ يَوْمٍ ، وَٱلإِسْكَنْدَرُ لا يَزالُ فَتًى ، أَنْ جِيءَ إِلى ٱلقَصْرِ بِجَوادٍ جَميلٍ ٱسْمُهُ بُوسيفالُوسُ ، وَقَدْ دُعِيَ بِهٰذا ٱلاسْمِ ،

---

(١) استقدمه : طلب قدومه . (٢) عقل ثاقب : حاذق . (٣) الذهن : الفهم .

لِأَنَّهُ كانَ مُتَّسِمًا[١] بِعَلامَةٍ تُشْبِهُ رَأْسَ الثَّوْرِ. وَكانَ هٰذا ٱلْجَوادُ شامِساً[٢] شَرِساً جِدًّا، حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَرْكَبَهُ.

فَقالَ فيليبُ:

— خُذوهُ عَنّي، فَإِنّي لا أَشْتَري حِصاناً وَحْشِيًّا.

فَقالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ:

— أَنا أَرْكَبُهُ.

وَأَمْسَكَ بِلِجامِ ٱلْجَوادِ الثّائِرِ، وَأَدارَ وَجْهَهُ جِهَةَ الشَّمْسِ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ بوسيفالوسَ خائِفٌ مِنْ ظِلِّهِ نَفْسِهِ. وَوَثَبَ غَيْرَ هَيّابٍ إِلى ظَهْرِ ٱلْجَوادِ، فَٱنْدَفَعَ بِهِ في السَّهْلِ. وَكانَ ٱلْجَوادُ يَزْدادُ سُرْعَةً، وَقَدْ عَقَدَ ٱلْخَوْفُ أَلْسِنَةَ ٱلْمَلِكِ وَحاشِيَتِهِ، فَظَلّوا يَنْظُرونَ صامِتينَ. وَلَمّا رَأَى ٱلْإِسْكَنْدَرُ أَنَّ ٱلْحِصانَ قَدِ ٱرْتاضَ، كَرَّ[٣] راجِعاً إِلى أَبيهِ. فَٱسْتَقْبَلَهُ رِجالُ ٱلْحاشِيَةِ بِٱلْهُتافِ[٤] وَصاحوا:

— لِيَحْيَ ٱلْأَميرُ!

---

(١) اتسم بسمة: كانت فيه علامة يعرف بها. (٢) الحصان الشامس: الذى يمنع ظهره ويكاد لا يستقر. (٣) كر: رجع وعطف. (٤) الهتاف: الصوت العالي.



الاسكندر الـكبير

وَأَمّا فيليبُ فقالَ، وَقَدْ دَمَعَتْ عَيْناهُ فَرَحاً :

— إبْحَثْ يا وَلَدي عَنْ مَمْلَكَةٍ أُخْرى، فَإِنَّ مَكدونيَةَ عَمّا قَليلٍ لَنْ تَكْفِيَكَ.

فَسُرَّ الإِسْكَنْدَرُ بِهٰذا الكَلامِ، لأَنَّهُ كانَ عَظيمَ الطُّموحِ، وَكَثيراً ما ذَكَرَ هٰذا الكَلامَ لَيْلاً، وَهُوَ سَهْرانُ يُعِدُّ الخُطَطَ[١]. وَنَشَأَ شابّاً جَميلَ الطَّلْعَةِ[٢]، قَوِيَّ البِنْيَةِ[٣]، رَبْعَ القامَةِ[٤]. وَقَدِ اعْتادَ أَنْ يُميلَ رَأْسَهُ إِلى جِهَةٍ وَهُوَ يُصْغي. وَسَرْعانَ ما اقْتَبَسَ قُوّادُهُ وَرِجالُ حاشِيَتِهِ هٰذِهِ العادَةَ. وَكانَ يُحِبُّ أَخيلَ حُبّاً عَظيماً، وَيَحْتَفِظُ تَحْتَ وِسادَتِهِ بِنُسْخَةٍ مِنْ إِلْياذَةِ هوميروسَ، لِيَقْرَأَ عَنْ أَبْطالِ طِرْوادَةَ . وَكانَ قَدْ مَضى عَلَى حَرْبِ طِرْوادَةَ زُهاءَ ثَماني مِئَةِ سَنَةٍ، غَيْرَ أَنَّ الحَرْبَ، بَيْنَ اليونانِ وَالفُرْسِ، لَمْ يَكُنْ قَدْ مَضى عَلَيْها سِوى مِئَةِ سَنَةٍ . وَأَحَبَّ أَنْ يَكونَ فاتِحاً، وَأَنْ يَسيرَ إِلى أَقْطارٍ مَجْهولَةٍ، لِيَغْنَمَ مَمْلَكَةً عَظيمَةً لِنَفْسِهِ. وَكَثيراً ما فَكَّرَ في ذٰلِكَ حَتّى إِنَّهُ كانَ يَسْتاءُ أَحْياناً ، لَمّا كانَ

(١) الخطط جمع خطة (بضم الخاء) : الامور المشكلة والتي يصمم على إتيانها .
(٢) جميل الطلعة : جميل الرؤية والصورة . (٣) البنية : الفطرة . (٤) ربع القامة : بين الطويل والقصير . (٥) تبرم بالشيء :قلق وتضجر منه .

أَبوهُ يَرْحَلُ لِمُحارَبَةِ ٱلأَعْداءِ، وَيَنْتَصِرُ في ٱلمَعارِكِ. وَكانَ يَتَبَرَّمُ[1] بِذٰلِكَ قائِلاً:

— إِنَّ أَبي يُحْرِزُ النَّصْرَ بَعْدَ ٱلنَّصْرِ، فَلَنْ يَبْقى لي شَيْءٌ أَصْنَعُهُ عِنْدَما أَكْبَرُ.

وَلٰكِنَّ ٱلأَميرَ ٱلفَتى ٱلطَّمّاحَ[2] كانَ عَلَى خَطَأٍ. فَقَدْ جاءَ يَوْمٌ، قُتِلَ فيهِ أَبوهُ، فَغَدا مَلِكاً مَكانَهُ، وَهُوَ لا يَزالُ في ٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ. وَقَدْ ظَلَّ عَلَى رَأْيِهِ أَنَّ مَكْدونِيَةَ، وَبِلادَ ٱليونانِ نَفْسَها، لَمْ تَكُنْ سِوى مَمْلَكَةٍ صَغيرَةٍ، فَعَبَرَ ٱلبَحْرَ لِيَسْتَوْلِيَ عَلَى أَقْطارٍ جَديدَةٍ.

وَكانَ مُعْظَمُ هٰذِهِ ٱلأَقْطارِ ٱلواقِعَةِ وَراءَ ٱلبَحْرِ خاضِعاً لِمَلِكٍ فارِسِيٍّ، يُدْعى دارِيُوسَ الثّالِثَ. وَلَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلمَلِكَ ٱلَّذي مَرَّ بِنا ذِكْرُهُ. وَكانَ النّاسُ يُلَقِّبونَهُ بِٱلمَلِكِ ٱلعَظيمِ، لِأَنَّهُ كانَ سَيِّدَ آسِيا كُلِّها، إِلاَّ قَليلاً. وَقَدْ عَقَدَ ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلنِّيَّةَ عَلَى مُحارَبَةِ ٱلمَلِكِ ٱلعَظيمِ، وَٱلِاقْتِصاصِ مِنَ ٱلفُرْسِ لِغَزْوِهِمْ بِلادَ ٱليونانِ، قَبْلَ مِئَةِ سَنَةٍ. وَكانَ ذٰلِكَ مَطْلَباً صَعْباً، غَيْرَ أَنَّ ٱلمَلِكَ ٱلشّابَّ

---

(١) تبرم بالشيء = قلق وتضجر منه. (٢) الطماح: الشره والبعيد النظر.

كانَ جُنْدِيًّا باسِلاً ، وَقائِداً خَبيراً . وَكانَ رِجـالُهُ يَثِقونَ[١] بِهِ ، وَمَتى رَأَوْا خُوذَتَـهُ[٢] ذاتَ ٱلرِّيشِ ٱلأَبْيَضِ ، في مُزْدَحَمِ[٣] ٱلمَعارِكِ ، يُقاتِلونَ بِبَسالَةٍ ، تُعادِلُ بَسالَةَ قائِدِهِمْ . فَلَمْ يَطُلِ ٱلوَقْتُ حَتّى أَخَذَ دارِيُوسُ وَقُوّادُهُ يَنْهَزِمونَ أَمامَ ٱلإِسْكَنْدَرِ .

غادَرَ ٱلإِسْكَنْدَرُ أُورُبّا ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهـا . فَعَبَرَ مَضيقَ هِلِّسْبُنْتوسَ بِجَيْشِهِ ٱلمُؤَلَّفِ مِنْ خَمْسَةٍ وَثَلاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ ، وَكَسَرَ ٱلفُرْسَ في مَعْرَكَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ نَهْرِ غِرانيكوسَ ، وَفي إِيزوسَ . وَأَقْبَلَ في سَيْرِهِ عَلَى مَدينَةٍ تُدْعى غُورْدِيا . وَكانَ في ٱلمَدينَةِ قَصْرٌ ، وَفي ٱلقَصْرِ مَرْكَبَةٌ ، شُدَّ نيرُها[٤] بِغُصْنِ شَجَرَةٍ مُعَقَّد . وَكانَ النّاسُ يَقولونَ إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذي يَفُكُّ ٱلعُقْدَةَ لا بُدَّ أَنْ يُصْبِحَ سَيِّدَ آسِيا . وَسَأَلَ أَهْـلُ غُورْدِيا ٱلإِسْكَنْدَرَ أَنْ يُجَرِّبَ ذٰلِكَ . فَلَوى ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلعُقْدَةَ وَشَدَّها ، ولٰـكِنَّها ٱسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ[٥] . فَضَحِكَ ، وَجَرَّدَ سَيْفَهُ ،

---

(١) وثق (بكسر الثاء) يثق به : إئتمنه . (٢) الخوذة : ما يجعله المحارب على رأسه ليقيه . (٣) المزدحم : مكان الازدحام والتضايق . (٤) النير : الخشبة المعترضة في المركبة وغيرها . وهي تشد الى اعناق الخيل او الثيران التي تجر الأداة . (٥) استعصت عليه : اشتدت .

وَشَطَرَ[١] ٱلعُقْدَةَ. فَهَتَفَ جُنودُهُ كُلُّهُمْ، وَكانوا قَدْ أَشْفَقوا[٢] أَنْ يُخْفِقَ[٣] ٱلإِسكَنْدَرُ في مُحاوَلَتِهِ[٤]، وَقالوا:

— سَيُصْبِحُ ٱلإِسكَنْدَرُ سَيِّدَ آسِيا.

وَوَلَّى ٱلإِسْكَنْدَرُ وَجْهَهُ مِنْ ثَمَّ شَطْرَ[٥] ٱلجَنوبِ، وٱسْتَوْلى عَلَى سورِيَّةَ، وَفِلِسْطينَ، وَقَضى مِنَ ٱلزَّمَنِ في فَتْحِ مَدينَتَيْ صُورٍ وَغَزَّةَ ما لَمْ يَقْضِهِ في فَتْحِ قُطْرٍ بِأَسْرِهِ. وَجازَ بِمِصْرَ، وَٱنْحَدَرَ في النِّيلِ إِلى جَزيرَةِ فاروسَ. وَقالَ:

— سَأَبْني هُنا مَدينَةً وَأَدْعوها ٱلإِسْكَنْدَرِيَّةَ، تَخْليداً لِذِكْري.

فَبُنِيَتِ ٱلإِسْكَنْدَرِيَّةُ، وَكانَتْ عاصِمَةً لِمِصْرَ أَلْفَ سَنَةٍ. وَظَلَّتْ قُروناً عَديدَةً مِنْ أَعْظَمِ مُدُنِ ٱلعالَمِ. وَهِيَ ٱلْيَوْمَ عَروسُ ٱلمَدائِنِ في ٱلبَحْرِ ٱلمُتَوَسِّطِ، وَميناءٌ جَميلٌ تَؤُمُّهُ[٦] سُفُنُ ٱلأُمَمِ جَميعِها.

وَفيما كانَ ٱلعَمَلَةُ مُنْهَمِكينَ في بِناءِ ٱلمَدينَةِ، جَمَعَ ٱلإِسْكَنْدَرُ

---

(١) شطرها : جعلها نصفين . (٢) اشفقوا منه : خافوا . (٣) أخفق : خاب .
(٤) المحاولة : طلب نيل الشيء بحيلة . (٥) ولى وجهه شطر الجنوب : جعله ناحيته .
(٦) تؤمه : تقصده .

جَيْشَهُ ، وَسارَ مُفَكِّراً في أَمْرِ دارِيُوسَ ٱلمَلِكِ ٱلعَظيمِ ٱلَّذي لَمْ يَسْتَوْلِ عَلَى سائِرِ[١] بِلادِهِ . وَأَقْبَلَ دارِيُوسُ لِمُلاقاتِهِ ، بِجَيْشٍ عَظيمٍ ، يُرْبي[٢] عَلَى كُلِّ جَيْشٍ حَشَدَهُ[٣] قَبْلاً . وَرَكِبَ هُوَ نَفْسُهُ في مَرْكَبَةٍ مُذَهَّبَةٍ ، ثُبِّتَتِ ٱلمَناجِلُ في عَجَلاتِها . وَٱصْطَدَمَ[٤] ٱلجَيْشانِ في مَعْرَكَةِ أَرْبيلَةَ ، وَلٰكِنَّ دارِيُوسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ رِجالِ ٱلإِسْكَنْدَرِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَثَبَ مِنْ مَرْكَبَتِهِ ، وَٱنْهَزَمَ راكِباً جَواداً .

وَواصَلَ ٱلإِسْكَنْدَرُ زَحْفَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلى مَدينَةِ بابِلَ ، وَكانَتْ وَقْتَئِذٍ خَراباً . وَٱسْتَوْلى عَلَى مَدينَةِ بَرْسيبوليسَ ، وَكانَتْ ، عَلى ما قيلَ ، أَفْخَمَ مُدُنِ ٱلعالَمِ ، فَوَجَدَ هُناكَ كُلَّ ما كانَ مُلوكُ ٱلفُرْسِ قَدْ حَشَدوهُ ، في سِنينَ طَويلَةٍ ، مِنَ ٱلذَّهَبِ ، وَٱلفِضَّةِ ، وَٱلجَواهِرِ ، وَٱلبُسُطِ ، وَٱلعُطورِ ، وَالنُّسُجِ[٥] ٱلحَريرِيَّةِ . غَيْرَ أَنَّ ٱلإِسْكَنْدَرَ لَمْ يَكْتَفِ بِهٰذا ، بَلْ سارَ في أَثَرِ دارِيوسَ ، يَقْضي ٱليَوْمَ بَعْدَ ٱليَوْمِ ، وَٱلأُسْبوعَ ، بَعْدَ ٱلأُسْبوعِ ، وَيَفْتَحُ

---

(١) سائر الشيء : باقيه . (٢) اربى عليه يربي : زاد . (٣) حشده : جمعه .
(٤) اصطدم الجيشان : ضرب احدهما الآخر بنفسه . (٥) النسج جمع النسيج : المنسوج .

ما في طَرِيقِهِ مِنَ ٱلْمُدُنِ، وَأَخيراً وَجَدَ عَدُوَّهُ، ذاتَ يَوْمٍ، طَرِيحاً عَلَى جانِبِ الطَّرِيقِ، مُعَفَّراً[1] في التُّرابِ، وَحِصانُهُ إِلى جانِبِهِ، يَرْعى العُشْبَ، وَهُوَ لا يَزالُ مَشْدوداً إِلى ٱلْمَرْكَبَةِ. وَكانَ قَدْ ماتَ مَقْتولاً بِيَدِ ٱبْنِ عَمِّهِ بَسّوسَ. فَلَمّا رَآهُ ٱلإِسْكَنْدَرُ وَحيداً، وَلَيْسَ مِنْ صَديقٍ بِجانِبِهِ يَنوحُ عَلَيْهِ، ٱكْتَأَبَ وَغَطّى جُثَّةَ ٱلْمَلِكِ بِرِداءٍ أُرْجُوانِيٍّ، مَلَكِيٍّ، وَأَمَرَ جُنودَهُ أَنْ يَدْفِنوهُ بِإِكْرامٍ.

ماتَ داريوسُ، وَٱسْتَوْلى ٱلإِسْكَنْدَرُ عَلى مَمْلَكَتِهِ كُلِّها. وَغَدا هُوَ ٱلْمَلِكَ ٱلعَظيمَ، وَ«ٱلإِسْكَنْدَرَ ٱلكَبيرَ». وَكانَ أَوَّلَ أُورُبِّيٍّ مَنَحَهُ ٱلأَعْقابُ[2] لَقَبَ «الكَبيرِ».

وَلَمْ يَكْتَفِ ٱلإِسْكَنْدَرُ بِهٰذا، بَلْ قالَ:

— لا بُدَّ أَنْ أَتَوَغَّلَ[3] في ٱلبِلادِ.

وَواصَلَ الزَّحْفَ بِجَيْشِهِ، فاتِحاً ٱلأَقْطارَ في طَرِيقِهِ. وَظَلَّ يَسيرُ حَتّى ٱنْتَهى أَخيراً إِلى نَهْرِ ٱلهِنْدِ فَعَبَرَهُ، وَحَثَّ رِجالَهُ عَلى

---

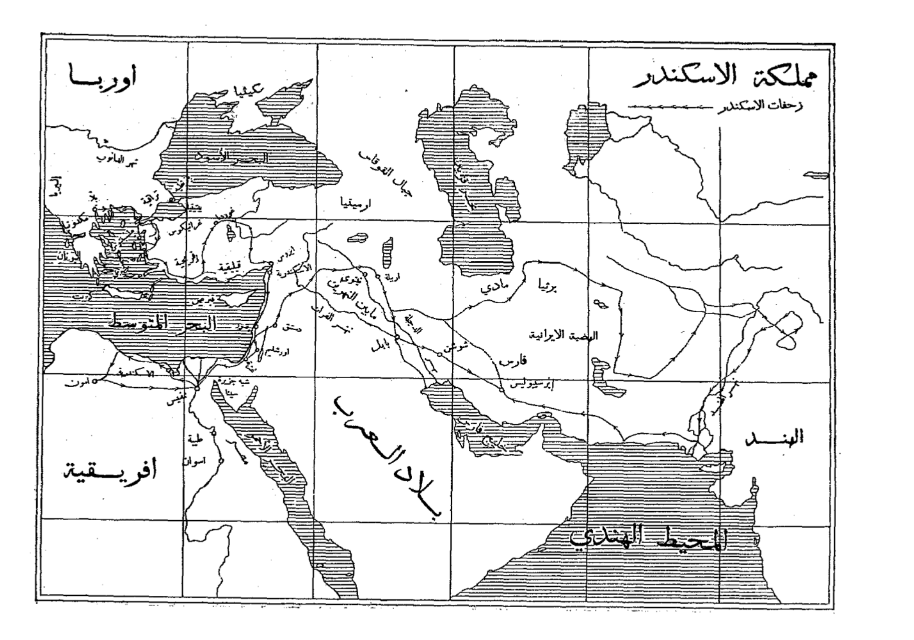
(١) معفراً في التراب: ممرغاً. (٢) الاعقاب جمع العقب (بكسر القاف وسكونها): الولد وولد الولد. (٣) توغل في البلاد: ذهبَ وأبعد.

مُواصَلَةِ السَّيْرِ ، وَفي عَزْمِهِ أَنْ يَفْتَحَ بِلادَ الْهِنْدِ أَيْضاً . إِلاَّ أَنَّ هٰذا كانَ حُلْماً لَمْ يَتَحَقَّقْ . فَإِنَّ رِجالَ الإِسْكَنْدَرِ قَدْ أَجْهَدَهُمُ (١) التَّعَبُ ، لِأَنَّهُمْ كانوا قَدْ واصَلوا السَّيْرَ وَالْقِتالَ مُدَّةَ إِحْدى عَشْرَةَ سَنَةً ، وَتاقوا أَنْ يَعودوا إِلى أَوْطانِهِمْ . وكانَتْ حَوافِرُ خَيْلِهِمْ قَدْ حَفِيَتْ (٢) مِنَ السَّيْرِ الْمُتَواصِلِ . فَسَأَلوا الإِسْكَنْدَرَ أَنْ يَعودَ بِهِمْ إِلى مَكْدونِيَةَ ، فَوافَقَهُمْ عَلى ذٰلِكَ أَخيراً . وَكانَ قَدْ غَنِمَ إِمْبَراطورِيَّةً عظيمَةً ، وَفَكَّرَ أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ، يَتَمَكَّنُ فيهِ مِنَ الْعَوْدَةِ ، وَتَوْسيعِ نِطاقِ (٣) هٰذِهِ الإِمْبَراطورِيَّةِ.

وَعادَ إِلى بابِلَ مُجْتازاً (٤) بِصَحاري بِلُوشِسْتانَ . وَتَلَبَّثَ (٥) هُناكَ لِيُعِدَّ خُطَّةً لِفَتْحِ بِلادِ الْعَرَبِ مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ . وأَدَبَ (٦) حالاً بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلى بابِلَ مَأْدُبَةً إِكْراماً لِقائِدِهِ نيرْكوسَ ، الَّذي كانَ عَلى وَشْكِ الرَّحيلِ ، لِلْحَمْلَةِ (٧) عَلى بِلادِ الْعَرَبِ . فَأَفْرَطَ (٨) الإِسْكَنْدَرُ في الشُّرْبِ ، وَنامَ إِلى ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ في الْيَوْمِ

---

(١) أجهده : أتعبه وحمله فوق طاقته . (٢) حفيت الحوافر : رقت وانقشرت .
(٣) النطاق : ما يشد به الوسط . وهنا بمعنى الحدود . (٤) اجتاز بالمكان : مر .
(٥) تلبث : توقف . (٦) أدب : عمل مأدبة ، وهي طعام يصنع لدعوة . (٧) الحملة : الهجوم والكرة في الحرب . (٨) افرط : جاوز الحد .


مملكة الاسكندر
زحفات الاسكندر
اوربـــا
نهر الدانوب
البحر الأسود
جبال القوقاس
ارمينيا
قليقية
البحر المتوسط
دمشق
اورشليم
بابل
ماذي
برثيا
الهضبة الايرانية
فارس
إبرسيبوليس
الهنـــد
المحيط الهندي
بلاد العرب
افريــقية
اسوان
طيبة
شبه جزيرة سيناء
الاسكندرية
اربيلة
شوشن

ٱلتّالي. فَلَمّا ٱسْتَيْقَظَ كانَتِ ٱلحُمّى قَدِ ٱعْتَرَتْهُ. وَأَخَذَتْ حالُهُ تَسوءُ يَوْماً فَيَوْماً، وَفي ٱليَوْمِ ٱلعاشِرِ عَقَدَ ٱلصَّمْتُ لِسانَهُ. وَمَرَّ قُوّادُهُ ٱلمُقَرَّبونَ ٱلواحِدُ بَعْدَ ٱلآخَرِ أَمامَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سِوى أَنْ يُشيرَ إِشارَةً ضَعيفَةً بِيَدِهِ. فَسَأَلَهُ أَحَدُهُمْ:

— لِمَنْ تُوصي بِصَوْلَجانِكَ مِنْ بَعْدِكَ؟

فَٱبْتَسَمَ وَهَمَسَ قائِلاً:

— لِلرَّجُلِ ٱلأَفْضَلِ.

ثُمَّ فاضَتْ روحُهُ [١].

وَماتَ ٱلإِسْكَنْدَرُ في السَّنَةِ ٱلثّالِثَةِ وَٱلثّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ، وٱلثّالِثَةَ عَشْرَةَ لِمُلْكِهِ، في شَهْرِ حَزيرانَ سَنَةَ ثَلاثٍ وَعِشْرينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ. وَكانَ قَدِ ٱسْتَوْلى عَلَى أَعْظَمِ إِمْبَراطورِيَّةٍ عُرِفَتْ حَتّى ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ. وَقيلَ إِنَّهُ بَكى لَمّا رَأى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلأَقْطارِ ما يَفْتَحُهُ.

وَلَمْ يَكُنْ قُوّادُ ٱلجَيْشِ أَقْوِياءَ كَمَوْلاهُمْ. وَقَدْ أَرادَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَكونَ مَلِكاً، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُتَحْ [٢] لِواحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ

(١) فاضت روحه: خرجت. (٢) أتيح له الشيء: تهيأ.

يَتَغَلَّبَ عَلى ٱلآخَرِينَ . فَلَمْ يَنْقَضِ طَويلُ زَمَنٍ حَتَّى ٱنْقَسَمَتْ إمْبَراطورِيَّةُ ٱلإِسْكَنْدَرِ ٱلعَظيمَةُ .

وَلٰكِنَّ ٱلإِسْكَنْدَرَ لَمْ يُجْهِدْ[1] نَفْسَهُ سُدًى ، فَإِنَّ أَفْضَلَ ما في عَمَلِهِ قَدْ عاشَ بَعْدَهُ . فَهُوَ قَدْ أَحَبَّ كُلَّ ما هُوَ يونانِيٌّ ، وَكانَ ٱليونانِيّونَ أَعْظَمَ أُمَّةٍ ، رَآها ٱلعالَمُ ، في الشِّعْرِ ، وٱلفُنونِ ، والنَّقْشِ وٱلحِكْمَةِ . وَقَدْ شَقَّ ٱلإِسْكَنْدَرُ بِفُتوحِهِ طَريقًا مِنَ ٱلبَحْرِ ٱلمُتَوَسِّطِ إلى ٱلهِنْدِ ، وَعَلى هٰذِهِ الطَّريقِ ٱنْتَقَلَتْ حِكْمَةُ ٱليونانِ وَفُنونُهُمْ إلى أَقْطارٍ أُخْرى .



(١) أجهد نفسه : أتعبها .

الوَلَدُ الَّذِي أَبْغَضَ رُومَةَ

كانَ ٱلفينيقيّونَ، أَهْلُ مَدينَتَيْ صورَ وَصَيْداءَ، مِنْ خيرَةِ رِجالِ ٱلعَمَلِ. فَإِنَّهُمْ كانوا يُعْنَوْنَ بِٱلْمُتاجَرَةِ وَعَقْدِ صَفَقاتٍ[1] رابِحَةٍ مَعَ جيرانِهِمْ، فَلَمْ يَلْبَثوا أَنْ أَثْرَوْا[2] عَنْ طَريقِ ٱلبَيْعِ وَٱلْمُقايَضَةِ[3].

وَلَمْ يَكُنْ سَهْلاً عَلَيْهِمْ، بِالنَّظَرِ إِلى مَوْقِعِهِمِ ٱلجُغْرافِيِّ، أَنْ يَتَّصِلوا بَرًّا بِالأَقْطارِ ٱلأُخْرى، غَيْرَ أَنَّ ٱلبَحْرَ كانَ قَريباً مِنْهُمْ وَسُرْعانَ ما ٱسْتَخْدَموهُ لِذٰلِكَ. وَكانَ يَسيراً عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْصَلوا عَلَى ٱلخَشَبِ ٱلكَثيرِ مِنْ غاباتِ ٱلأَرْزِ في لُبْنانَ، فَبَنَوْا سُفُناً تِجارِيَّةً، أَصْبَحَ مَنْظَرُها مَأْلوفاً في ٱلبِحارِ ٱلبَعيدَةِ. وَقَدْ ساروا في ٱلبَدْءِ مُتَحَفِّظينَ[4]، يَشُقّونَ طَريقَهُمْ مِنْ جَزيرَةٍ إِلى أُخْرى. وَداروا بِساحِلِ آسِيا الصُّغْرى، وَتَخَلَّلوا[5] ٱلجُزُرَ ٱليونانِيَّةَ،

---

(١) الصفقة: عقد البيع، وهي ضرب اليد على اليد في البيع. (٢) أثرى الرجل: كثر ماله. (٣) المقايضة: المبادلة والمعاوضة. (٤) متحفظين: محترزين. (٥) تخلل الجزر: دخل بينها.

وَجاوَزوا[١] جَزيرَةَ صَقَلِّيَةَ ، وَساحِلَ أَفْريقيَةَ ، إِلى أَنْ وَصَلوا أَخيراً إِلى مَضيقِ جَبَلِ طارِقٍ ، أَوْ أَعْمِدَةِ هِرَقْلَ ، لِأَنَّ الْمُرْتَفَعاتِ ، عَلَى جانِبَيِ الْمَضيقَيْنِ ، كانَتْ تُدْعى كَذٰلِكَ . وَكانَ النّاسُ يَظُنُّونَ قَبْلاً أَنَّ الْأَرْضَ والسَّماءَ يَلْتَقِيانِ هُناكَ ، جاعِلَيْنِ مِنِ الْتِقائِهِما حَدًّا لِلْعالَمِ . وَلِذا عَجِبَ الْفينيقِيّونَ لَمّا رَأَوا أَنْفُسَهُمْ يَعْبُرونَ الْمَضيقَ إِلى الْمُحيطِ الْأَطْلَسِيِّ ، لا إِلى السَّماءِ . وَلَمْ يَجِدوا هُناكَ آلِهَةً في اسْتِقْبالِهِمْ ، بَلْ وَجَدوا ما هُوَ أَهَمُّ مِنَ الْوُجْهَةِ[٢] الْمادِّيَّةِ . فَإِنَّهُمْ وَجَدوا الْفِضَّةَ في إِسْبانِيا ، والتَّنَكَ في إِنْكِلْتِرا . وَأَعْطَوْا بَدَلاً مِنْ ذٰلِكَ الزُّجاجَ ، وَصِحافاً مَعْدِنِيَّةً ، وَطُرَفاً[٣] جَميلَةً مَنْقوشَةً مِنَ النُّحاسِ والْعاجِ ، وَصِباغاً أُرْجُوانِيًّا ، أَصْبَحَ مُنْذُ ذاكَ اللَّوْنَ الْخاصَّ بِالْمُلوكِ والْمَلِكاتِ . وَنَقَلوا أَيضاً إِلى هُناكَ الْحُروفَ الْهِجائِيَّةَ ، فَمَهَّدوا بِذٰلِكَ سَبيلَ الْكِتابَةِ لِأَهْلِ الْغَرْبِ .

وَأَقامَ الْفينيقِيّونَ لَهُمْ مَراكِزَ تِجارِيَّةً عَلَى ساحِلِ أَفْريقيَةَ ، كانَ لَها فيما بَعْدُ شَأْنٌ كَبيرٌ في التّاريخِ . وَمِنْ

---

(١) جاوز المكان : تعداه . (٢) الوجهة : الناحية والجانب . (٣) طرف جمع طرفة (بضم الطاء) : الجديد المستحسن .

أَعْظَمِ هٰـذِهِ ٱلمَرَاكِزِ خَطَراً قَرْطـاجَنَّةُ ، ٱلَّتِي تَسْتَدْعِي ٱهْتِمَامَنـا بِوَجْهٍ خاصٍّ .

فَقَدْ كانَ هٰذا ٱلمَرْفَأُ سَيِّدَ ٱلبِحارِ زَمَناً طَويلاً بَعْدَ ٱنْدِثارِ[١] ٱلوَطَنِ ٱلأَصْلِيِّ . وَهٰذِهِ ٱلمَدينَةُ ، ٱلَّتِي ٱرْتَقَتْ إِلى قِمَّةِ[٢] المَجْدِ والعَظَمَةِ ، قَدْ بُنِيَتْ في مَوْقِعٍ حَصينٍ ، عَلَى شِبْهِ جَزيرَةٍ ، وَسُوِّرَتْ بِأَسْوارٍ ، قيلَ إِنَّها بَلَغَتْ عِشْرينَ ميلاً طولاً . وَكانَتْ مَوْقِعاً فاخِراً ، يَسْهُلُ الدِّفاعُ عَنْهُ مِنَ ٱلبَرِّ ، وَكانَ لَها ميناءٌ ، عَزَّ[٣] لَهُ ٱلمَثيلُ . وَلَمْ يُتَحْ[٤] لَها ٱلبَقاءُ مَعَ ذٰلِكَ ، لِأَنَّ ٱلفينيقيِّينَ لَمْ يُحْسِنوا ٱلإِدارَةَ ، لِحِرْصِهِمِ[٥] الدّائِمِ عَلَى ٱلكَسْبِ .

وَكانَتْ مَدينَةُ رومِيَةَ في ذٰلِكَ الزَّمَنِ ، هِيَ أَيْضاً ، مَدينَةً عَظيمَةً قَديرَةً ، لِأَنَّ الرّومانِيِّينَ كانوا وَقْتَئِذٍ قَدِ ٱسْتَوْلَوْا عَلَى إِيطالِيا بِأَسْرِها . وَلَمْ تَلْبَثْ هاتانِ ٱلمَدينَتانِ أَنْ دَبَّ بَيْنَهُما ٱلحَسَدُ ، وَأَصْبَحَتا خَصْمَيْنِ أَلَدَّيْنِ[٦] . وَكانَتْ رومِيَةُ تَرْغَبُ أَنْ تُدَمِّرَ مَدينَةَ قَرْطاجَنَّةَ ٱلمُتَغَطْرِسَةَ[٧] ، وَلٰكِنَّ ٱلرّومانِيِّينَ

(١) الاندثار : الامحاء والفناء . (٢) قمة الشيء : أعلاه . (٣) عز المثيل : قل .
(٤) أتيح لها البقاء : تهيأ . (٥) حرص على الشيء : اشتد شرهه اليه وعظم تمسكه به .
(٦) الألد : الشديد الخصومة . (٧) المتغطرسة : المتكبرة .

أَدْرَكوا أَنَّهُمْ لا يَسْتَطيعونَ ذٰلِكَ حَتَّى يَنالوا السِّيادَةَ في ٱلْبَحْرِ.

وَلِذا، وَقَعَ ٱلْقِتالُ بَيْنَ رومِيَةَ وَقَرْطاجَنَّةَ، وَتَنازَعَتا[١] ٱلْبَحْرَ، أَوِ السِّيادَةَ في ٱلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ، الَّذي كانَ يَغْمُرُ[٢] سَواحِلَ إِيطاليا، وَيَمْتَدُّ إِلى مَوانِي قَرْطاجَنَّةَ. وَنَشِبَتْ بَيْنَهُما ثَلاثُ حُروبٍ كَبيرَةٍ، دُعِيَتِ ٱلْحُروبَ ٱلبونِيَّةَ، أَوِ ٱلفينيقِيَّةَ.

وَنَشِبَتِ ٱلْحَرْبُ ٱلأُولى، مِنْ أَجْلِ ٱلِاسْتيلاءِ عَلَى جَزيرَةِ صَقَلِّيَةَ. فَإِنَّ رومِيَةَ بادَرَتْ وَٱبْتَنَتْ لَها أُسْطولاً، وَكانَتْ تَنْتَصِرُ حيناً، في إِحْدى ٱلْمَعارِكِ ٱلْبَحْرِيَّةِ، وَتَخْسَرُ حيناً آخَرَ، في غَيْرِها. وَٱمْتَدَّ أَجَلُ ٱلْحَرْبِ، إِلى أَنِ ٱخْتارَ ٱلقَرْطاجَنِّيّونَ زَعيمَهُمُ ٱلأَكْبَرَ ٱلْمَدْعُوَّ هَمِلْكارَ، لِيَتَوَلَّى[٣] قِيادَةَ ٱلْجَيْشِ. فَقاتَلَ هٰذا ٱلقائِدُ ثَمانِيَ سِنينَ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلى الرّومانِيِّينَ، فَٱضْطُرَّ أَخيراً أَنْ يَعْقِدَ الصُّلْحَ مَعَهُمْ. وَقَدْ دامَتْ هٰذِهِ ٱلْحَرْبُ ثَلاثاً وَعِشْرينَ سَنَةً (مِن سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتّينَ وَمِئَتَيْنِ إِلى سَنَةِ إِحْدى وَأَرْبَعينَ وَمِئَتَيْنِ قَبْلَ ٱلْمَسيحِ) كُسِرَتْ قَرْطاجَنَّةُ في نِهايَتِها،

---

(١) تنازعتا الشيء: تجاذبتاه كل منهما تريده لنفسها. (٢) غمره الماء يغمره: علاه وغطاه. (٣) تولى القيادة: تقلدها وقام بها.

وَٱسْتَوْلَتْ رومِيَةُ عَلى جَزيرَةِ صَقَلِّيَةَ ، وَسَرْدينِيَةَ ، وَكُرْسِكا .

وَقَدْ ساءَتْ هٰذِهِ ٱلنَّتيجَةُ ٱلقَرْطاجَنِّيِّينَ جِدًّا ، غَيْرَ أَنَّ هَمِلْكارَ كانَ يُحِبُّ قَوْمَهُ ، وَيُبْغِضُ مِنْ رومِيَةَ حَتَّى ٱسْمَها ، فَأَخَذَ يُعِدُّ ٱلخُطَطَ لِيَجْعَلَ وَطَنَهُ أَقْوى مِنْهُ قَبْلاً . وَأَطْلَعَ وَلَدَهُ الصَّغيرَ « هَنِّبالَ » عَلى سِرِّهِ قائِلاً :

— سَأُقيمُ في إِسْبانِيا إِمْبَراطورِيَّةً ، فائِقَةً في ٱلقُوَّةِ وٱلغِنى ، فَتُصْبِحُ قَرْطاجَنَّةُ أَعْظَمَ مِنْها فيما مَضى .

وَكانَ هَنِّبالُ وَقْتَئِذٍ في التّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ ، فَٱهْتَمَّ بِالأَمْرِ كَثيراً . وَلَمّا أَوْشَكَ أَبوهُ أَنْ يَرْحَلَ إِلى إِسْبانيا ، وَذَهَبَ إِلى ٱلهَيْكَلِ ، لِيُقَدِّمَ ذَبيحَةً لإِلٰهِ بِلادِهِ ، تَبِعَهُ هَنِّبالُ إِلى هُناكَ . فَٱلتَفَتَ هَمِلْكارُ فَرَآهُ وَسَأَلَهُ :

— أَتُريدُ أَنْ تَرْحَلَ مَعي ؟

وَلَمّا أَجابَ ٱلوَلَدُ بِالرِّضى ، قادَهُ أَبوهُ إِلى ٱلمَذْبَحِ وَقالَ :

— ضَعْ يَدَكَ عَلى ٱلذَّبيحَةِ ، وَأَقْسِمْ[1] أَنْ تُبْغِضَ رومِيَةَ بُغْضاً دائِماً .

---

(١) أقسم : حلف .

فَوَضَعَ ٱلوَلَدُ يَدَهُ ٱليُمْنى عَلَى ٱلمَذْبَحِ ، وَقالَ، وَعَيْنـاهُ إِلى عَيْنَيْ أَبيهِ :

— إِني أُقْسِمُ أَنْ أُبْغِضَ رومِيَةَ إِلى ٱلأَبدِ.

وَرَحَلَ ٱلأَبُ وٱلوَلَدُ مَعاً إِلى جَبَلِ طـارِقٍ بَحْراً، وَنَزَلا هُناكَ . وَقَضى هَمِلْكارُ تِسْعَ سِنينَ ، كانَ فيها جُنْدِيًّا فاتِحاً . وَكانَ حيناً يَسْتَصْحِبُ وَلَدَهُ ، وَحيناً يُغادِرُهُ[1] لِمَنْ يُعْنى بِهِ[2] . وَلٰكِنَّهُ كانَ يُذَكِّرُهُ دائِماً بِالقَسَمِ ٱلَّذي أَقْسَمَهُ ، قَبْلَ مُغادَرَةِ قَرْطاجَنَّةَ .

وَسَقَطَ هَمِلْكارُ قَتيلاً في إِحْدى ٱلمَعـارِكِ، فَواصَلَ صِهْرُهُ هَسْدُروبالُ عَمَلَهُ ، وَأَقامَ إِمْبَراطورِيَّةً في إِسْبانِيا ، وَبَنى عاصِمَةً ، ذاتَ مَرْفَأٍ فاخِرٍ ، عَلَى السّاحِلِ ٱلجَنوبِيِّ ، وَدَعاهـا قَرْطاجَنَّةَ ٱلجَديدَةَ . وَٱقْتَدى هَسْدُروبالُ بِهَمِلْكارَ ، فَكانَ دائِماً يُذَكِّرُ هَنِّيبالَ بِقَسَمِهِ . وَلَمّا ماتَ هَسْدُروبالُ غَـدا هَنِّيبـالُ، وَهُوَ في التّاسِعَةِ وَٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ، قائِداً لِلْجَيْشِ ٱلإِسْبانِيِّ، فَبـادَرَ وَٱسْتَوْلى عَلَى مَدينَةٍ ، كانَت قَدْ عاهَدَتْ[3] رومِيَةَ عَلى ٱلوَلاءِ[4]

---

(١) يغادره : يتركه ويبقيه . (٢) يعني به : يهتم به . (٣) عاهده : حالفه وعاقده .
(٤) الولاء : المصادقة والمناصرة .

فَغَضِبَتْ رومِيَةُ ، وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ رُسُلَها ، فَاسْتَعْلَموهُ حَنِقينَ :

— أَيَّ الأَمْرَيْنِ تُفَضِّلُ يا هَنِّيبالُ ، أَلحَرْبَ أَمِ السَّلامَ ؟

فَتَمَثَّلَ[١] هَنِّيبالُ وَلَداً صَغيراً واضِعاً يَدَهُ عَلَى مَذْبَحٍ ، يُقْسِمُ أَنْ يبغِضَ رومِيَةَ بُغضاً أَبدِيًّا ، فَضَحِكَ وَقالَ:

— إِنّي أُفَضِّلُ الحَرْبَ .

فَكانَتِ الحَرْبُ ، وَهِيَ الحَرْبُ البونِيَّةُ الثّانِيَةُ (سَنَةَ ثَماني عَشْرَةَ وَمِئَتَيْنِ إِلى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَمِئَتَيْنِ ، قَبْلَ المَسيحِ) . وَأَخَذَ في الحالِ يَتَأَهَّبُ[٢] لِلْحَرْبِ ، فَجَهَّزَ[٣] في وَقْتٍ قَصيرٍ قُوَّةً كَبيرَةً مُدَرَّبَةً[٤] أَحْسَنَ تَدْريبٍ ، وَضَمَّ إِلَيْها رِجالاً مِنْ أَجْناسٍ مُخْتَلِفَةٍ . وَأَلحَقَ بِهٰذا الجَيْشِ عَدَداً كَبيراً مِنَ الخَيْلِ والبِغالِ، وَسَبْعَةً وَثَلاثينَ فيلاً .

وَغادَرَ هَنِّيبالُ أَخاهُ الأَصْغَرَ ، هَسْدُروبالَ ، لِتَدْبيرِ الأُمورِ في إِسْبانِيا ، وانْطَلَقَ إِلى إِيطالِيا . وَصَمَّمَ هَنِّيبالُ أَنْ يَسيرَ بَرًّا ، تَجَنُّباً[٥] لِما في عُبورِ البَحْرِ ، بِمِثْلِ هٰذِهِ القُوَّةِ العَظيمَةِ ، مِنَ

---

(١) تمثل الشيء : تصور مثاله . (٢) يتأهب : يستعد . (٣) جهز : هيأ وأعد.
(٤) مدربة : معودة . (٥) تجنب الخطر : ابتعد عنه .

ٱلخَطَرِ . وَكانَ ذٰلِكَ أَيْضاً مَطْلَباً صَعْباً مَحْفوفاً [١] بِٱلأَخْطارِ ، إِذْ كانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِيطاليا سِلْسِلَتانِ عالِيَتانِ مِنَ ٱلْجِبالِ ، وَهُما جِبالُ ٱلبِيرِينِي وَجِبالُ ٱلأَلْبِ ، وَنَهْرٌ عَميقٌ سَريعٌ ، هُوَ نَهْرُ الرُّونِ . وَقَدِ ٱضْطُرَّ هٰذا ٱلْجَيْشُ ، وَهُوَ يَقْطَعُ جِبالَ ٱلبِيرِينِي ، أَنْ يُحارِبَ قَبائِلَ مُتَوَحِّشَةً ، وَلٰكِنَّهُ تَمَكَّنَ أَخيراً مِنَ ٱلْوُصولِ إِلى نَهْرِ الرُّونِ ، فَعَبَروهُ في زَوارِقَ صَغيرَةٍ ، وَعَلَى ٱلأَرْماثِ [٢] . وَتَلا ذٰلِكَ أَشَقُّ [٣] ما في الرِّحْلَةِ . فَقَدْ قامَتْ في وُجوهِهِمْ جِبالُ ٱلأَلْبِ الشّاهِقَةُ ، تُغَطّيها الثُّلوجُ ، وَبَدَتْ قِمَمُها ، لِعُلُوِّها ، ذاهِبَةً في السَّحابِ . فَخاطَبَ هَنِّيبالُ رِجالَهُ قائِلاً :

— إِنَّكُمْ حارَبْتُم قَبائِلَ ٱلبِيرِينِي ٱلْمُتَوَحِّشَةَ ، وَعَبَرْتُمْ نَهْرَ الرُّونِ ٱلعَظيمَ ، مُقاوِمينَ تَيّارَهُ [٤] السَّريعَ . وَلَيْسَ في الدُّنيا مِنَ ٱلْجِبالِ ما يَمْتَنِعُ [٥] قَطْعُهُ لِعُلُوِّهِ ، وَلَيْسَ فيها مِنَ ٱلأَرْضِ ما يَلْتَصِقُ بِالسَّماءِ . وَما فَعَلَهُ غَيْرُكُمْ تَسْتَطيعونَ أَنْتُمْ فِعْلَهُ .

ثُمَّ أَخذوا يُصَعِّدونَ [٦] في ٱلْجِبالِ .

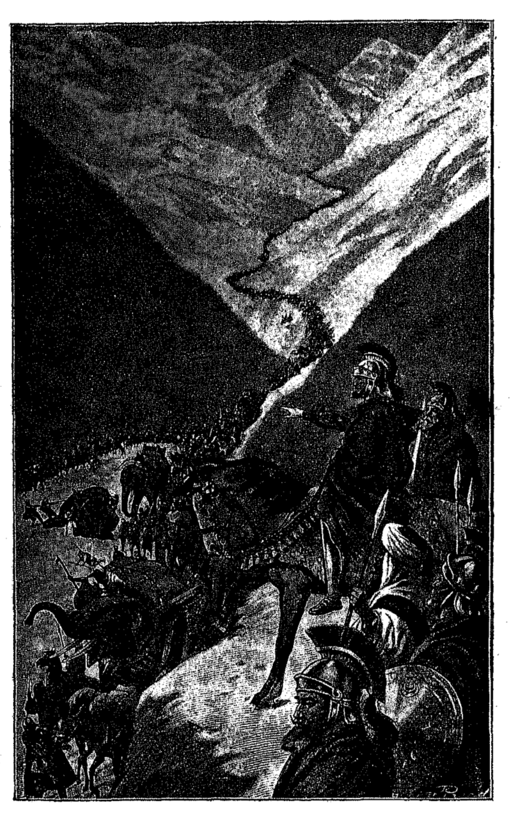
---

(١) المحفوف بالخطر : المحاط . (٢) أرماث جمع رمث (بفتح الراء والميم) خشب يضم بعضه الى بعض ويركب في الماء . (٣) أشق : أصعب . (٤) تيار النهر : موجه الهائج . (٥) امتنع الشيء : تعذر حصوله . (٦) صعد في الجبل : رقي .

وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ طُرُقٌ، فَاضْطُرّوا أَنْ يَصْعَدوا في مَسالِكَ[١] صَخْرِيَّةٍ وَعْرَةٍ. وَكانَ الْخَريفُ قَدْ أَوْشَكَ أَنْ يُوَلِّيَ[٢]، فَلَمْ يَلْبَثوا حَتّى تَراكَمَتِ[٣] الثُّلوجُ في سَبيلِهِمْ. وَكانَتْ كُتَلٌ[٤] عَظيمَةٌ مِنَ الثَّلْجِ تَتَدَحْرَجُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعالي الْجِبالِ، فَتُسْمَعُ لِسُقوطِها هَدَّةٌ[٥] مُخيفَةٌ. وَزَلَّتْ أَقْدامُ كَثيرينَ فَتَدَهْوَروا[٦] إِلى ما تَحْتَهُمْ مِنَ الشِّعابِ[٧]، وَساخَتِ[٨] الْأَرْضُ بِكَثيرٍ مِنَ الْخَيْلِ والْفِيَلَةِ، فَتَدَحْرَجَتْ بِأَحْمالِها إِلى الْأَوْدِيَةِ الْعَميقَةِ. وَوَصَلوا بَعْدَ تِسْعَةِ أَيّامٍ إِلى القِمَّةِ، فَرَأَوْا رُؤُوسَ الْجِبالِ حَوْلَهُمْ مُعَمَّمَةً[٩] بِالثُّلوجِ. فَتاقَ[١٠] الْقَرْطاجَنِّيّونَ والْإِسْبانِيّونَ إِلى حَرِّ أَفْريقِيَةَ اللّافِحِ[١١]، وَشَمْسِ إِسْبانيا الدَّفِئَةِ. وَوَدّوا لَوْ يُتاحُ لَهُمُ الْعَوْدُ إِلى أَوْطانِهِمْ. غَيْرَ أَنَّ هَنِّيبالَ كانَ قَدْ أَقْسَمَ أَنْ يُبْغِضَ رومِيَةَ بُغْضاً أَبَدِيّاً، فَاسْتَنْهَضَ[١٢] هِمَمَ رِجالِهِ بِهٰذِهِ الْكَلِماتِ:

---

(١) المسلك : الطريق . (٢) ولى يولي : ابتعد . (٣) تراكم الشيء : اجتمع بكثرة وازدحام . (٤) كتل جمع كتلة (بضم الكاف) : القطعة المجتمعة المتلبدة . (٥) الهدة : صوت وقوع الشيء الثقيل . (٦) تدهوروا : سقطوا في مهواة . (٧) الشعاب جمع شعب (بكسر الشين) : الطريق في الجبل . (٨) ساخت بهم الارض : انخسفت بهم . (٩) معممة : مغطاة رؤوسها كأن عليها عمائم . (١٠) تاق : اشتاق . (١١) حر لافح : محرق . (١٢) استنهض همته : حملها على النهوض .



هنيبال يقطع جبال الالب

— تَحْتَكُمْ تقومُ أَرْضُ إيطاليا الشّامِسَةُ [١] ، وَأَوْدِيَتُها الْخَضْراءِ ، وَسُهولُها الْخَصِبَةُ ، وَأَنْهارُها الْعَذْبَةُ ، هُناكَ تَجِدونَ الرّاحَةَ ، وَتَجِدُ دَوابُّكُمُ الْمَراعِيَ الطَّيِّبَةَ . هُناكَ يَكونُ الْقِتالُ والْكِفاحُ [٢] ، وَيَكونُ مَعَ ذٰلِكَ السَّلْبُ والنَّهْبُ . وَلَنْ يَطولَ بِكُمُ الزَّمَنُ حَتّى تَكونوا عَلى أَبْوابِ رومِيَةَ .

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَراحوا يَوْمَيْنِ ، شَرَعوا في الْهُبوطِ . وَتَبِعوا قائِدَهُمْ زالِقينَ ، ساقِطينَ ، قافِزينَ . وَقاسى هَنِّيبالُ وَرِجالُهُ أَشَدَّ الْبَرْدِ والْجوعِ ، وَفَقَدَ هَنِّيبالُ إِحْدَى عَيْنَيْهِ عِنْدَ نِهايَةِ الـ[illegible]رَةِ . وَلَمْ يُفارِقْهُ مَعَ ذٰلِكَ صَبْرُهُ وَشَجاعَتُهُ . وَكانَ إِذا أَحَسَّ مِنْ جُنودِهِ بِخَوَرِ [٣] الْعَزيمَةِ يُشَجِّعُهُمْ وَيُخاطِبُهُمْ بِما يَسْتَأْنِفُ [٤] بِهِ نَشاطَهُمْ . فَكانوا كُلُّهُمْ يُحِبّونَهُ ، وَيُعْجَبونَ بِهِ ، وَيُقاسونَ الشَّدائِدَ والْأَخْطارَ مَرْضاةً لِمِثْلِ هٰذا الْقائِدِ .

وَأَقْبَلَ الْجَيْشُ أَخيراً عَلَى سُهولِ إيطاليا ، بَعْدَ أَنْ قامَ بِعَمَلٍ خارِقٍ ، لَمْ يَجْسُرْ عَلَى إِعادَتِهِ سِوى نابوليُونَ الْكَبيرِ ، بَعْدَ

---

(١) الشامس والمشمس : الذي تظهر فيه الشمس . (٢) الكفاح : ملاقاة الاعداء وجهاً لوجه . (٣) الخور : الفتور والضعف . (٤) يستأنف النشاط : يعيده ويجدده .

أَلْفَيْ سَنَةٍ . وَكانَ ٱلْجَيْشُ قَدْ قَطَعَ في سَيْرِهِ خَمْسَ مِئَةِ مِيلٍ ، وَبادَ[١] نِصْفُهُ . وَلٰكِنَّهُ مَعَ ذٰلِكَ ، لَمّا وَصَلَ إِلى إِيطاليا ، جائِعًا ، تَعِبًا ، مُتَقَرِّحَ[٢] ٱلأَقْدامِ ، كَسَرَ ٱلْجَيْشَ الرّومانِيَّ ثَلاثًا .

وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتالُ ، وَتَوالَتِ[٣] ٱلْمَعارِكُ ، وَقَضى هَنِّيبالُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً يُحارِبُ في إِيطاليا . وَأَحْرَزَ في إِحْدى ٱلْمَعارِكِ نَصْرًا عَظِيمًا جِدًّا ، حَتّى إِنَّهُ أَرْسَلَ إِلى قَرْطاجَنَّةَ عَشَرَةَ آلافِ خاتَمٍ ذَهَبِيٍّ ، نُزِعَتْ مِنْ أَصابِعِ النُّبَلاءِ ، مِنَ ٱلرّومانِيِّينَ ، الَّذينَ قُتِلوا في تِلْكَ ٱلْمَعْرَكَةِ .

وَكانَ هَنِّيبالُ ، كُلَّما ٱمْتَدَّ بِهِ ٱلزَّمَنُ ، يَعْظُمُ فَوْزُهُ وَنَجاحُهُ . وَلَمْ يَكُنْ يَرْقُبُ سِوى فُرْصَةٍ لِيَنْقَضَّ[٤] عَلى رومِيَةَ ؛ غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الفُرْصَةَ لَمْ تَسْنَحْ[٥] ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ رومِيَةُ أَنْ تَطْرُدَ ٱلعَدُوَّ خارِجَ إِيطاليا ، وَلٰكِنَّ الرّومانِيّينَ كانوا مِنَ البَسالَةِ ، وصِدْقِ[٦] ٱلعَزيمَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَخْطُرْ لَهُمُ التَّسْليمُ في بالٍ .

وَكانَ في جُمْلَةِ قُوّادِ الرّومانِيّينَ قائِدٌ خَبيرٌ ، يُدْعى شِيبيُو ،

---

(١) باد : هلك . (٢) تقرحت اقدامهم : صار فيها قروح وبثور . (٣) توالت : تتابعت . (٤) انقض : سقط وهنا بمعنى هجم برجاله ومعداته . (٥) سنحت الفرصة : عرضت . (٦) صدق العزيمة : شدتها .

فَعَمَدَ[1] إِلى مِثْلِ خُطَّةِ هَنّيبالَ نَفْسِهـا ، وَعَبَرَ ٱلبَحْرَ إِلى أَفْرِيقِيَـةَ ، وانْقَضَّ عَلَى قَرْطاجَنَّةَ . فَخافَ ٱلقَرْطاجَنِّيّونَ ، واسْتَدْعَوْا هَنّيبالَ. فَاضْطُرَّ هَنّيبالُ أَنْ يَعودَ إِلى بِلادِهِ ، لِلدِّفاعِ عَنْ قَرْطاجَنَّةَ ، قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلاسْتيلاءِ عَلَى رومِيَةَ .

وَكانَتْ سِتٌّ وَثَلاثونَ سَنَةً قَدِ انْقَضَتْ ، مُنْذُ أَنْ وَضَعَ يَدَهُ الصَّغيرَةَ عَلى ٱلمَذْبَحِ . وَقَدْ أَقْسَمَ أَنْ يُبْغِضَ رومِيَةَ بُغْضاً أَبَدِيًّا ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلى هٰذِهِ ٱلمَدينَـةِ . فَعادَ إِلى وَطَنِهِ حَزيناً ، غَيْرَ أَنَّ عَهْدَ فَوْزِهِ قَدِ انْقَضى[2] ، فَلَمْ يَقْوَ عَلى إِنْقاذِ قَرْطاجَنَّةَ مِن شيبِيُو ، فَسَقَطَتِ ٱلمَدينَةُ ، وَأُكْرِهَ[3] ٱلقَرْطاجَنِّيّونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ جُزُرِهِمِ ٱلغَنِيَّةِ ، في ٱلبَحْرِ ٱلمُتَوَسِّطِ ، وَعَنْ مُمْتَلَكاتِهِمْ ، في إِسْبانِيا ، وَعَنْ فِيَلَتِهِمْ كُلِّها ، وَعَنْ أَسْراهُمْ ، وَعَنْ أُسْطولِهِمْ كُلِّهِ ، ما عَدا عَشْرَ سُفُنٍ . وَفُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْفَعوا جِزْيَةً كَبيرَةً في كُلِّ سَنَةٍ . وَقَدْ بَكى ٱلقَرْطاجَنِّيّونَ ، وَفَرِحَ الرّومانِيّونَ ، لَمّا خَرَجَتْ خَمْسُ

---

(١) عمد الى الخطة : قصدها . (٢) انقضى العهد : فني ومضى . (٣) أكره على الأمر : حمل عليه قهراً .

مِئَةِ سَفينَةٍ قَرْطاجَنِيَّةٍ ، مِنْ مَرْفَئِها ، يَقْطُرُها [١] الأُسْطولُ الرّومانيُّ .

لَمْ يَسَعْ [٢] قَرْطاجَنَّةَ سِوى الإِذْعانِ [٣] ، غَيْرَ أَنَّ هَنِّيبالَ أَقْبَلَ عَلى العَمَلِ ، بِشَجاعَةِ الرَّجُلِ العَظيمِ ، مُحاوِلاً أَنْ يُعيدَ إِلى قَرْطاجَنَّةَ ما فَقَدَتْهُ مِنَ العِزِّ . وَقَدْ نَجَحَ ، في عَمَلِهِ ، نَجاحاً عَظيمًا ، حَتّى إِنَّ رومِيَةَ فَزِعَتْ [٤] مِنْ ذٰلِكَ ، وَطَلَبَتْ ، بَعْدَ سَبْعِ سَنَواتٍ ، أَنْ يُسَلَّمَ هَنِّيبالُ إِلَيْها . وَيَسُرُّنا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ شيبيُو لَمْ يُوافِقْ عَلَى ذٰلِكَ ، وَأَنَّ هَنِّيبالَ صانَ [٥] قَرْطاجَنَّةَ مِنْ عارِ تَسْليمِهِ ، بِأَنْ هَرَبَ مِنْ وَطَنِهِ . غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَسْتَريحَ بَعْدَ ذٰلِكَ .

وَقَدِ امْتَدَّتِ الإِمْبَراطورِيَّةُ الرّومانيَّةُ سَريعاً ، بَعْدَ انْتِصارِها عَلى قَرْطاجَنَّةَ . فَإِنَّها اسْتَوْلَتْ ، في الشَّرْقِ ، عَلى قِسْمٍ كَبيرٍ مِنِ إِمْبَراطورِيَّةِ الإِسْكَنْدَرِ الكَبيرِ . وَكانَ قَدْ مَضى ، عَلى مَوْتِ الإِسْكَنْدَرِ ، زُهاءَ [٦] مِئَةِ سَنَةٍ . فَعَمَدَتْ رومِيَةُ إِلى إِخْضاعِ

---

(١) قطر السفن : قرب بعضها الى بعض . (٢) لا يسعه أن يفعل هذا : لا يقدر عليه . (٣) الاذعان : الانقياد والخضوع . (٤) فزعت : خافت . (٥) صانها من العار : حفظها منه . (٦) الزهاء : المقدار .

بِلادِ اليونانِ ، غيرَ أنَّ اليونانيّينَ لَمْ يكونوا يُحِبّونَ الرّومانَ ، فَاسْتَنْجَدوا[١] عَلَيْهِمْ أَنْطِيوخُسَ ، مَلِكَ سوريَّةَ ، الَّذي اقْتَطَعَ لِنَفْسِهِ قِسْماً مِنِ امْبَراطوريَّةِ الإِسْكَنْدَرِ . وَلَمّا هاجَمَ الرّومانيّونَ المَلِكَ أَنْطيوخوسَ ، أَلْفَوْا[٢] هَنّيبالَ هُناكَ ، يُحارِبُ رومِيَةَ . وَقَدِ انْتَصَرَ الرّومانيّونَ . وَطَلَبوا أَن يُسَلِّمَ هَنّيبالُ إِلَيْهِمْ أَسيراً . فَهَرَبَ هَنّيبالُ إِلى جَزيرَةِ إِكْريتَ ، وَمِنْها إِلى قُطْرٍ في آسِيا ، يُدْعى بيتينِيا ، غيرَ أَنَّ انْتِقامَ رومِيَةَ تَأَثَّرَهُ[٣] إِلى هُناكَ . فَطُلِبَ مِنْ مَلِكِ بيتينِيا أَنْ يُسَلِّمَهُ . وَلَمّا أَوْشَكَ هَنّيبالُ أَنْ يُقْبَضَ عَلَيْهِ ، رَفَعَ إِلى شَفَتَيْهِ تِلْكَ اليَدَ اليُمْنى ، الَّتي مَسَّتِ الذَّبيحَةَ فيما مَضى ، وَامْتَصَّ خاتَماً مَسْموماً ، كانَ في إِصْبَعِهِ ، فَماتَ .

رُبَّما كانَ هَنّيبالُ هُوَ الرَّجُلَ الوَحيدَ ، الّذي رَوَّعَ[٤] رومِيَةَ ، في إِبّانِ[٥] مَجْدِها . فَقَدْ كانَ رَجُلاً عَظيماً ، وَعَدُوّاً خَطيراً ، وَجُنْدِيّاً باسِلاً ، وَسِياسِيّاً قَديراً . وَمِنْ سوءِ حَظِّهِ أَنَّ وَطَنَهُ لَمْ يَكُنْ أَهْلاً[٦] لَهُ .

---

(١) استنجده : استعان به . (٢) ألفوا : وجدوا . (٣) تأثره : تتبع أثره .
(٤) روع : أفزع . (٥) إبان المجد : حينه . (٦) هو أهل لكذا : يصلح له ويستحقه .

وَبَقِيَتْ قَرْطاجَنَّةُ بَعْدَهُ، وَأَخَذَتْ تَزْدَهِرُ[١] شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلى أَنْ غَدَتْ، بَعْدَ خَمْسِينَ سَنَةً، مُنافِسَةً[٢] لِرومِيَةَ مَرَّةً أُخرى.

وَكانَ في رومِيَةَ، وَقْتَئِذٍ، رَجُلٌ سِياسِيٌّ قَديرٌ، يُدْعى كاتو. وَكانَ كُلَّما تَكَلَّمَ في مَجْلِسِ الشُّيوخِ، يَخْتِمُ خِطابَهُ بِهٰذِهِ الكَلِماتِ: «يَنْبَغي أَنْ تُدَمَّرَ قَرْطاجَنَّةُ».

فَاسْتَمَعَتْ إِلَيْهِ رومِيَةُ أَخيراً، وَدَمَّرَتْ قَرْطاجَنَّةَ، سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعينَ وَمِئَةٍ، قَبْلَ المَسيحِ. وَكانَ، بِذٰلِكَ، أَنْ تَمَّتِ الغَلَبَةُ[٣] لِلْجِنْسِ الهِنْدِيِّ الأُورُبِّيِّ على السّامِيِّينَ.

---

(١) تزدهر: تضيء وهنا بمعنى ترتقي وتتقدم. (٢) نافسه في الأمر: فاخره وباراه فيه. (٣) الغلبة: القهر والانتصار.

يوليوس قيصر

بَعْدَ سُقوطِ قَرْطاجَنَّةَ، اُمْتَدَّتِ الإِمْبَراطوريَّةُ الرّومانيَّةُ اُمْتِداداً عَظيماً. فإِنَّها أَخْضَعَتْ بِلادَ اليونان، وَمُعْظَمَ الإِمْبَراطوريَّةِ الَّتي أَنْشَأَها الإِسْكَنْدَرُ. وَاُسْتَوْلَتْ، في الجَنوبِ، عَلَى السّاحِلِ الأَفْريقيِّ، بَيْنَ الصَّحْراءِ والبَحْرِ المُتَوَسِّطِ، واُسْتَوْلَتْ، في الغَرْبِ، عَلَى إِسْبانيا، وَمِنْ بَعْدِها، عَلَى بِلادِ الغالِ (وَهِيَ تُدْعى الآنَ فِرَنْسا). واُنْقَضَّ الرّومانِيّونَ أَخيراً عَلَى بريطانيا، في الشِّمالِ. فَغَدَتْ مَدينَةُ رومِيَةَ، بِنَتيجَةِ ذٰلِكَ، مِحْوَراً[1] لِلتّاريخِ العالَميِّ.

فَأَيُّ شَعْبٍ هٰؤُلاءِ الرّومانِيّونَ، الَّذينَ أَصابوا مِثْلَ هٰذا النَّجاحِ العَظيمِ؟ لا رَيْبَ أَنَّهُمْ كانوا قُساةً عَلَى أَعْدائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كانوا دائماً مِنَ الطَّمَعِ عَلَى جانِبٍ عَظيمٍ. وَلٰكِنَّهُمْ، مَعَ ذٰلِكَ، اُتَّصَفوا بِكَثيرٍ مِنَ الصِّفاتِ الحَميدَةِ. فَقَدْ كانوا أَهْلَ عَزْمٍ

---

(١) المحور: ما يدور عليه الشيء.

وَثَباتٍ ، يَصْبِرونَ عَلى الشَّدائِدِ ، وَلا تُرَوِّعُهُمُ الْهَزيمَةُ[١] ، مُخْلِصينَ لِمَدينَتِهِمْ ، وِلِاسْمِ رومِيَةَ . والرَّعايا الرّومانِيّونَ ، الَّذينَ أَنْشَأُوا الإِمْبَراطورِيَّةَ الْعَظيمَةَ ، لَمْ يَكونوا سُكّانَ رومِيَةَ وَحْدَهُمْ ، بَلْ كانَ في جُمْلَتِهِمْ ، مُنْذُ الْبَدْءِ ، أُولٰئِكَ الَّذينَ كانوا يَعْمَلونَ في الْمَزارِعِ . وَقَدْ أُثِرَ[٢] عَنْ أَحَدِ شُيوخِ الرّومانِيّينَ قَوْلُهُ :

„كانَ آباؤُنا ، إِذا أَرادوا أَنْ يَمْدَحوا رَجُلاً فاضِلاً ، يَمْدَحونَهُ بِأَنَّهُ مزارِعٌ مِنْ خيرَةِ الْمُزارِعينَ ، وَمالِكٌ مِنْ خيرَةِ الْمُلّاكِ . وَكانوا يَعْتَقِدونَ أَنَّ هٰذا الْمَدْحَ فَوْقَ كُلِّ مَدْحٍ وَإِطْراءٍ[٣]" .

وَيُؤْثَرُ عَنْ ذٰلِكَ الشَّيْخِ الرّومانِيِّ قَوْلُهُ أَيْضاً :

„إِنَّ الْمُزارِعينَ يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَشَدُّ الرِّجالِ وَأَشْجَعُ الْجُنودِ" .

وَمَنَحَتْ رومِيَةُ ، فيما بَعْدُ ، حُقوقَ الرَّعَوِيَّةِ الرّومانِيَّةِ لِلسُّكّانِ في غَيْرِ رومِيَةَ مِنَ الْمُدُنِ وَالأَمْصارِ ، حَتّى في الْبِلادِ الأَجْنَبِيَّةِ .

وَقَدْ أَدّى هٰـذا النَّجاحُ الْعَظيمُ إِلى انْقِلابٍ كَبيرٍ في حَيـاةِ

---

(١) روعته الهزيمة : أفزعه الانكسار . (٢) أثر : نقل . (٣) الأطراء : الثناء الحسن

الرّومانيّينَ. وَشَرٌّ ما في ذٰلِكَ، أَنَّ صِغارَ ٱلْمُزارِعينَ أَخَذوا يَبيدونَ، وَأَنَّ سُكّانَ رومِيَةَ ٱلأَغْنِياءِ أَخَذوا يَبْتاعونَ ٱلأَرْضَ، وَيَسْتَعْمِلونَ فيها ٱلعَبيدَ مِنْ أَسْرى ٱلحَرْبِ. وَأَمّا صِغارُ ٱلْمُزارِعينَ، فَكانوا يَذْهَبونَ لِلقِتالِ، أَوْ كانوا، إِذا عادوا مِنَ ٱلجَيْشِ، يَأْنَفونَ(١) مِنَ ٱلاعْمالِ في ٱلأَرْضِ. وَيُؤْثِرونَ(٢) الذَّهابَ إِلى رومِيَةَ، يَسْتَطْعِمونَ(٣) ٱلحُكومَةَ مَجّاناً(٤) وَيَلْهونَ بِمُشاهَدَةِ ٱلأَلْعابِ وٱلمُسابَقاتِ في ٱلمَقاوِسِ(٥) وٱلمَيادينِ، وَيَزيدونَ عَدَدَ الطَّبَقَةِ ٱلفَقيرَةِ هُناكَ.

وَلِذا، في نَحْوِ ٱلوَقْتِ ٱلَّذي دُمِّرَتْ فيهِ قَرْطاجَنَّةُ، كانَتْ رومِيَةُ أَمامَ مَشاكِلَ(٦) عَديدَةٍ، يَنْبَغي حَلُّها. فَفي الدّاخِلِ، اشْتَدَّتِ ٱلعَداوَةُ بَيْنَ ٱلأَغْنِياءِ وٱلفُقَراءِ؛ وفي ٱلخارِجِ، أَخْفَقَتْ(٧) رومِيَةُ في إِدارَةِ وِلاياتِها ٱلإِدارَةَ ٱلحازِمَةَ. وَفَوْقَ هٰذا كُلِّهِ، كانَتْ قَبائِلُ ٱلبَرابِرَةِ، في الشِّمالِ، تَرْقُبُ الفُرَصَ لِلْهُجومِ.

---

(١) أنف من العمل : ترفع عنه . (٢) يؤثرون : يفضلون . (٣) يستطعمون : يطلبون الطعام . (٤) مجاناً : بلا بدل أو عوض . (٥) مقاوس جمع مقوس (بكسر الميم) : الميدان على هيئة القوس . (٦) مشاكل جمع مشكلة : الأمر الصعب أو الملتبس . (٧) أخفق في عمله : خاب ولم يصب نجاحاً .

فَما كانَ عَساهُ أَنْ يَحْدُثَ ، وَسُلْطَةُ رومِيَةَ قَدْ بَدَتْ كَأَنَّها مُفَكَّكَةُ ٱلعُرى ؟

إِنَّ رومِيَةَ ، بَعْدَ مِئَةِ سَنَةٍ أَنْقَضَتْ في ثَوْراتٍ وَحُروبٍ أَهْلِيَّةٍ هائِلَةٍ ، (مِنْ سَنَةِ ثَلاثٍ وَثَلاثينَ وَمِئَةٍ إِلى سَنَةِ ثَلاثينَ ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ) ، أَمْكَنَها أَنْ تَجِدَ جَواباً عَنْ هٰذا السُّؤالِ . فَإِنَّها غَيَّرَتْ نِظامَ ٱلحُكْمِ ، وَأَسْتَبْدَلَتْ مَجْلِسَ الشُّيوخِ ، ٱلمُؤَلَّفَ مِنْ ثَلاثِ مِئَةِ رَجُلٍ ، بِٱلإِمْبَراطورِ . فَحَلَّتْ سُلْطَةُ ٱلفَرْدِ القَوِيَّةُ مَحَلَّ سُلْطَةِ ٱلجَماعَةِ الضَّعيفَةِ ، وَعادَتْ رومِيَةُ إِمْبَراطورِيَّةً ، بَعْدَ أَنْ كانَتْ جُمْهورِيَّةً .

وَلَمْ تَهْتَدِ رومِيَةُ إِلى هٰذا ٱلحَلِّ في يَوْمٍ واحِدٍ ، بَلْ كَلَّفَها مِنَ الثَّوْراتِ وَسَفْكِ الدِّماءِ ما دامَ قَرْناً كامِلاً . وَكانَ في ذٰلِكَ ٱلأَوانِ رِجالٌ مِنْ أَهْلِ ٱلعَظَمَةِ وَالشُّهْرَةِ ، في طَليعَتِهِمْ[١] أَخَوانِ يُدْعَوانِ طيبارِيوسَ غِراكوسَ وَغايوسَ غِراكوسَ . وَقَدْ بَذَلَ هٰذانِ الرَّجُلانِ ٱلوَسْعَ[٢] لِتَحْسينِ حالَةِ ٱلمُزارِعينَ ، والطَّبَقَةِ ٱلفَقيرَةِ مِنَ الشَّعْبِ ، إِلاّ أَنَّ أَعْضاءَ مَجْلِسِ الشُّيوخِ قَتَلوهُما ،

(١) الطليعة من الجيش : مقدمته . (٢) الوسع : القدرة .

بُغْضاً لَهُما . وَتَلاهُما زَعِيمٌ عَظِيمٌ آخَرُ ، يُدْعى مارِيوسَ . وكانَ رَجُلَ الشَّعْبِ وَحَرَثَ الأَرْضَ في صِباهُ . فَأَنْقَذَ رومِيَةَ مِنَ البَرابِرَةِ الجِرْمانِيِّينَ . إلاَّ أَنَّ مَجْلِسَ الشُّيوخِ كانَ يُبْغِضُهُ ، فاَخْتارَ رَجُلاً ، يُدْعى سُلاًّ ، زَعِيماً . وَلَمّا ماتَ هٰذانِ الرَّجُلانِ أَصْبَحَ بُمْبايُوسُ زَعِيمَ الشَّعْبِ الجَديدَ . وَكانَ هٰذا جُنْدِيّاً عَظِيماً ، فَأَحْرَزَ لِرومِيَةَ عِدَّةَ اَنْتِصاراتٍ ، واَسْتَوْلى على فِلِسْطِينَ (سَنَةَ ثَلاثٍ وَسِتِّينَ قَبْلَ المَسيحِ) .

في ذٰلِكَ الأَوانِ ، قامَ أَعْظَمُ رِجالِ تِلْكَ الحِقْبَةِ [١] ، إنْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمَ الرّومانِيِّينَ جَميعاً ، وَهُوَ يولِيوسُ قَيْصَرُ .

وَكانَ قَيْصَرُ كَريمَ الأَصْلِ ، وَعاشَ في بَيْتٍ جَميلٍ ، بُنِيَ حَوْلَ فِناءٍ ، قامَتْ في وَسَطِهِ بِرْكَةٌ ، يَتَدَفَّقُ الماءُ مِنْ وَسَطِها . وَلَمْ يَكُنْ بَيْتُهُ كَبُيوتِنا ، إذْ لَمْ يَكُنْ لِنَوافِذِهِ زُجاجٌ ، بَلْ كانَتْ أَبْوابُهُ تَظَلُّ مَفْتوحَةً في النَّهارِ ، حَتّى تَدْخُلَهُ حَرارَةُ الشَّمْسِ وَنورُها . وَكانَ لِقَيْصَرَ حَمّامانِ في بَيْتِهِ ، أَحَدُهُما لِلْماءِ الحارِّ ، والآخَرُ لِلْماءِ البارِدِ . وَلَمْ يَكُنْ ، إذا أَرادَ أَنْ يَتَناوَلَ الطَّعامَ ،

---

(١) الحقبة : المدة من الوقت .

يَجْلِسُ إِلى مائِدَةٍ ، عَلَى كُرْسِيٍّ ، بَلْ كانَ يَضْطَجِعُ[١] عَلَى فِراشٍ وَيَسْتَنِدُ إِلى أَحَدِ مِرْفَقَيْهِ[٢] ، وَيَقومُ أَحَدُ العَبيدِ في خِدْمَتِهِ .

وَكانَ قَيْصَرُ ، وَهُوَ لا يَزالُ صَغيرَ السِّنِّ ، يَخْتَلِفُ[٣] إِلى المَدْرَسَةِ في السّوقِ العامَّةِ ، وَكانَتْ هٰذِهِ السّوقُ تُدْعى الفورُمَ . وَكانَ ، مَتى فَرَغَ مِنَ الدَّرْسِ ، يُطَوِّفُ مَعَ أَصْدِقائِهِ وَيُشاهِدونَ ما في المَتاجِرِ . وَكانَ في الفورُمِ ، حَيْثُ اشْتِدادُ الحَرَكَةِ وازْدِحامُ الأَقْدامِ ، شَيْءٌ كَثيرٌ جَديرٌ[٤] بِالمُشاهَدَةِ . فَقَدْ كانَ السَّقّاؤونَ يَجْتازونَ أَحْيانًا ، حامِلينَ على ظُهورِهِمْ قِرَبًا مَمْلوءَةً ماءً . وأَحيانًا ، يَمُرُّ أَحَدُ الرّومانِيّينَ المُتْرَفينَ[٥] المُتَغَطْرِسينَ[٦] ، يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ العَبيدِ في كُرْسِيٍّ مُذَهَّبٍ . وَأَحْيانًا ، يَجْتازُ مَوْكِبٌ مِنَ الصِّبيانِ ، لابِسينَ ثِيابًا بيضًا ، مُكَلَّلينَ بِالأَزْهارِ ، وَيَدْخُلونَ الهَيْكَلَ لِيُصَلّوا .

وَكانَ قَيْصَرُ ، إِذا اتَّسَعَ لَدَيْهِ الوَقْتُ ، يَنْضَمُّ إِلى جَماعَةٍ مِنْ أَصْدِقائِهِ ، وَيَقْصِدونَ إِلى الحَمّاماتِ العامَّةِ . وَكانوا يَسْتَحِمّونَ

---

(١) اضطجع : وضع جنبه بالأرض . (٢) المرفق : الموصل بين الساعد والعضد .
(٣) اختلف الى المدرسة : جاءها المرة بعد الاخرى . (٤) جدير بالمشاهدة : اهل لها .
(٥) المترفين : المتنعمين . (٦) المتغطرسين : المتكبرين .

هُناكَ ، وَ بَعْدَ أَنْ تُنَشَّفَ أَجْسامُهُمْ ، يَدْلُكُها(١) ٱلعَبيدُ بِالزَّيْتِ . وَكانَ يَذْهَبُ أَحْيانًا بَعْدَ الظُّهْرِ إِلى ٱلمَلْعَبِ ٱلمُدَرَّجِ ، خارِجَ ٱلمَدينَةِ ، وَيُشاهِدُ سِباقَ ٱلمَرْكَباتِ ، وٱلمُبارَياتِ في الصِّراعِ وٱلمُلاكَمَةِ(٢) .

وَكانَ قَيْصَرُ يَبْتَهِجُ بِزِياراتِهِ لِلْمَلْعَبِ ٱلمُدَرَّجِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَجِدُ مَسَرَّةً عُظْمى في أَنْ يُشاهِدَ قائِداً مُنْتَصِراً ، عائِداً مِنَ ٱلحَرْبِ . وَيَشْتَدُّ بِهِ التَّأَثُّرُ لَدى مُرورِ ٱلمَوْكِبِ . وكانَ يَسيرُ في طَليعَةِ مِثْلِ هٰذا ٱلمَوْكِبِ أَعْضاءُ مَجْلِسِ ٱلشُّيوخِ ، حُكّامُ رومِيَةَ ؛ وَيَتْلوهُمُ النّافِخونَ في ٱلأَبْواقِ . وَتَأْتي بَعْدَ هٰؤُلاءِ عَجَلاتٌ مُحَمَّلَةٌ أَكْداساً(٣) مِنَ الذَّهَبِ وٱلفِضَّةِ ، وأَنْواعِ الطُّرَفِ(٤) ٱلجَميلَةِ ٱلفاخِرَةِ ، لِيَرى ٱلرّومانِيّونَ ما عادَ بِهِ ٱلجُنودُ مِنْ ساحاتِ ٱلحَرْبِ . وَيَتْلو ٱلعَجَلاتِ أَسْرى ٱلحَرْبِ ، ساهِمي(٤) ٱلوُجوهِ ، وَمُعْظَمُهُمْ زُعَماءُ أَقْوامٍ ، حارَبوا وَغُلِبوا .

وَلَمْ يَكُنْ نَظَرُ يوليوسَ قَيْصَرَ يَسْتَقِرُّ عَلَى هٰؤُلاءِ ، بَلْ

---

(١) يدلكها : يفركها ويدعكها . (٢) الملاكمة : المضاربة بالأيدي مجموعة الاصابع .
(٣) الأكداس جمع كدس (بضم الكاف) : الكثير المتراكب من الشيء . (٤) طرف جمع طرفة (بضم الطاء) الجديد المستحسن .

يَعْدوهُمْ (١) إلى مَنْ يَأْتي بَعْدَهُمْ. وَكانَ يَهْتِفُ وَيُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ، لَدى ظُهورِ زُمْرَةٍ (٢) مِنَ الأَوْلادِ، يَرْقُصونَ، وَيُغَنّونَ، وَيَضْرِبونَ بِالصُّنوجِ (٣)، أَمامَ مَرْكَبَةٍ قِرْمِزِيَّةٍ، يَجُرُّها أَرْبَعَةٌ مِنَ الجِيادِ الشُّهْبِ (٤). وَيَنْبَعِثُ مِنَ الجُمْهورِ هُتافٌ، يَشُقُّ عَنانَ (٥) السَّماءِ، دالاً أَنَّ القَوْمَ عَرَفوا مَنْ في المَرْكَبَةِ. ذٰلِكَ هُوَ القائِدُ الظّافِرُ، مُرْتَدِياً بِالأُرْجُوانِ والذَّهَبِ، مُكَلَّلاً بِالغارِ، وَوَراءَهُ عَبْدٌ، يَحْمِلُ إِكْليلاً مِنَ الذَّهَبِ، فَوْقَ رَأْسِهِ.

وَكانَ النّاسُ يَموجونَ وَيَهْتِفونَ، إلى أَنْ تَبَحَّ أَصْواتُهُمْ. وَيَشْهَدُ يوليوسُ قَيْصَرُ ذٰلِكَ كُلَّهُ، وَهُوَ يُفَكِّرُ في نَفْسِهِ:

„سَيَأْتي يَوْمٌ، أَكونُ فيهِ، أَنا أَيْضاً، قائِداً ظافِراً، وَأَرْكَبُ بِمِثْلِ هٰذا الاحْتِفالِ في الشَّوارِعِ".

وَكانَ قَيْصَرُ، عَلى كَرَمِ أَصْلِهِ، صَديقاً لِلْفُقَراءِ، وَلِذا اضْطُرَّ أَنْ يُغادِرَ رومِيَةَ خَوْفاً مِنْ مَجْلِسِ الشُّيوخِ، لِئَلاَّ يَفْتُكَ بِهِ (٦)

---

(١) يعدوهم: يجاوزهم. (٢) الزمرة: الجماعة. (٣) الصنوج جمع صنج (بفتح الصاد): صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب. (٤) شهب: جمع أشهب ما كان لونه أبيض يتخلله سواد. (٥) عنان السماء: ما ارتفع منها وما بدا لك منها اذا نظرتها. (٦) فتك به: قتله على غفلة.

كما فتكَ بأصدقاءِ الشَّعْبِ مِنْ قَبْلِهِ ، فرَحلَ إلى الشَّرْقِ ، وَحارَبَ مَعَ الجَيْشِ الرّومانيِّ ، حَتَّى يُصْبِحَ جُنْدِيًّا باسِلاً [١] ، وَقائِداً حَكيمًا . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَحَبَّهُ الجُنودُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَخْشى القِتالَ ، وَلِأَنَّهُ كانَ عادِلاً جَديراً بالاحْتِرامِ .

وَكانَتْ لِقَيْصَرَ مُجازَفاتٌ [٢] كَثيرَةٌ ، عَدا مُجازَفاتِهِ في الحَرْبِ ، وَقَدِ اتَّفَقَ لَهُ ذاتَ يَوْمٍ ، وَهُوَ مُبْحِرٌ [٣] إلى جَزيرَةٍ ، أَنْ خَرَجَ عَلَيْهِ لُصوصُ البَحْرِ وَأَسَروهُ ، وَقالوا :

— سَنَحْمِلُكَ إلى مَغاوِرِنا ، وَلَنْ تَعودَ إلى رومِيَةَ ، حَتَّى يَأْتِيَنا عَبيدُكَ بِعِشْرينَ مِنَ الفِضَّةِ .

فَضَحِكَ قَيْصَرُ وَقالَ :

— أَهٰذا كُلُّ الثَّمَنِ الَّذي تُقَدِّرونَهُ [٤] لي ؟ إنّي أُعْطيكُمْ خَمْسينَ مِنَ الفِضَّةِ . وَلٰكِنْ عِنْدَما أُصْبِحُ حُرًّا ، سَأَعودُ إلَيْكُمْ وَآسِرُكُمْ كَما أَسَرْتُموني .

وَأَرْسَلَ رِجالَهُ لِيَأْتوا بالمالِ .

---

(١) الباسل : الشجاع . (٢) المجازفة بالنفس : المخاطرة بها . (٣) أبحر : ركب البحر . (٤) تقدرونه : تحكمون به وتجعلونه على مقدار .

وَعاشَ قَيْصَرُ ثَمانِيَةً وَثَلاثِينَ يَوْماً مَعَ اللُّصوصِ. وَكانَ أَحْيانًا، يُلاعِبُهُمْ وَيُحاضِرُهُمْ[١]. وَأَحْيانًا، يَحْمِلُهُمْ عَلَى الإِصْغاءِ إِلى ما نَظَمَهُ مِنَ القَصائِدِ، وَأَعَدَّهُ مِنَ الخُطَبِ. وَكانَ، إِذا أَرادَ أَنْ يَنامَ، وَأَجْلَبَ[٢] اللُّصوصُ، يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ مَنْ يَقولُ إِنَّهُ تَعِبٌ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْكُنوا[٣] لِكَيْ يَسْتَريحَ. وَكانَ اللُّصوصُ يَعْجَبونَ لِأَمْرِ هٰذا الأَسيرِ الغَريبِ الأَطْوارِ[٤]، الَّذي لَمْ يَكُنْ يَبْدو عَلَيْهِ الخَوْفُ مِنْهُمْ، وَقَدْ حَزِنوا لَمّا دُفِعَ المالُ وَرَحَلَ قَيْصَرُ عَنْهُمْ. غَيْرَ أَنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ آخِرَ عَهْدِهِمْ[٥] بِهِ، فَقَدْ آذَنَهُمْ[٦] قَيْصَرُ أَنَّهُ يَعودُ إِلَيْهِمْ وَيَأْسِرُهُمْ، وَلَمْ يَلْبَثوا حَتّى أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ سُفُنُهُ، فَوَقَعوا أَسْرى في قَبْضَتِهِ.

وَلَمّا عادَ قَيْصَرُ إِلى رومِيَةَ، صادَقَ كَثيرينَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الفَقيرَةِ، وَأَصْغى إِلى شَكْواهُمْ، وَبَذَلَ الجُهْدَ في سَبيلِ مُساعَدَتِهِمْ. فَأَحَبَّهُ الشَّعْبُ كَثيراً، وَأَخَذوا يَقولونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

---

(١) يحاضرهم: يسابقهم في الركض. (٢) أجلب القوم: ضجوا واختلطت أصواتهم (٣) يسكنوا: يقروا وينقطعوا عن الحركة. (٤) الأطوار جمع طور (بفتح الطاء وسكون الراء): الحالة. (٥) العهد: المعرفة. (٦) آذنهم: أعلمهم.

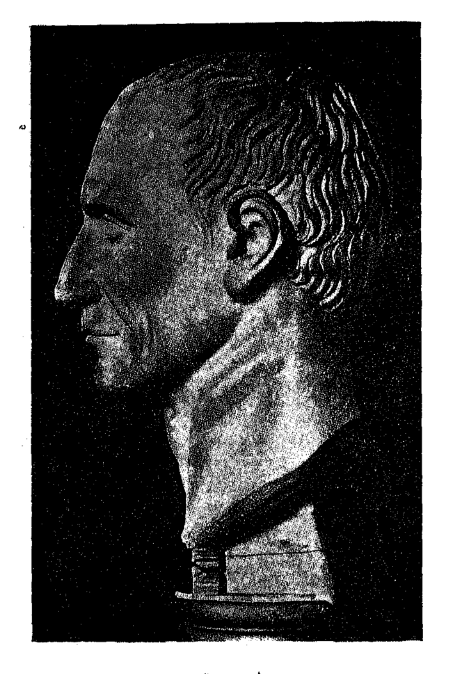
— إِنَّ هٰذا الرَّجُلَ مَعَنا ، وَهُوَ كَرِيمٌ شُجاعٌ . وَسَيُساعِدُنا يَوْماً عَلَى نَيْلِ حُقوقِنا .

وَأُرْسِلَ قَيْصَرُ إِلى إِسْبانِيَا ، في مُهِمَّةٍ عُمومِيَّةٍ ، فَرَأَى هُناكَ تِمْثالاً نِصْفِيّاً لِلإِسْكَنْدَرِ الكَبيرِ ، فَحَزِنَ جِدًّا لأَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ إِلاَّ القَليلَ ، في مِثْلِ العُمْرِ ، الَّذي دَوَّخَ [١] فيهِ المَكْدونِيُّ العالَمَ . وَلَمَّا عادَ إِلى رومِيَةَ اتَّصَلَ بِبُمْبِيُوسَ ، وَكانَ هٰذا الرَّجُلُ يَوْمَئِذٍ أَعْظَمَ رَجُلٍ في الجُمْهورِيَّةِ .

وَرَحَلَ إِلى إِسْبانِيا مَرَّةً أُخْرى ، (سَنَةَ إِحْدى وَسِتّينَ ، قَبْلَ المَسيحِ) ، وَنَجَحَ نَجاحاً باهِراً في إِعادَةِ الأَمْنِ إِلى نِصابِهِ [٢] . وَرَجَعَ بَعْدَ سَنَةٍ ، فَانْتُخِبَ قُنْصُلاً . وَمَعْنى ذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ نيطَ [٣] بِهِ أَنْ يُساعِدَ أَعْضاءَ مَجْلِسِ الشُّيوخِ ، عَلَى سَنِّ الشَّرائِعِ [٤] . فَابْتَهَجَ أَصْدِقاءُ قَيْصَرَ ، وَاسْتاءَ النُّبَلاءُ وَأَعْضاءُ مَجْلِسِ الشُّيوخِ اسْتِياءً عَظيمًا . فَإِنَّهُمْ كانوا يَخْشَوْنَ قَيْصَرَ ، لِأَنَّهُ كانَ عادِلاً طَمّاحاً [٥] .

---

(١) دوخ البلاد : قهرها واستولى عليها . (٢) النصاب : الأصل . (٣) نيط به الشيء : وصل وربط (على المجهول) . (٤) سن الشرائع : وضعها . (٥) الطماح : الشره والبعيد النظر .



يوليوس قيصر

نَعَمْ إِنَّ قَيْصَرَ كانَ طَمّاحاً ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ إِذا شاءَ أَنْ يَكونَ زَعيمًا عَظيمًا، يَنْبَغي أَنْ يَكونَ لَهُ اسْمُ فاتِحٍ عَظيمٍ. وَكانَ بُمْبِيُوسُ قَدْ دَوَّخَ الشَّرْقَ، وَلٰكِنَّ الغَرْبَ كانَ لا يَزالُ حُرًّا. فَرَحَلَ قَيْصَرُ إِلى فِرَنْسا، وَكانَتْ تُدْعى، وَقْتَئِذٍ بِلادَ الغالِ، لِيَغْنَمَ اسْماً عَظيمًا. وَقَدْ هَتَفَ لَهُ الشَّعْبُ، لَمّا رَحَلَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ عَظيمٍ ، غَيْرَ أَنَّ كَثيرينَ ، مِنَ النُّبَلاءِ وَأَعْضاءِ مَجْلِسِ الشُّيوخِ ، أَمَّلوا أَلاّ يَعودَ مِنْ رِحْلَتِهِ. وَقَدْ طالَ غِيابُهُ عَنْ رومِيَةَ ثَمانِيَ سِنينَ.

وَغادَرَ قَيْصَرُ المَدينَةَ إِلى بِلادِ الغالِ، الَّتي تُكَوِّنُ فِرَنْسا وَسُوِيسَرا اليَوْمَ جُزْءًا مِنْها. وَكانَتْ يَوْمَئِذٍ تَعيشُ فيها قَبائِلُ مُخْتَلِفَةٌ. وَقَدْ صَمَّمَ قَيْصَرُ أَنْ يُخْضِعَها كُلَّها. وَكانَ جَيْشُهُ يُحِبُّهُ وَيَتْبَعُهُ إِلى حَيْثُ أَرادَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ[1]، مِنْ جُنودِهِ، أَنْ يَفْعَلوا ما لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ هُوَ نَفْسُهُ. فَقَدْ كانَ صَديقَهُمْ كَما كانَ قائِدَهُمْ.

وَاسْتَبْسَلَ[2] الغالِيّونَ في سَبيلِ الدِّفاعِ عَنْ حُرِّيَّتِهِمْ ،

(١) توقع الأمر : انتظر حصوله . (٢) استبسل القوم : استقتلوا .

وَلٰكِنْ عَلَى غَيْرِ جَدْوى(١) . فَإِنَّ قَيْصَرَ كانَ يُحْرِزُ(٢) النَّصْرَ بَعْدَ النَّصْرِ ، وَعِنْدَ نِهايَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ ، قَبْلَ ٱلْمَسِيحِ ، فَقَدَتِ ٱلْبِلادُ كُلَّ أَمَلٍ ، وَأَصْبَحَتْ بِلادُ ٱلْغالِ وِلايَةً رومانِيَّةً . وَقَدْ كَتَبَ قَيْصَرُ ، هُوَ نَفْسُهُ ، تارِيخَ هٰذِهِ ٱلْحُروبِ ٱلْغالِيَّةِ ، في أُسْلوبٍ(٣) شائِقٍ(٤) سَهْلِ ٱلْمَأْخَذِ(٥) . وَعَبَرَ ٱلْبَحْرَ إِلى بِرِيطانيا مَرَّتَيْنِ ، ولٰكِنَّهُ لَمْ يُخْضِعْ سِوى قِسْمٍ مِنْ هٰذا ٱلْقُطْرِ ، الَّذي ٱسْتَوْلى عَلَيْهِ الرّومانِيّونَ ، فيما بَعْدُ .

غَيْرَ أَنَّ رومِيَةَ ، الَّتي كانَ في وَسْعِها أَنْ تُخْضِعَ أُمَماً بِأَسْرِها ، عَجَزَتْ عَنْ إِدارَةِ شُؤُونِها نَفْسِها . وَكانَ بُمْبِيُوسُ قَدِ ٱنْضَمَّ إِلى مَجْلِسِ الشُّيوخِ ، وَباتوا عَلَى وَجَلٍ(٦) مِنْ عَوْدَةِ قَيْصَرَ . إِلاَّ أَنَّ قَيْصَرَ عَوَّلَ(٧) عَلَى الرُّجوعِ ، وَلَمْ يُسَرِّحْ(٨) جَيْشَهُ ، كَما أُمِرَ أَنْ يَفْعَلَ . وَعَبَرَ نَهْرَ الرّوبيكونِ ، الَّذي يَفْصِلُ بَيْنَ إِيطاليا وَغاليا ، وَالَّذي كانَ الحَدَّ الَّذي تَنْتَهي عِنْدَهُ سَيْطَرَتُهُ(٩) ،

---

(١) الجدوى : النفع . (١) أحرز النصر : اصابه . (٣) الاسلوب : الفن من القول او العمل . (٤) شائق : جذاب . (٥) المأخذ : المنهج والمسلك . (٦) الوجل : الخوف . (٧) عول على الأمر : اعتمد عليه . (٨) سرح الجيش : أطلقه . (٩) السيطرة : التسلط .

وتقدّمَ بجيْشِهِ ، كأنَّهُ زاحِفٌ[١] في أرْضٍ لِلأعْداءِ ، وقالَ ، وهُوَ يعْبُرُ النهْرَ :

— قُضيَ الأمْرُ[٢] .

وقَدْ عنى بهٰذا أنَّهُ غدا مُضْطرّاً أنْ يُحارِبَ رومِيَةَ نفْسَها.

ودَخلَ المَدينةَ دُخولَ المُتَمَرِّدِ ، فلَمْ تلبَثِ المدينةُ أنِ انْضَمَّتْ إليْهِ . ثُمَّ تعقَّبَ قوّادَ بُمبيُوسَ في إسْبانِيا ، وتَغلَّبَ علَيْهِمْ جَميعاً . وفي سَنَةِ ثَمانِي وأرْبعينَ ، قبْلَ المَسيحِ ، تغلَّبَ عَلَى بُمْبيُوسَ نفْسِهِ ، في بِلادِ اليونانِ ، وغَدا سَيِّدَ الإمْبَراطورِيَّةِ وأصْبحَ دِكْتاتوراً . ومَعْنى ذٰلكَ أنَّهُ صارَ مُتَحَكِّماً[٣]، يحِقُّ لَهُ وَحْدَهُ أن يَسُنَّ الشَّرائِعَ ، ويَنْتَخِبَ الأعْضاءَ لِمَجْلِسِ الشُّيوخِ . وكانَ الشَّعبُ يَحْتَرِمُهُ ، ويَهتِفُ لَهُ كُلَّما رآهُ ، ويَنْثُرُ[٤] الزُّهورَ عِنْدَ قَدَمَيْهِ .

وبَذَلَ قَيْصَرُ الوُسْعَ لِيَكونَ أهْلاً لِهٰذا الإكْرامِ . فَسَنَّ كَثيراً مِنَ الشَّرائِعِ الحَكيمَةِ ، وساعَدَ الفُقَراءَ ، ووَضَعَ الخُطَطَ

---

(١) زحف الجيش : مشى في ثقل لكثرته . (٢) قضي الأمر : حكم به الله .
(٣) المتحكم : الذي يحكم في الأمر ويفصل برأي نفسه من غير ان يبرز وجهاً للحكم . (٤) ينثر الزهور : يرميها متفرقة .

لِتَجْميلِ ٱلْمَدينَةِ وَإِنْشاءِ الطُّرُقِ . وَكانَ في كُلِّ سَنَةٍ يُقيمُ لِلشَّعْبِ عيداً عَظيماً ، يَومَ ذِكْرى مَولِدِهِ . وَلا نَزالُ إِلى يَومِنا هٰذا نُسَمّي الشَّهْرَ ، الَّذي وُلِدَ فيهِ ، يُوليُو نِسْبَةً إِلى اسْمِهِ ، يوليوسَ .

كانَ قَيْصَرُ أَعْظَمَ رَجُلٍ في رومِيَةَ ، وَلٰكِنْ كانَ لا يَزالُ لَهُ أَعْداءٌ . فَإِنَّ النُّبَلاءَ وَأَشْياعَهُمْ[1] كانوا يَحْسِدونَهُ ، وَيَقولونَ :

— دونَكُمْ[2] هٰذا الرَّجُلَ ؛ إِنَّهُ يَلْبَسُ ثَوْباً مِنَ الأُرْجُوانِ ، وَيَجْلِسُ عَلى كُرْسِيٍّ ذَهَبِيٍّ ، وَهُوَ يُريدُ أَنْ يَكونَ مَلِكاً . وَقَدْ كُنّا ، نَحْنُ الرّومانِيّينَ ، أَحراراً ، عَلى مَدى ٱلْأَجْيالِ ، وَلا نُريدُ مَلِكاً عَلَيْنا .

وَهَمّوا[3] بِقَتْلِ قَيْصَرَ لَدى ذَهابِهِ إِلى مَجْلِسِ الشُّيوخِ .

وَاتَّفَقَ ذاتَ يَوْمٍ ، وَقَيْصَرُ يَسيرُ في الشّارِعِ ، أَن أَمْسَكَ رَجُلٌ شَيْخٌ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ ، وَقالَ :

— إِحْذَرْ يا قَيْصَرُ ٱلْيَوْمَ ٱلْخامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ آذارَ .

---

(١) الاشياع جمع شيعة : الاتباع والانصار . (٢) دونكم : خذوا وانظروا .
(٣) هموا بقتله . عزموا عليه .

وَكانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱليَوْمَ، ٱلَّذي كانَ مُزْمِعاً[١] أَنْ يَعْقِدَ فيهِ ٱجْتِماعاً خَطيراً[٢] في مَجْلِسِ الشُّيوخِ. فَضَحِكَ قَيْصَرُ وَلَمْ يَأْبَهْ[٣] لِتَحْذيرِ الشَّيْخِ.

وَلَمّا جاءَ ٱليَوْمُ ٱلمَذْكورُ، غادَرَ قَيْصَرُ مَنْزِلَهُ. وَفيما هُوَ خارِجٌ إِلى الشّارِعِ سَقَطَ تِمْثالُهُ نَفْسُهُ، وَكانَ قائِماً بِجانِبِ ٱلبابِ، فَتَحَطَّمَ. فَٱرْتَعَدَ[٤] قَيْصَرُ، وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ سائِراً في طَريقِهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلى ٱلوَراءِ. وَبَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ صادَفَ ٱلرَّجُلَ الشَّيْخَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَ ٱلحَزينِ ٱلمُكْتَئِبِ. فَٱبْتَسَمَ قَيْصَرُ، وَوَقَفَ عَنِ ٱلمَسيرِ، وَقالَ:

— ها قَدْ أَقْبَلَ ٱليَومُ الخامِسَ عَشَرَ مِنْ آذارَ.

فَأَجابَ الشَّيْخُ قائِلاً:

— نَعَمْ، يا قَيْصَرُ، إِنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَنْقَضِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَنْقَضِيَ ٱليَومُ ٱلخامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ آذارَ، سَقَطَ قَيْصَرُ في مَجْلِسِ الشُّيوخِ مَيْتاً، فَإِنَّ أَعْداءَهُ قَتَلوهُ هُنالِكَ.

---

(١) ازمع الامر: اظهر فيه عزماً. (٢) الخطير: الرفيع القدر. (٣) لم يأبه للأمر لم يلتفت اليه. (٤) ارتعد: اضطرب واهتز.

مرقس أوريليوس أنطونينوس

كانَ يوليوسُ قيصرُ مِنْ عُظَماءِ الرّومانيّينَ وَحُكَمائِهِمْ، وَكانَ مَقْتَلُهُ خَطأً فَظيعاً. وَلَوْ فُسِحَ في أَجَلِهِ[1] لَصَنَعَ. وَلا رَيْبَ، العَظائِمَ لِلْعالَمِ الرّومانيِّ. غَيْرَ أَنَّهُ كانَ في رومِيَةَ قَوْمٌ مِنْ أَمْثالِ بروتوسَ. ظَنّوا أَنَّ قَيْصَرَ كانَ عَظيمَ الطُّموحِ، فَقَتَلوهُ. إِلاّ أَنَّ أُكْتافيوسَ، ابْنَ بِنْتِ أُخْتِ قَيْصَرَ، تَغَلَّبَ عَلَيْهِمْ جَميعاً، وَغَدا في بِضْعِ سَنَواتٍ سَيِّدَ الإِمْبَراطورِيَّةِ الرّومانِيَّةِ بِلا مُنازِعٍ[2]، وَتَسَلَّطَ عَلَيْها أَرْبَعاً وَأَرْبَعينَ سَنَةً، سادَ في أَثْنائِها السَّلامُ في العالَمِ.

وَهٰذِهِ الإِمْبَراطورِيَّةُ الَّتي تَسَلَّطَ عَلَيْها أُكْتافيوسُ، أَو أُغُسْطُسُ، كَما دُعِيَ لَمّا آلَتْ إِلَيْهِ السُّلْطَةُ، كانَتْ حُدودُها الصَّحْراءَ جَنوباً، وَالمُحيطَ الأَطْلَسِيَّ غَرْباً، وَنَهْرَ الفُراتِ شَرْقاً، وَنَهْرَيِ الدّانوبِ والرّينِ شِمالاً. وَأَخَذَ أُغُسْطُسُ عَلَى نَفْسِهِ تَحْصينَ

(١) فسح في أجله: مد في عمره ولم يعاجله الموت. (٢) المنازع: المخاصم.

ٱلحُدودِ، وَإِدارَةَ ٱلولاياتِ إِدارَةً حازِمَةً[١]. وَقَدْ زانَ[٢] رومِيَةَ بِٱلأَبْنِيَةِ ٱلعَظيمَةِ، وَكانَ يُباهي[٣] أَنَّهُ وَجَدَ رومِيَةَ مَدينَةً مِنَ الآجُرِّ[٤]، فَغادَرَها مَدينَةً مِنَ الرُّخامِ.

وَٱلأَباطِرَةُ ٱلَّذينَ تَلَوْا أَغُسْطُسَ هُمْ: طِيبارِيُوسُ، وَكاليكولا وَكِلودِيُوسُ، وَنَيرونُ وَكُلُّهُمْ مِنْ سُلالَةِ[٥] يوليوسَ. وَدُعِيَ عَهْدُهُمْ قَرْنَ السِّلْمِ الأَوَّلَ. ثُمَّ كانَ عَهْدُ[٦] السُّلالَةِ ٱلفِلافِيَّةِ، ٱلمُؤَلَّفَةِ مِنْ فِسْباسِيانُوسَ، وَتِيطُسَ، ودُمِسْيانوسَ، مِنْ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتّينَ إِلى سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعينَ، بَعْدَ ٱلمَسيحِ. وَتَلاهُمْ خَمْسَةٌ مِنْ خِيرَةِ ٱلأَباطِرَةِ، وَهُمْ: نِرفا، وَتراجانُوسُ، وَهَدْرِيانوسُ، وَأَنطونِيوسُ بِيُوسُ، وَمَرْقُسُ أَوْرِلْيوسُ أَنطونينوسُ. وَقَدْ دُعِيَ هٰذا ٱلعَهْدُ قَرْنَ السِّلْمِ الثاني.

وَهٰذِهِ السِّلْسِلَةُ الثانِيَةُ مِنَ ٱلأَباطِرَةِ رَفَعَتِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةَ إِلى ذُرْوَةِ[٧] ٱلفَلاحِ والسَّعادَةِ. وَكانَ مِنْ أَعْظَمِ واجِباتِ هٰؤُلاءِ ٱلأَباطِرَةِ تَعْزيزُ[٨] الدِّفاعِ عَنْ حُدودِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ.

---

(١) الحازم: الذي يضبط أمره ويأخذ فيه بالثقة. (٢) زان: حسن وزخرف.
(٣) يباهي: يفاخر. (٤) الآجر: ما يبنى به من الطين المشوي. (٥) السلالة: النسل.
(٦) كان ذلك على عهده: أي في زمانه. (٧) الذروة: أعلى الشيء. (٨) تعزيز: تقوية.

وَكانَتِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةُ تَحْميها الصَّحْراءُ جَنوباً، وَٱلْمُحيطُ ٱلأَطْلَسِيُّ غَرْباً. غَيْرَ أَنَّها، شِمالاً وَشَرْقاً، كانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْهُجومِ. وَكانَتِ ٱلقَبائِلُ ٱلْجِرْمانِيَّةُ ٱلْمُضْطَرِبَةُ لا تَنْفَكُّ تُهَدِّدُ ٱلْحُدودَ الشَّمالِيَّةَ. وَفي الواقِعِ أَنَّ ٱلْمَدَنِيَّةَ الرّومانِيَّةَ ٱلعَظيمَةَ، حَوْلَ ٱلبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ، كانَتْ في خَطَرٍ دائِمٍ مِنْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْها أَهْلُ الشَّمالِ. وَكانَتْ أَعْظَمُ مُشْكِلَةٍ لِلْبَشَرِيَّةِ ٱلْمُقْبِلَةِ في هَلْ يَسْتَطيعُ ٱلأَباطِرَةُ الرّومانِيّونَ أَنْ يَصُدّوا[1] البَرابِرَةَ، رَيْثَما يُصيبُ هٰؤُلاءِ الشَّمالِيّونَ ٱلْجُفاةُ[2]، مَعَ الزَّمَنِ، قِسْطاً[3] مِنَ ٱلْمَدَنِيَّةِ، يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَنْ يَحْتَرِموها، أَوْ، عَلَى الأَقَلِّ، أَنْ يَسْتَبْقوا شَيْئاً مِنْها لِلْبَشَرِيَّةِ في ٱلْمُسْتَقْبَلِ.

وَقَدِ ٱنْتَهى قَرْنا السِّلْمِ في عَهْدِ ٱلإِمْبَراطورِ مَرْقُسَ أَوْرِلْيوسَ (ٱلَّذي تَسَلَّطَ مِنْ سَنَةِ إِحْدى وَسِتّينَ وَمِئَةٍ إِلى سَنَةِ إِحْدى وَثَمانينَ وَمِئَةٍ، بَعْدَ ٱلْمَسيحِ). وَكانَ عُمْرُ أَوْرِلْيوسَ ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ فَقَطْ، لَمّا تُوُفِّيَ أَبوهُ، فَكَفَلَهُ[4] جَدُّهُ. وَكانَ هَدْرِيانوسُ

---

(١) يصدوا : يدفعوا . (٢) الجفاة جمع الجافي : الغليظ الخشن . (٣) القسط : الحصة والنصيب . (٤) كفله : عاله وانفق عليه وقام بأمره.

وَقْتَئِذٍ إِمْبَراطوراً ، وَاُخْتارَ خَلَفاً لَهُ أَنْطونيُوسَ بِيُوسَ ، خالَ مَرْقُسَ ، مُشْتَرِطاً عَلَيْهِ أَنْ يَتَبَنَّى[١] مَرْقُسَ أَوْرِلْيُوسَ ، وَيَخْتارَهُ لَهُ خَليفَةً . فَكانَ أَنْطونيُوسُ بِيُوسُ أَفْضَلَ مُرَبٍّ لِأَوْرِلْيُوسَ . وَقَدْ قالَ أَوْرِلْيُوسُ نَفْسُهُ :

„إِنَّ اُلآلِهَةَ جادَتْ عَلَيَّ بِأَنْ جَعَلَتْ لي أَجْداداً فُضَلاءَ ، وَوالِدَيْنِ فاضِلَيْنِ ، وَأُخْتاً فاضِلَةً ، وَمُعَلِّمِينَ فُضَلاءَ ، وَشُرَكاءَ فُضَلاءَ ، وَأَقارِبَ وأَصْدِقاءَ فُضَلاءَ . وَيَكادُ كُلُّ شَيْءٍ ، جَعَلَتْهُ لي ، يَكونُ خَيْراً ” .

وَلَمْ يَتَلَقَّ[٢] أَوْرِلْيوسُ اُلعِلْمَ في اُلمَدْرَسَةِ ، بَلْ أَخَذَهُ عَنْ مُعَلِّمِينَ ، أُقيموا خاصَّةً عَلَى تَخْرِيجِهِ[٣] في عُلومِ اُلبَيانِ والشِّعْرِ اُلعادِيَّةِ . وَلٰكِنَّهُ ، اُتَّصَلَ في اُلحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، بِدِيُوغِناتوسَ اُلمُصَوِّرِ واُلفَيْلَسُوفِ الزِّينونِيِّ ، فَبَهَرَتْهُ[٤] اُلفَلْسَفَةُ الَّتي كانَ يُعَلِّمُها ، فَغادَرَ اُلبَيانَ[٥] وَالشِّعْرَ إِلى اُلفَلْسَفَةِ . وَأَرْسَلَ أَنْطونِيوسُ بِيُوسُ يَسْتَدْعي أَبُولُونِيُوسَ ، اُلفَيْلَسوفَ الزِّينونِيَّ

---

(١) تبناه : اتخذه ابناً . (٢) تلقى العلم : تلقنه واخذه . (٣) التخريج : التدريب والتعليم . (٤) بهره : غلبه وأثر فيه جداً . (٥) علم البيان : علم الفصاحة والبلاغة .

الشَّهيرَ . لِيُؤَدِّبَ أُورِلْيوسَ الَّذي كانَ قَدْ زَوَّجَهُ بِنْتَهُ فَوسْتينا .
فَلَمّا وَصَلَ أَبولّونيوسُ إِلى رومِيَةَ ، كَتَبَ إِلَيْهِ الإِمْبَراطورُ
يَسْتَقْدِمُهُ (١) إِلى قَصْرِهِ . فَأَجابَ أَبولّونيوسُ :

„ إِنّي أَعْجَبُ مِنْ أَنْ تَسْأَلَني الذَّهابَ إِلى قَصْرِكَ ، مَعَ أَنَّهُ
مِنْ وَاجِبِ التِّلْميذِ أَنْ يَقْصِدَ المُعَلِّمَ ، وَلَيْسَ مِنْ وَاجِبِ المُعَلِّمِ
أَنْ يَقْصِدَ التِّلْميذَ " .

فَلَمّا قَرَأَ الإِمْبَراطورُ هٰذا تَبَسَّمَ ، وَكَتَبَ إِلى الفَيْلَسوفِ قائِلاً :
„ إِنّي أَعْجَبُ ، يا أَبولّونيوسُ ، مِنْ أَنَّكَ لَمْ تَجِدْ صُعوبَةً ، في
المَجيءِ مِنْ بِلادِ اليونانِ إِلى رومِيَةَ . ثُمَّ تَجِدُ مَشَقَّةً في المَسيرِ
مِنْ أَحَدِ جَوانِبِ رومِيَةَ إِلى جانِبٍ آخَرَ . وَعَلى كُلٍّ فَإِنّي مُرْسِلٌ
إِلَيْكَ ، في الحالِ ، أُورِلْيوسَ ، مُتَبَنّايَ (٢) ، لِكَيْ تُؤَدِّبَهُ " .

وَأَظُنُّكُمْ تُوافِقوني أَنَّ هٰذا يَدُلُّ عَلى أَنَّ أَنطونيُوسَ بِيّوسَ
كانَ مِنْ مُحِبّي العِلْمِ ، وَأَنَّ أُورِلْيوسَ الشّابَّ قَدْ وَجَدَ بِهِ خَيْرَ
قُدْوَةٍ (٣) .

---

(١) يستقدمه : يطلب قدومه . (٢) متبناي : الولد الذي اتخذته ابناً . (٣) القدوة : الأسوة وما اقتديت به .

وَٱنْصَرَفَ أُورِلْيوسُ بِكُلِّيَّتِهِ إِلى دَرْسِ ٱلفَلْسَفَةِ الزِّينونِيَّةِ.
وَلَيْسَتْ هٰذِهِ ٱلفَلْسَفَةُ كَغَيْرِها مِنَ ٱلمَذاهِبِ ٱلفَلْسَفِيَّةِ. فَقَدْ كانَ مَنْشَؤُها في أثينا، سَنَةَ عَشْرٍ وَثلاثِ مِئَةٍ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ. وَواضِعُها، رَجُلٌ، يُدْعى زَيْنونَ. وَيَقومُ خَطَرُها[1] ٱلأَعْظَمُ بِٱلجانِبِ ٱلأَدَبِيِّ مِنْها. وَهِيَ تَرى أَنَّنا، إِذا أَرَدْنا أَنْ نَكونَ سُعَداءَ، يَنْبَغي لَنا أَنْ نَتَغَلَّبَ عَلَى عَواطِفِنا وَشَهَواتِنا، وَأَنْ نَتَقَرَّبَ إِلى اللّٰهِ بِٱلخُضوعِ لِإِرادَتِهِ. وَيَجِبُ أَنْ نَطْلُبَ ٱلفَضيلَةَ لِأَنَّها ٱلخَيْرُ ٱلأَعْظَمُ، وَقَدْ نَلْقى ٱلعَناءَ في مُحاوَلَتِنا ٱلوُصولَ إِلى هٰذا ٱلخَيْرِ ٱلأَعْظَمِ، غَيْرَ أَنَّ ٱلعَناءَ، في مِثْلِ هٰذا السَّبيلِ الصّالِحِ، يَجِبُ أَلاَّ يُعْتَدَّ[2] بِهِ.

وَقَدْ دَرَسَ أُورِلْيوسُ هٰذِهِ ٱلفَلْسَفَةَ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِدَرْسِها، بَلْ عاشَ، عَلَى مُقْتَضاها[3]، مُتَقَشِّفاً[4] جاهِداً[5]، وَبالَغَ في ذٰلِكَ حَتّى أَضَرَّ بِصِحَّتِهِ. وَتَعَلَّمَ مِنْ مُعَلِّميهِ الزّينونِيّينَ، أَنْ يَجْتَهِدَ في ٱلعَمَلِ، وَيَزْجُرَ[6] نَفْسَهُ، وَيُحاذِرَ ٱلاسْتِماعَ إِلى أَقْوالِ ٱلوُشاةِ[7]

---

(١) الخطر : ارتفاع القدر . (٢) لا يعتد به : لايلتفت اليه . (٣) المقتضى : الموجب . (٤) المتقشف الذي يعيش عيشاً خشناً . (٥) الجاهد : التعب الجاد . (٦) زجر نفسه : منعها ونهاها . (٧) الوشاة جمع الواشي : النمام .

وَيَتَحَمَّلَ المَكارِهَ ، وَلا يَحيدَ عَنْ قَصْدِهِ[١] . وَتَعَلَّمَ أَيْضاً أَنْ يَلْزَمَ الرَّزانَةَ[٢] غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ[٣] ، وَيَتَلَطَّفَ[٤] في إِرْشادِ النّاسِ إِلى الصَّوابِ ، وَأَلاّ يُكْثِرَ مِنَ ٱلقَوْلِ لِأَيٍّ كانَ : «لَيْسَ لَدَيَّ سَعَةٌ مِنَ ٱلوَقْتِ» أَوْ يَكْتُبَ ذٰلِكَ في كِتابٍ ، وَأَلاّ يَعْتَذِرَ عَنْ إِهْمالِهِ واجِباتِهِ ، مُحْتَجًّا بِالشَّواغِلِ ٱلاضْطِرارِيَّةِ .

وَقَدْ عَمِلَ أَوْرِليوسُ بِكُلِّ هٰذِهِ النَّصائِحِ الطَّيِّبَةِ ، وَكانَ ٱلجَميعُ مَعَ ذٰلِكَ ، يُحِبُّونَهُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْدِلْ عَنْ مَكارِمِ ٱلأَخْلاقِ ٱلَّتي نَشَأَ عَلَيْها . نَعَمْ إِنَّهُ كانَ يَقْسو عَلَى نَفْسِهِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ رَفيقاً[٥] بِغَيْرِهِ .

أَفَلا نَسْتَطيعُ أَنْ نَقْتَبِسَ ، مِنْ هٰذا ٱلإِمْبَراطورِ الوَثَنِيِّ ، عِبَراً كَثيرَةً ، تُساعِدُنا عَلَى إِصْلاحِ حَياتِنا ؟ .

تُوُفِّيَ ٱلإِمْبَراطورُ أَنْطونِيوسُ بِيُوسُ ، سَنَةَ إِحْدى وَسِتّينَ وَمِئَةٍ ، بَعْدَ ٱلمَسيحِ ، وَأَوْصى أَنْ يَخْلُفَهُ أَوْرِليوسُ ، وَكانَ وَقْتَئِذٍ في ٱلأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ كُمّودُسَ ، مُتَبَنّاهُ ٱلثّانِيَ ، ٱلَّذي غَلَبَ عَلَيْهِ ٱسْمُ لوسِيُوسَ فيروسَ .

---

(١) لا يحيد عن قصده : لا يعدل عن طريقه المستقيم . (٢) يلزم الرزانة : لا يفارق الوقار . (٣) غير متكلف : غير متصنع فلا يحملها على خلاف عادته . (٤) يتلطف : يترفق .
(٥) الرفيق : اللطيف .

فَنَدَبَ(١) مَجْلِسُ الشُّيوخِ أُورِلْيوسَ لِيَتَوَلَّى إِدارَةَ الإِمْبَراطورِيَّةِ وَحْدَهُ، وَلٰكِنْ أَبى كَرَمُ أَخلاقِهِ إِلاّ أَنْ يُشْرِكَ كُمّودُسَ في ذٰلِكَ. فَكانَتْ تِلْكَ هِيَ المَرَّةَ الأُولى الَّتي تَسَلَّطَ فيها إِمْبَراطورانِ في رومِيَةَ. وَكانَ أُورِلْيوسُ رَجُلاً عَظيمًا، رَفيقًا، حاذِقًا، وَأَمَّا كُمّودُسُ فَكانَ ضَعيفًا مُهاوِدًا(٢) نَفْسَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ يُوَقِّرُ(٣) أُورِلْيوسَ، وَيُوافِقُهُ في رَأْيِهِ.

وَتَصَدَّعَتْ(٤) سُحُبُ الخَطَرِ أَخيرًا، وَتَدَفَّقَ البَرْتِيّونَ عَلى أَرْمينِيَةَ، وَسورِيَّةَ، وَكانَتا وَقْتَئِذٍ جُزْءًا مِنَ الإِمْبَراطورِيَّةِ. فَلَبِثَ أُورِلْيوسُ بِرومِيَةَ، وَرَحَلَ كُمّودُسُ لِمُقاوَمَةِ البَرْتِيِّينَ. وَكُسِرَ البَرْتِيّونَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِئَةٍ. وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ بِفَضْلِ كُمّودُسَ، لِأَنَّهُ أَرْخى العِنانَ(٥) لِشَهَواتِهِ، بَلْ بِفَضْلِ قُوّادِهِ القادِرينَ. وَانْقَضَّتْ قَبيلَةٌ أُخْرى مِنَ البَرابِرَةِ عَلى إِيطالِيا مِنْ جِبالِ الأَلْبِ، فَبادَرَ الإِمْبَراطورانِ لِصَدِّها(٦). وَتُوُفِّيَ كُمّودُسُ في الحَرْبِ الَّتي نَشِبَتْ وَقْتَئِذٍ، سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَمِئَةٍ.

---

(١) ندبه للأمر : دعاه ورشحه للقيام به . (٢) هاود نفسه : مايلها وسايرها .
(٣) يوقر : يبجل ويعظم . (٤) تصدعت : تشققت . (٥) العنان : سير اللجام .
(٦) صدها : دفعها .

وَغَدا مَرْقُسُ أَوْرِلْيوسُ سَيِّدَ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ بِلا مُنازِعٍ[١]، وَذٰلِكَ في أَشَدِّ ٱلأَطْوارِ اضْطِرابًا في تاريخِها. وَقَدْ وُصِفَ مُلْكُهُ عَلى هٰذا ٱلوَجْهِ:

„إِنَّهُ كانَ يَعُدُّ نَفْسَهُ خادِمًا لِلْجَميعِ، كَما كانَ ٱلأَمْرُ في ٱلواقِعِ. فَإِنَّ تَسْجيلَ أَسْماءِ الرَّعايا، وَقَمْعَ[٢] المُخاصَماتِ وَٱلمُرافَعاتِ، وَالنُّهوضَ بِالقُوى ٱلمَعْنَوِيَّةِ العامَّةِ، وَٱلعِنايَةَ بِالقاصِرينَ[٣]، وَٱلاقْتِصادَ في النَّفَقاتِ العامَّةِ، وَٱلتَّقْليلَ مِنَ ٱلمُصارَعاتِ وَٱلمُجالَداتِ[٤] الدَّمَوِيَّةِ، وَٱلعِنايَةَ بِالطُّرُقِ، وَتَجْديدَ ما لِمَجْلِسِ الشُّيوخِ مِنَ ٱلامْتِيازاتِ، وَتَعْيينَ ٱلحُكّامِ مِنْ ذَوي ٱلأَهْلِيَّةِ وَٱلجَدارَةِ[٥]، حَتّى تَنْظيمَ السَّيْرِ في الطُّرُقِ؛ إِنَّ هٰذِهِ كُلَّها، وَغَيْرَها مِنَ الواجِباتِ الَّتي لا تُحْصى، كانَ يُعْنى بِها كُلَّ العِنايَةِ، حَتّى إِنَّها، عَلى حالٍ وَسَطٍ مِنَ الصِّحَّةِ، كَثيرًا ما أَلْزَمَتْهُ عَمَلًا شاقًّا، مِنَ الصَّباحِ ٱلباكِرِ إِلى ما بَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ".

وَكانَ مَنْصِبُهُ كَثيرًا ما يَضْطَرُّهُ أَنْ يَحْضُرَ ٱلأَلْعابَ وَٱلمَشاهِدَ،

---

(١) المنازع: المخاصم. (٢) قمع المخاصمات: أزالها وردها. (٣) القاصر: الذي لم يصل الى سن الادراك. (٤) المجالدة: المضاربة بالسيف. (٥) الجدارة: الأهلية.

وَلٰكِنَّهُ، في هٰذِهِ الأَحْوالِ ، كانَ يَشْغَلُ نَفْسَهُ إِمّا بِالقِراءَةِ، وَإِمّا بِالإِصْغاءِ إِلى مَنْ يَقْرَأُ لَهُ ، وَإِمّا بِكِتابَةِ تَذاكِرَ . فَقَدْ كانَ واحِداً مِنْ أُولٰئِكَ الَّذين يَرَوْنَ أَنَّهُ يَنْبَغي التَّرَيُّثُ[1] في عَمَلِ كُلِّ شيءٍ، وأَنْ لَيْسَ، إِلاَّ القَليلَ مِنَ الجَرائِمِ، ما هُوَ شَرٌّ مِنْ إِضاعَةِ الوَقْتِ.

وَاضْطُرَّ أُورِليوسُ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتّينَ وَمِئَةٍ، بَعْدَ المَسيحِ، أَن يُحارِبَ القَبائِلَ الجِرمانِيَّةَ مَرَّةً أُخرى، وَقَضى سِنينَ عَديدَةً، وَهُوَ يُحاوِلُ صَدَّها . وَقَدْ عَلَّمَتْهُ الفَلْسَفَةُ الزِّينونِيَّةُ ، الَّتي نَشَأَ عَلَيْها ، أَن يَرْضى بِمَيْسورِ[2] العَيْشِ، فَكانَ بِذَلِكَ خَيْرَ قُدْوَةٍ لِلجَيْشِ بِأَسْرِهِ. فَلَمْ يَكُنْ يَسَعُ العامَّةَ مِنَ الجُنودِ أَنْ يَتَبَرَّموا[3] بِعَمَلٍ شاقٍّ، وَهُمْ يَرَوْنَ الإِمْبَراطورَ نَفْسَهُ، في كُلِّ حينٍ، يَتَحَمَّلُ ما هُوَ أَشَقُّ، طَيِّبَ النَّفْسِ صابِراً .

وَجاءَهُ، وَهُوَ في جِرمانِيا، أَنَّ أَفيدِيُوسَ كاسِّيوسَ ، قائِدَ الجُيوشِ الرّومانِيَّةِ في آسِيا، قَدْ تَمَرَّدَ وَنادى بِنَفْسِهِ إِمْبَراطوراً.

---

(١) التريث : الابطاء والتمهل . (٢) الميسور : السهل . (٣) تبرم بالعمل : تضجر منه .

(وَكانَ ذٰلِكَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِئَةٍ ، بَعْدَ ٱلْمَسِيحِ) . فتَأَهَّبَ أَوْرِلْيوسُ في ٱلحالِ لِمُقاوَمَتِهِ ، وَقالَ في ٱلوَقْتِ عَيْنِهِ لِجُنودِهِ إِنَّهُ يَدْفَعُ ٱلإِمْبَراطورِيَّةَ طَوْعاً(١) إلى أَفيدِيوسَ ، إذا عُدَّ ذٰلِكَ عَوْناً عَلَى ٱلمَصْلَحَةِ ٱلعامَّةِ ، لِأَنَّهُ ، هُوَ ، لَمْ يَجْنِ مِنَ الرِّفْعَةِ وَسُمُوِّ ٱلمَقامِ سِوى العَمَلِ ٱلمُتَواصِلِ والنَّصَبِ(٢) . وَقالَ :

— إِنّي مُسْتَعِدٌّ أَنْ أُواجِهَ أَفيدِيوسَ أَمامَ مَجْلِسِ الشُّيوخِ وَأَمامَكُمْ ، وَأَنْ أَدْفَعَ إِلَيْهِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةَ ، لا يُشْهَرُ(٣) في سَبيلِ ذٰلِكَ سَيْفٌ وَلا يُسْفَكُ دَمٌ ، إذا كانَ في ذٰلِكَ ٱلخَيْرُ لِلشَّعْبِ . غَيْرَ أَنَّ أَفيدِيوسَ لَنْ يَرضى ٱلاحْتِكامَ(٤) إلى مِثْلِ هٰؤُلاءِ ٱلقُضاةِ ، فَمَنْ خانَ عَهْدَ(٥) ٱلمُحْسِنِ إِلَيْهِ لا يَثِقُ بِأَحَدٍ . وَلَنْ يَثِقَ بي ، أَنا أَيْضاً ، إذا أُتيحَ لِيَ النَّصْرُ عَلَيْهِ . وَإِنّي أُصارِحُكُمْ(٦) يا جُنوديَ ٱلأَعِزّاءِ ، بِأَصْدَقِ نِيَّةٍ ، أَنّي لَسْتُ أَخْشى ، مَعَ ذٰلِكَ ، سِوى أَمْرٍ واحِدٍ ، وَهُوَ أَنْ يَضَعَ أَفيدِيوسُ ، هُوَ نَفْسُهُ ، حَدّاً لِحَياتِهِ ، أَوْ أَنْ يَقومَ أَحَدٌ ، مُؤَيِّداً(٧) لي ، فَيُعَجِّلَ مَوْتَهُ . وأَكْبَرُ أَمَلٍ لي

---

(١) فعل الامر طوعاً : اي غير مكره عليه . (٢) النصب : التعب . (٣) شهر السيف : سله فرفعه . (٤) الاحتكام الى الحاكم : رفع المخاصمة اليه ليفصل فيها . (٥) العهد : هنا بمعنى المودة والميثاق . (٦) اصارحكم : أجاهركم وأظهر لكم . (٧) أيده : قواه

هُوَ أَنْ أُقيمَ الدَّليلَ عَلَى اُسْتِطاعَتي أَنْ أَغفِرَ أَقْبَحَ ٱلإِهاناتِ ، وَأَنْ أَغْنَمَ مَوَدَّتَهُ ، عَلَى كُرْهِهِ لي ، وَأَنْ أُظْهِرَ لِلعالَمِ أَنَّ اُلحُروبَ الأَهْلِيَّةَ نَفْسَها قَدْ تُفْضي[١] إِلى خاتِمَةٍ حَسَنَةٍ .

وَلَمْ يَلْبَثِ الحُبُّ ، الَّذي شَمَلَ النَّاسَ جَميعاً لِلأَمْبَراطورِ الصَّالِحِ ، أَنْ عادَ عَلى أَفيدِيوسَ بِالشَّرِّ ، فَقَتَلَهُ جُنودُهُ أَنفُسُهُمْ. وحُمِلَ رَأْسُهُ إِلى اُلإِمْبَراطورِ ، فَتَلَقَّاهُ بِاُلأَسَفِ ، وَأَمَرَ أَن يُدْفَنَ بِاُلإِكْرامِ . وَعامَلَ أُسْرَتَهُ وَسائِرَ المُتَآمِرينَ بِواسِعِ اُلحِلْمِ . فَأُعْجِبَ اُلبَعْضُ بِهٰذا الصَّفْحِ ، وَأَنْكَرَهُ[٢] اُلبَعْضُ اُلآخَرُ . غَيْرَ أَنَّ اُلإِمْبَراطورَ قَلَّما كانَ يُبالي[٣] إِنْكارَ النّاسِ وَاُسْتِحْسانَهُمْ ، بَلْ كانَ يَنْقادُ لِكَرَمِ طَبيعَتِهِ ، وَيَصْنَعُ ما يَراهُ عَدْلاً ، مُغْتَبِطاً[٤] مُكْتَفِياً بِاُسْتِصْوابِ[٥] نَفْسِهِ وَرِضاها .

وَاُجْتَرَأَ[٦] بَعْضُهُمْ عَلَى تَسْوِئَةِ[٧] عَمَلِهِ قائِلاً لَهُ : « إِنَّ أَفيدِيوسَ ، لَوْ أُتيحَ لَهُ الفَوْزُ ، لَمْ يَكُنْ لِيَحْلُمَ[٨] مِثْلَ هٰذا اُلحِلْمِ » . فَأَجابَ اُلإِمْبَراطورُ بِهٰذا اُلجَوابِ الرّائِعِ :

(١) تفضي : توصل . (٢) أنكره : عابه . (٣) يبالي الامر : يهتم بـه ويكترث له . (٤) مغتبطاً : مسروراً . (٥) استصوبه : رآه صواباً . (٦) اجترأ تجاسر . (٧) سوأ عمله تسوئة عابه (٨) يحلم : يصفح.

— لَمْ أُسِئْ خِدْمَةَ ٱلْآلِهَةِ، وَلَمْ يَبْلُغْ بِيَ ٱلْجَوْرُ والخُرْقُ[1] فِي مُلْكِي مَبْلَغاً، خَشِيتُ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ الظَّفَرُ لِأَفِيدِيوسَ.

وَظَلَّ أَوْرِلْيوسُ، بَعْدَ مَوْتِ أَفِيدِيوسَ، عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لا يَزَالُ لَهُ أَعْداءٌ كَثِيرونَ، وَرَغِبَ فِي اسْتِمالَتِهِمْ إِلَيْهِ. فَقامَ بِرِحْلَةٍ إِلى الشَّرْقِ، حَيْثُ سَحَرَ ٱلْجَميعَ، فِي كُلِّ مَكانٍ، بِلُطْفِهِ، وَأَثارَ إِعْجابَهُمْ بِحِلْمِهِ، وَأَرْشَدَهُمْ بِنَصائِحِهِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى إِصْلاحِ أَنْفُسِهِمِ اقْتِداءً بِسيرَتِهِ. وَتُوُفِّيَتِ ٱلإِمْبَراطورَةُ فَوْسْتِينا فِي هٰذِهِ الرِّحْلَةِ، بَعْدَ أَنْ وَلَدَتْ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ وَلَداً. وَلَدى عَوْدَتِهِ إِلى إِيطالِيا، خَلَعَ ثَوْبَ ٱلْجُنْدِيَّةِ وَفَعَلَ جُنودُهُ كَذٰلِكَ، وَدَخَلوا رومِيَةَ بِالثِّيابِ الَّتِي كانوا يَلْبَسونَها أَيّامَ السِّلْمِ. وَعَيَّنَ وَقْتَئِذٍ ابْنَهُ كُمّودُسَ لِيَخْلُفَهُ فِي ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ (وَكانَ ذٰلِكَ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعينَ وَمِئَةٍ).

وَقَدْ نَسْتَغْرِبُ، مَعَ ما ذَكَرْنا مِنْ كَرَمِ أَخْلاقِ أَوْرِلْيوسَ وَتَساهُلِهِ، أَنْ يَكونَ قَدْ أَباحَ[2] اضْطِهادَ ٱلْمَسيحِيّينَ، في

(١) الخرق: سوء التصرف. (٢) أباح الأمر: أجازه وجعله مباحاً.

عَهْدِهِ ، اُضْطِهاداً شَديداً . وَلٰكِنْ يَجِبُ أَلاَّ يَذْهَبَ عَنَّا أَنَّ الاُضْطِهادَ كانَ بِالأَوْلى سِياسِيًّا لا دينِيًّا . فَإِنَّ مَرْقُسَ أَوْرِلْيوسَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مِنْ عَقائِدِ اُلمَسيحِيَّةِ وَتَعْليمِها إِلاَّ اُلقَليلَ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَكْتَرِثَ لَها (١) كَبيرَ اُكْتِراثٍ ، غَيْرَ أَنَّ أَتْباعَها ، بِجَحْدِهِمِ (٢) الدِّينَ الَّذي ، يَعُدُّ اُلأَباطِرَةَ في جُمْلَةِ آلِهَتِهِ ، قَدْ غَدَوْا مُتَمَرِّدينَ عَلَى اُلأَوْضاعِ (٣) الرّاهِنَةِ (٤) وَعُدّوا لِذٰلِكَ مُجْرِمينَ .

وَاُضْطُرَّ أَوْرِلْيوسُ سَنَةَ ثَماني وَسَبْعينَ وَمِئَةٍ ، أَنْ يَنْزِلَ إِلى اُلميدانِ مَرَّةً أُخْرى ، لِمُحارَبَةِ اُلقَبائِلِ اُلجِرْمانِيَّةِ ، وَكانَتْ لا تَنْفَكُّ جامِحَةً (٥) مُضْطَرِبَةً . وَعَلَى حينَ أَخَذَ اُلحَظُّ يَبْسِمُ لِلْجُيوشِ الرّومانِيَّةِ ، وافَتِ اُلإِمْبَراطورَ مَنِيَّتُهُ فَجْأَةً ، فَماتَ بِالطّاعونِ ، في التّاسِعَةِ وَاُلخَمْسينَ مِنْ عُمْرِهِ (سَنَةَ ثَمانينَ وَمِئَةٍ .

وَقَدِ اُرْتاحَ (٦) أَوْرِلْيوسُ لِلْمَوْتِ ، بَلْ كانَ تَوّاقًا إِلى الرَّحيلِ . وَلَمْ يَكُنْ يَرى في نَفْسِهِ سِوى رَفيقٍ لِكُلِّ مَنْ حَوْلَهُ في سَبيلِ اُلحَياةِ اُلعامِّ . وَوَدَّعَ أَصْدِقاءَهُ وَداعَ مُتَقَدِّمٍ (٧) لَهُمْ . وَلَمْ

(١) اكترث لها : اهتم بها . (٢) جحد الدين : انكره وكفر به . (٣) الاوضاع : القوانين الموضوعة المثبتة . (٤) الراهنة : المعدة الثابتة . (٥) جامحة : عاصية . (٦) ارتاح للموت : طابت له نفسه . (٧) المتقدم : السابق .

يَـكُنْ وَلَدُهُ كُمّودُسُ، الَّذي أَوْشَكَ أَنْ يَخْلُفَهُ، لِيُعَزِّيَهُ في ساعاتِهِ الأَخيرَةِ، لِأَنَّ أورِليوسَ كانَ يَعْلَمُ حَقَّ العِلْمِ أَنَّ وَلَدَهُ كانَ جاهِلاً، قاسِياً، فاسِقاً[1]. وَكَمْ مِنْ أَبٍ صالِحٍ، وَلَدَ أَبْناً شِرّيراً!

وَبَعْدَ مَوْتِ أَوْرِليوسَ أَخَذَتِ الإِمْبَراطورِيَّةُ الرّومانيَّةُ في الاِنْحِطاطِ. فَإِنَّنا نُشاهِدُ مُنْذُ ذاكَ إِمْبَراطورِيَّةً، تَضَخَّمَتْ[2] تَضَخُّماً عَظيماً، تَهْبُطُ بِما ثَقُلَتْ، يُحْدِقُ بِها[3] في الخارِجِ أَعْداءٌ بَرابِرَةٌ حالَفَهُمُ[4] الفَوْزُ، وَتُمَزِّقُها في الدّاخِلِ أَحْزابٌ تَنازَعَتْها[5] الأَطْماعُ والقَسْوَةُ. وَلا يَذْهَبَنَّ عَنّا، مَعَ ذٰلِكَ، أَنَّ مِثْلَ هٰذِهِ الإِمْبَراطورِيَّةِ العَظيمَةِ لا تَدولُ[6] سَريعاً. فَلَمْ تَـكُنْ أُمورُ الإِمْبَراطورِيَّةِ كُلُّها، قَبْلَ مَرْقُسَ أَوْرِليوسَ، عَلَى حالٍ صالِحَةٍ، وَلَمْ تَسُؤْ أُمورُها كُلُّها بَعْدَهُ.

ماتَ مَرْقُسُ أَوْرِليوسُ، وَلٰـكِنَّهُ لا يَزالُ حَيّاً بِما أَبْقاهُ مِنَ الآثارِ. فَقَدْ ضَمَّنَ فَلْسَفَتَهُ في الحَياةِ كِتاباً، سَمّاهُ

(١) الفاسق: الخارج عن طريق الحق والصلاح. (٢) تضخمت: صارت ضخمة. (٣) يحدق بها: يحيط بها. (٤) حالفهم: لازمهم. (٥) تنازعتها: تجاذبتها. (٦) تدول: تنقلب من حال الى حال.

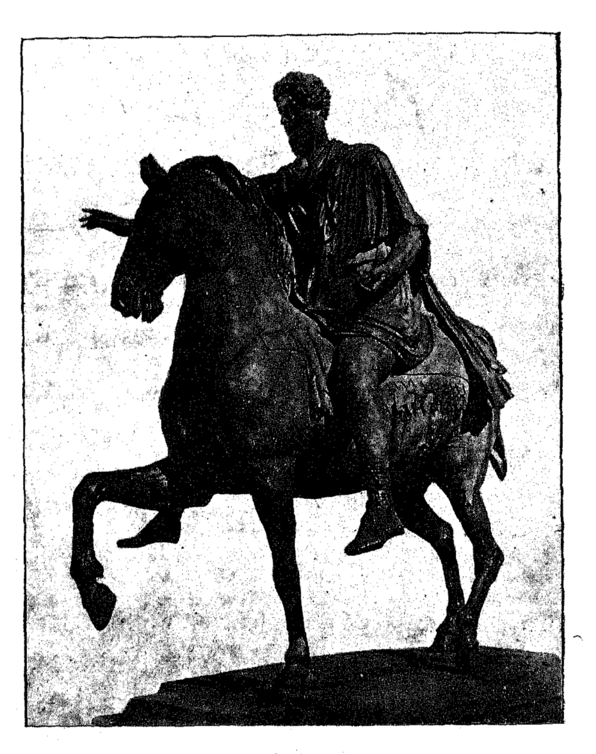
« التأمُّلاتِ » ، وَضَعَهُ في اللُّغَةِ اليونانِيَّةِ ، وَهٰذِهِ التأَمُّلاتُ كُتِبَتْ عِنْدَ سُنوحِ [١] الفُرَصِ ، في وَسَطِ المَشاغِلِ العامَّةِ ، أَوْ في عَشِيَّةِ [٢] المعارِكِ الَّتي كانَ مَصيرُ الإِمْبَراطورِيَّةِ مَنوطاً [٣] بِها ، وَبِهٰذا تَقومُ قيمَتُها الفِعْلِيَّةُ وَجَمالُها . وَهٰذا الكِتابُ أَفْضَلُ الكُتُبِ ، بِما تَضَمَّنَهُ مِنَ العَواطِفِ الإِنْسانِيَّةِ ، وَمِنْ أَثْمَنِ مُخَلَّفاتِ [٤] الأَزْمِنَةِ القَديمَةِ .

إِذا أُتيحَ لَكُمْ يَوماً أَنْ تَهبُطوا [٥] رومِيَةَ ، مَدينَةَ الأَباطِرَةِ ، فَقَدْ يَسُرُّكُمْ أَنْ تُشاهِدوا فيها أَثَرَيْنِ [٦] عَظيمَيْنِ لِمَرْقُسَ أَوْرِلْيوسَ .

هُناكَ في بِيَتْسا كُلُنّا (ساحَةِ العَمودِ) تَرَوْنَ عَموداً مِنَ الرُّخامِ ، أَقامَهُ مَرْقُسُ أَوْرِلْيوسُ ، يَبْلُغُ تِسْعَةً وَعِشْرينَ مِتْراً وَنِصْفَ المِتْرِ طولاً ، وَحَوْلَهُ عِشْرونَ صَفّاً مِنَ التَّماثيلِ ، بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ، تُمَثِّلُ حُروبَ الرّومانِيّينَ مَعَ قَبائِلِ الدّانوب .

وَتَبْتَعِدونَ عَنْ هٰذا العَمودِ مَسيرَةَ خَمْسِ دَقائِقَ وَتَصْعَدونَ

(١) سنحت الفرصة : عرضت . (٢) العشية : اول الظلام . (٣) منوطاً بها : معلقاً بها . (٤) مخلفات : متروكات . (٥) هبط المدينة : دخلها . (٦) الأثر : ما يبقى بعد الشيء .



مرقس اورليوس

دَرَجاتِ أَثَرٍ عظيمٍ ، يُدْعى الكَمْبيدُلْيُو ، فَتَقِفون أَمامَ تِمْثالِ فارِسٍ ، هُوَ مَرْقُسُ أَوْرِلْيوسُ. في هٰذِهِ الصّورَةِ ، تُشاهِدونَ إِمْبَراطوراً ، كانَ أَشْرَفَ أَفْرادِ أُسْرَتِهِ [1] وَأَعَزَّهُمْ ، وَيَبْدو لَكُمْ كَما كانَ في حَياتِهِ . هُناكَ تَعودُ رومِيَةُ الإِمْبَراطورِيَّةُ إِلى الحَياةِ أَمامَكُمْ . هُناكَ تَرَوْنَهُ مُسْتَوِياً [2] عَلَى صَهْوَةِ [3] جَوادِهِ ، رومانِيًّا في عَزيمَتِهِ وَرَدْعِهِ [4] ، رومانِيًّا في نُبْلِهِ وَعِزَّةِ نَفْسِهِ ، رومانِيًّا في مُلازَمَةِ قَصْدِهِ [5] ، رومانِيًّا في احْتِرامِهِ لِلْقانونِ ، رومانِيًّا في بَذْلِهِ النَّفْسَ في سَبيلِ أُمَّتِهِ وَوَطَنِهِ .

---

(١) أسرته : أهله . (٢) مستوياً : مستقراً . (٣) صهوة الجواد : مقعد الراكب منه . (٤) ردعه عن الأمر : كفه ورده . (٥) القصد : استقامة الطريق .

قسطنطين الكبير

كانَ مِنَ المُعْتَقَدِ المُسْتَحَبِّ، عِنْدَ قُدَماءِ المُؤَرِّخِينَ في إِنْكِلْتِرا، أَنَّ قُسْطَنْطِينَ الكَبِيرَ، الّذي جَعَلَ النَّصْرانِيَّةَ دِينَ أُورُبّا، كانَ بِريطانِيَّ الدَّمِ وَبِريطانِيَّ المَوْلِدِ. غَيْرَ أَنَّ مُعْتَقَدَهُمْ هٰذا لا يَقُومُ الاَّ عَلَى أَنَّ قُسْطَنْطِينوسَ، أَبا قُسْطَنْطِينَ، قَدْ تَسَلَّطَ عَلى بِرِيطانيا حِيناً مِنَ الدَّهْرِ بِمَنْزِلَةِ نائِبِ إِمْبَراطور.

وَهُناكَ ما يُرَجِّحُ[1] الظَّنَّ أَنَّ قُسْطَنْطِينَ وُلِدَ في نِيسَ، مِنْ أَعْمالِ سِرْبِيا الحَدِيثَةِ، سَنَةَ ثَماني وَثَمانِينَ وَمِئَتَيْنِ، وَأَنَّ أُمَّهُ، الّتي تُعْرَفُ اليَوْمَ بِاسْمِ القِدّيسَةِ هيلانَةَ، هِيَ ابْنَةُ صاحِبِ فُنْدُقٍ[2]، لَمْ يَكُنْ يُقِيمُ بِيُورْكَ، مِنْ أَعْمالِ أَنْكِلْتِرا، كَما زَعَمُوا، بَلْ بِدِرِيبانُومَ، مِنْ مُدُنِ آسِيا الصُّغْرى. وَارْتَقى أَبُوهُ في مَناصِبِ الجُنْدِيَّةِ، إِلى أَنْ غَدا مِنْ كِبارِ القُوّادِ. وَفي سَنَةِ ثَلاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَتَيْنِ بُوِّئَ[3] مَنْصِبَ قَيْصَرَ،

---

(١) رجح الظن: غلب. (٢) الفندق: الخان. (٣) بوأه المنصب: انزله فيه.

وَأُمِّرَ[١] عَلى ٱلولاياتِ ٱلغَرْبِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلأُمْبَراطورِيَّةِ الرّومانيَّةِ.

وَلَمّا كانَ قُسْطَنطينُ لا يَزالُ حَدَثاً[٢] أُرْسِلَ إِلى ٱلبَلاطِ[٣] الشَّرْقِيِّ رَهينَةً. وَرافَقَ ٱلإِمْبَراطورَ دِيُوقْلِسْيانوسَ إِلى الشَّرْقِ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَثَلاثِ مِئَةٍ، وَرُقِّيَ إِلى رُتْبَةِ حاكِمٍ عَسْكَرِيٍّ، وَخَدَمَ في ٱلجُنْدِيَّةِ تَحْتَ إِمْرَةِ[٤] غالِرْيُوسَ، عَلَى نَهْرِ الدّانوبِ.

وَفي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلاثِ مِئَةٍ تَنَزَّلَ ٱلإِمْبَراطورانِ دِيوقْلِسْيانوسُ وَمَكْسِمْيانوسُ عَنْ عَرْشَيْهِما، وَغَدا كُلٌّ مِنْ قُسْطَنْطينوسَ وَغالِرْيوسَ إِمْبَراطوراً. فَطَلَبَ قُسْطَنْطينوسُ مِنْ غالِرْيوسَ أَنْ يُعيدَ إِلَيْهِ ٱبْنَهُ، وَكانَ قَدِ ٱسْتَبْقاهُ في نيكوميدِيا بِحُجَّةٍ مِنَ ٱلحُجَجِ. غَيْرَ أَنَّ قُسْطَنطينَ تَمَكَّنَ مِنَ ٱلهَرَبِ، وَٱجْتازَ بِأُورُبّا، وَأَدْرَكَ[٥] أَباهُ في بولونيا، وَهُوَ يوشِكُ أَنْ يَعْبُرَ ٱلبَحْرَ إِلى بريطانيا، لِيَصُدَّ غارَةً لِلْبِكْتِيّينَ والسّكوتِيّينَ. وَبَعْدَ أَنْ أَصابَ قُسْطَنْطينوسُ نَصْراً، تُوُفِّيَ في يُورْكَ، سَنَةَ سِتٍّ وَثَلاثِ مِئَةٍ، وَنادى ٱلجَيْشُ بِٱبْنِهِ إِمْبَراطوراً.

---

(١) أمره: ولاه الامارة وحكمه. (٢) الحدث: الشاب. (٣) بلاط الملك: قصره، ومجازاً مجلسه وزعماؤه. (٤) الأمرة: الأمارة. (٥) ادركه: لحقه.

وَيَتَبادَرُ(١) إلى الأَذْهانِ ، عِنْدَما نَقْرَأُ أَنَّ الجَيْشَ هُوَ الَّذي غَدا يُنادي بِمَنْ أَحَبَّ إمْبَراطوراً ، أَنَّ شَرّاً عَظيماً طَرَأَ(٢) عَلَى الإمْبَراطورِيَّةِ الرّومانِيَّةِ . وَفي الواقِعِ أَنَّ هٰذِهِ الإمْبَراطورِيَّةَ العَظيمةَ تَبَدَّلَتْ ، فَلَمْ تَبْقَ عَلَى حالِها قَبْلاً . وَقَدْ رَأَيْنا أَنَّ مَرْقُسَ أَوْرِلْيوسَ نَفْسَهُ ، وَهُوَ الرَّجُلُ العَظيمُ ، عَجَزَ عَنْ إنْقاذِ الإمْبَراطورِيَّةِ مِنَ الهَرْجِ(٣) . وَجاءَ بَعْدَ مَرْقُسَ أَوْرِلْيوسَ (الَّذي مَلَكَ مِنْ سَنَةِ إحْدى وَسِتّينَ وَمِئَةٍ إلى سَنَةِ ثَمانينَ وَمِئَةٍ) قَرْنُ ثَوْراتٍ وَفِتَنٍ(٤) . فَإنَّ الجُيوشَ الرّومانِيَّةَ أَخَذَتْ تَسْتَعْصي عَلَى الضَّبْطِ(٥) ، لِأَنَّها كانَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ عَناصِرَ وَأَجْناسٍ كَثيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكانَتْ تُقيمُ بِأَماكِنَ بَعيدَةٍ عَنْ رومِيَةَ ، مَرْكَزِ الإمْبَراطورِيَّةِ . فَضَعُفَ أَمْرُ النِّظامِ ، وَأَخَذَ الجُنودُ الجُفاةُ يَقِلُّ خَوْفُهُمْ ، شَيْئاً فَشَيْئاً ، مِنْ سُلْطَةِ رومِيَةَ . وَأَدّى بِهِمِ الأَمْرُ إلى أَنَّهُمْ أَخَذوا يَنْتَخِبونَ هُمْ أَنْفُسُهُمُ الأَباطِرَةَ . وَلَمْ تَكُنْ في رومِيَةَ قَوانينُ تُقَرِّرُ كَيْفِيَّةَ انْتِخابِ الأَباطِرَةِ .

---

(١) تبادر : أسرع . (٢) طرأ : جاء فجأة . (٣) الهرج : الفتنة والاختلاط .
(٤) الفتنة : اختلاف الناس وما يقع بينهم من القتال . (٥) استعصى على الضبط : اشتد فعسر ضبطه .

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ومِئَتَيْنِ، بَعْدَ الْمَسِيحِ ، مُنِحَتْ حُقوقُ الرَّعَوِيَّةِ الرّومانِيَّةِ لِكُلِّ رَجُلٍ حُرٍّ مُقيمٍ ضِمْنَ تُخومِ الإِمْبَراطورِيَّةِ ، فَشَعَرَتِ الوِلاياتُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنَّ لَها ما لِإِيطاليا مِنَ الْحَقِّ في اخْتِيارِ مَنْ يَتَسَلَّطُ عَلَيْها .

وَأَدَّى ذٰلِكَ كُلُّهُ إِلى اضْطِرابٍ وَخَلَلٍ عَظيمَيْنِ . وَفي حِقْبَةٍ [١] لا تَزيدُ عَلَى تِسْعينَ سَنَةً اخْتيرَ ما لا يَقِلُّ عَنِ الثَّمانينَ مِنَ الأَباطِرَةِ مِنْ طَبَقَةِ الْجُنودِ الغِلاظِ الْجُفاةِ . فَكانَ لِذٰلِكَ قَرْنٌ نَشِبَتْ فيهِ الثَّوْراتُ ، مِنْ سَنَةِ ثَمانينَ وَمِئَةٍ إِلى سَنَةِ ثَمانينَ وَمِئَتَيْنِ ، فَانْتَقَضَ [٢] صَرْحُ [٣] الْمَدَنِيَّةِ ، وانْقَضى ما لا يَقِلُّ عَنْ خَمْسينَ سَنَةً انْتَفى فيها النِّظامُ العامُّ ، إِذْ كانَتِ الْجُيوشُ الَّتي انْصَرَفَتْ إِلى النَّهْبِ وَالسَّلْبِ ، تَنْقُلُ صَوْلَجانَ رومِيَةَ مِنْ يَدِ إِمْبَراطورٍ جُنْدِيٍّ إِلى آخَرَ . وَعادَ النّاسُ في كُلِّ جِهَةٍ لا يَأْمَنونَ عَلَى أَرْواحِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ ، وَعَمَّ النَّهْبُ والقَتْلُ كُلَّ مَكانٍ ، وَتَعَطَّلَتِ الأَعْمالُ جُمْلَةً ، وَحَلَّ الْخَرابُ بِالإِمْبَراطورِيَّةِ الرّومانِيَّةِ ، وَأَنْفَدَ [٤] الْجَيْشُ الرّومانِيُّ قِواهُ في الفِتَنِ .

---

(١) الحقبة : المدة من الوقت . (٢) انتقض البناء : انحل . (٣) الصرح : البناء العالي . (٤) انفد قواه : أفناها .

وَبادَرَ ٱلبَرابِرَةُ الشِّماليّونَ ، وَهُمُ ٱلقَبائِلُ ٱلجِرْمانِيَّةُ ، إِلى ٱلإِسْتِفادَةِ مِنْ هٰذا الضَّعْفِ ، الَّذي نَزَلَ بالإِمْبَراطورِيَّةِ ، فَعَبَروا ٱلحُدودَ حَيْثُما شاؤوا ، وَلَمْ يُلْفوا[1] أَمامَهُمْ صادّاً[2] ، وَأَوْغَلوا[3] حَتّى بِلادِ ٱليونانِ وَإِيطاليا . وَتَدَفَّقوا غَرْباً عَلَى بِلادِ الغالِ وَإِسْبانيا ، وَوَصَلَ بَعْضُهُمْ إِلى أَفْرِيقِيَةَ نَفْسِها . وَزِدْ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ دَوْلَةً جَديدَةً ، قامَتْ في الشَّرْقِ تُنْذِرُ[4] بِٱلخَطَرِ . فَإِنَّ ٱلبَرْتِيّينَ ، الَّذينَ كانوا مُتَسَلِّطينَ فيما بَيْنَ النَّهرَيْنِ ، تَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ ، سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرينَ وَمِئَتَيْنِ : دَوْلَةٌ فارِسِيَّةٌ جَديدَةٌ ، أَقامَها قَوْمٌ ، يُقالُ لَهُمُ السّاسانِيّونَ ، وَصَيَّروا بِلادَ فارِسَ خَصْماً خَطيراً لِرومِيَةَ . وَكانَتْ عاصِمَتُهُمْ مَدينَةَ طيسِفونَ ، عَلَى عَدْوَةِ دِجْلَةَ . فَٱضْطُرَّتْ رومِيَةُ لِذٰلِكَ أَنْ تَصْرِفَ قُواها إِلى الشَّرْقِ .

وَٱضْطُرَّ دِيوقْلِسْيانوسُ (الَّذي مَلَكَ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمانينَ وَمِئَتَيْنِ إِلى سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلاثِ مِئَةٍ) أَنْ يَشْتَبِكَ في

---

(١) لم يلفوا : لم يجدوا . (٢) الصاد : المانع . (٣) اوغلوا : ابعدوا . (٤) تنذر بالخطر : تعلم .

حُروبٍ مُتَواصِلَةٍ مَعَ السَّاسانِيِّينَ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يَقْضِ مُعْظَمَ مُلْكِهِ في رومِيَةَ ، بَلْ في آسيا الصُّغْرى . وَلِكَيْ يُسْتَطاعَ الإِشْرافُ عَلى شُؤُونِ رومِيَةَ وَالْغَرْبِ ، عَيَّنَ دِيُوقْلِسْيانوسُ إِمْبَراطوراً آخَرَ ، شاطَرَهُ[1] السُّلْطَةَ . وَلَمْ يَكُنْ في نِيَّتِهِ أَنْ يَقْسِمَ الإِمْبَراطورِيَّةَ إِلى قِسْمَيْنِ ، غَيْرَ أَنَّ قِسْمَيِ الإِمْبَراطورِيَّةِ الرّومانِيَّةِ ، الغَرْبِيَّ وَالشَّرْقِيَّ ، أَخَذا مُذْ ذاكَ يَنْفَصِلُ الواحِدُ مِنْهُما عَنِ الآخَرِ . وَعَيَّنَ زِيادَةً عَلى ذٰلِكَ نُوّابَ أَباطِرَةٍ . وَكانَ الأَباطِرَةُ يَحْمِلونَ لَقَبَ أُغُسْطُسَ ، وَنُوّابُ الأَباطِرَةِ لَقَبَ قَيْصَرَ .

وَكانَ قُسْطَنْطينوسُ أُغُسْطُساً عِنْدَ وَفاتِهِ ، وَبِناءً عَلى ذٰلِكَ نادى الجَيْشُ بِابْنِهِ ، قُسْطَنْطينَ ، أُغُسْطُساً أَوْ إِمْبَراطوراً . غَيْرَ أَنَّ قُسْطَنْطينَ اكْتَفى بِلَقَبِ قَيْصَرَ ، وَغَدا سَفيروسُ أُغُسْطُساً . وَنودِيَ في رومِيَةَ بِمَكْسِنْسِيوسَ ، ابْنِ الإِمْبَراطورِ مَكْسِمْيانوسَ المُسْتَقيلِ[2] أُغُسْطُساً ، وَنودِيَ بَعْدَئِذٍ بِآخَرينَ . وَ ما هُوَ إِلاّ القَليلُ ، حَتّى كانَ في الإِمْبَراطورِيَّةِ سِتَّةُ أَباطِرَةٍ ، بَيْنَهُمْ قُسْطَنْطينُ ،

---

(١) شاطره السلطة : قاسمه اياها . (٢) استقال من عمله : طلب أن يصرف عنه .

الّذي تَلَقَّبَ بأُغُسْطُسَ . فَكانَ لا بُدَّ ، وَالْحالَةُ هٰذِهْ ، أَنْ تَنْشِبَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْمُتَنافِسينَ .

وَشُغِلَ قُسْطَنْطينُ ، في بادِئِ الأَمْرِ ، بِمُدافَعَةِ الْجِرمانيّينَ عَنْ تُخومِهِ ، فَلَمْ يَشْتَرِكْ في النِّزاعِ[1] الْقائِمِ بَيْنَ سائِرِ الطّامِعينَ في الْعَرْشِ . وَلٰكِنْ لَمّا تُوُفِّيَ غاليرِيُوسُ ، سَنَةَ إِحْدى عَشْرَةَ وَثَلاثِ مِئَةٍ ، وَلَمّا حَطَّمَ مَكْسِنْسيوسُ تَماثيلَ قُسْطَنْطينَ ، مُعْلِناً أَنَّهُ طاغِيَةٌ[2] ، رَأى قُسْطَنْطينُ أَنَّ الْحَرْبَ لا مَناصَ مِنها[3] . وَكانَ جَيْشُهُ دونَ[4] جَيْشِ مَكْسِنْسِيُوسَ في الْعَدَدِ كَثيراً ، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ ، مَعَ ذٰلِكَ ، في الزَّحْفِ إِلى إِيطاليا ، وَالسَّيْرِ لِمُهاجَمَةِ رومِيَةَ .

في ذٰلِكَ الأَوانِ ، وَقَعَ حادِثٌ غَريبٌ جِدّاً . فَفيما كانَ قُسْطَنْطينُ زاحِفاً إِلى رومِيَةَ ، سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَثَلاثِ مِئَةٍ ، عَلى رَأْسِ الْكَتائِبِ[5] الْبريطانِيَّةِ وَالْغالِيَّةِ ، لِيُنازِعَ[6] مَكْسِنْسِيُوسَ إِمْبَراطورِيَّةَ الْمَغْرِبِ ، رَأى عَلى ما ذَكَرَهُ

---

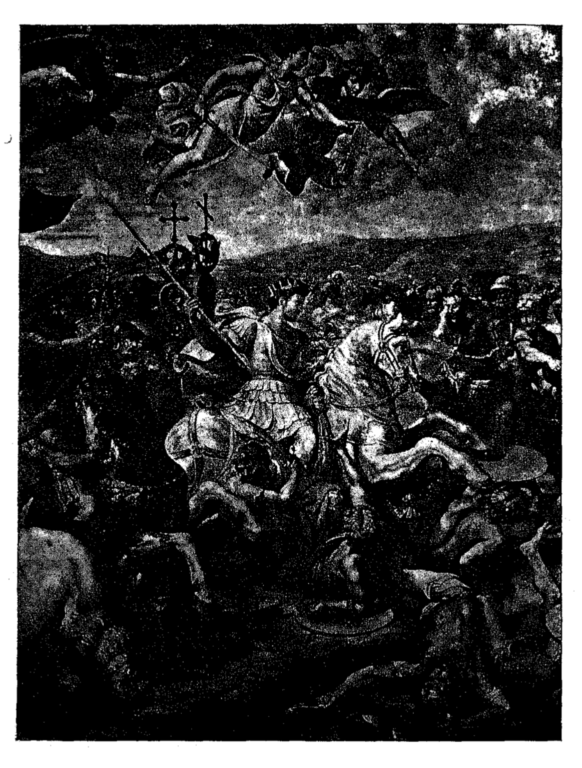
(١) النزاع : الخصومة . (٢) الطاغية : الجبار والمتكبر العاتي . (٣) لا مناص منها : لا مهرب . (٤) دون : احط . (٥) الكتائب جمع الكتيبة : القطعة من الجيش . (٦) نازعه الشيء : جاذبه اياه .

ٱلمُؤَرِّخونَ ، صَليباً في السَّماءِ ، وَكِتابَةً ، هٰذا مُؤَدّاها : « بِهٰذِهِ ٱلعَلامَةِ تَنْتَصِرُ » . وَفي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ أُلْقِيَ إِلَيْهِ[١] في ٱلحُلْمِ أَنْ يَتَّخِذَ النَّصْرانِيَّةَ ديناً . وَمَهْما يَكُنِ ٱلباعِثُ[٢] ٱلمُباشِرُ[٣] ، فَإِنَّهُ رَفَعَ الصَّليبَ عَلى أَعْلامِهِ[٤] ، وَهَزَمَ مَكْسِنْسِيُوسَ ، في ٱلمَعْرَكَةِ ٱلَّتي دارَتْ رَحاها[٥] عِنْدَ جِسْرِ مِلْفِيانَ عَلَى نَهْرِ التِّيبِرِ ، وَدَخَلَ رومِيَةَ ظافِراً . وَلَمْ يَقَعْ في تارِيخِ البَشَرِيَّةِ حادِثٌ فاصِلٌ نَظيرُ هٰذا .

لا بُدَّ أَن يَكونَ أَمْرٌ ما قَدْ حَمَلَ قُسْطَنْطينَ عَلى أَنْ يَخْتارَ شِعارَ[٦] ٱلمَسيحيّينَ قَبْلَ خَوْضِ ٱلمَعْرَكَةِ . وَقَدْ أَلِفَ عُظَماءُ الرِّجالِ قَديماً أَنْ يَسْتَرْشِدوا[٧] ، وَيَسْتَفْتِحوا مَغاليقَ[٨] ٱلمُسْتَقْبَلِ بِٱنْدِلاقِ[٩] أَمْعاءِ[١٠] حَيوانٍ ، أَوْ بِطَيَرانِ طائِرٍ . وَقَدْ ٱسْتَعانَ مَكْسِنْسِيُوسُ بِآلِهَةِ الرّومانِيّينَ ٱلقَديمَةِ فَٱنْكَسَرَ ، وَحارَبَ قُسْطَنْطينُ تَحْتَ رايَةِ[١١] إِلٰهِ النَّصارى فَٱنْتَصَرَ . وَكانَتِ ٱلخُطَّةُ

---

(١) القى اليه الخبر : ابلغه اياه . (٢) الباعث : السبب . (٣) المباشر : الاقرب . (٤) الاعلام : الرايات . (٥) الرحى : الطاحون . (٦) الشعار : العلامة . (٧) استرشد : طلب الهداية . (٨) مغاليق جمع مغلاق : ما يغلق به الباب وغيره . (٩) اندلق الشيء : خرج من مكانه . (١٠) الأمعاء : مصارين البطن . (١١) الراية : علم الجيش .



قسطنطين الكبير

ٱلْمُثْلى [١] لِمِثْلِ هٰؤُلاءِ الرِّجالِ أَنْ يَدينوا لِلْإِلٰهِ ٱلأَقْوى ويُعْلِنوا لَهُ ٱلوَلاءَ [٢].

وَقَدْ دانَ قُسْطَنْطينُ نَفْسُهُ بِالنَّصْرانِيَّةِ شُكْراناً لِإِلٰهِ النَّصارى. وَسارَ قاصِداً إِلى مَدينَةِ ميلانو، فَالْتَقى زَميلَهُ، ٱلأَغُسْطُسَ ليسِنْيوسَ، فَزَوَّجَهُ أُخْتَهُ قُسْطَنْسِيا، وَأَصْدَرا مَعاً مَرْسومَ [٣] ميلانو، سَنَةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ وَثَلاثِ مِئَةٍ، وَأَباحا [٤] فيهِ الدّينَ ٱلمَسيحِيَّ في ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ كُلِّها. وَبَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ قُسْطَنْطينُ سائِرَ الطّامِعينَ في ٱلعَرْشِ، غَدا إِمْبَراطورَ ٱلمَغْرِبِ، وَليسِنْيُوسُ إِمْبَراطورَ ٱلمَشْرِقِ. وَلَمْ يُتَحْ لِلْأَمْبَراطورَيْنِ، مَعَ ذٰلِكَ، أَنْ يَعيشا في سَلامٍ. فَفي سَنَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَثَلاثِ مِئَةٍ، نَشِبَتِ ٱلحَرْبُ بَيْنَهُما، ثُمَّ تَعاقَدا [٥] عَلى صُلْحٍ ٱسْتَمَرَّ [٦] تِسْعَ سَنَواتٍ. وَفي سَنَةِ إِحْدى وَعِشْرينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ أَثارَ ليسِنْيُوسُ ٱضْطِهاداً عَلى ٱلمَسيحِيّينَ، كانَ سَبَباً في هَلاكِهِ. وَغَدا قُسْطَنْطينُ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ، ٱلإِمْبَراطورَ ٱلوَحيدَ في ٱلمَشْرِقِ

---

(١) الخطة المثلى : الطريقة الفضلى . (٢) الولاء : الصداقة والمناصرة . (٣) المرسوم : الامر الذي يصدره الولاة والملوك (٤) أباح : أجاز . (٥) تعاقدا : تعاهدا واتفقا (٦) استمر : دام .

والمَغْربِ ، فعـادَ شَكْلُ الحُـكْمِ القَديمِ إلى الإمْبَراطوريَّةِ ، مَرَّةً أُخْرى .

وَفي سَنَةِ ستٍّ وَعِشْرينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ ، فيما كانَ قُسْطَنْطينُ يَحْتَفِلُ في رومِيَةَ بِانْقِضاءِ عِشْرينَ سَنَةً عَلى مُلْـكِهِ ، وَقَعَ حادِثٌ رَهيبٌ . وَكانَ قُسْطَنْطينُ قَدْ تَزَوَّجَ مَرَّتَيْنِ ، وَوُلِدَ لَهُ مِنْ زَوْجَتِهِ الأُولى ، مِنرْفينـا ، وَلَدٌ دَعاهُ كِرِسْبوسَ ، وَوُلِدَ لَهُ مِنْ زَوْجَتِهِ الثّانِيَـةِ ، فوسْتا ، ثَلاثُ بَناتٍ وَثَلاثَةُ أَوْلادٍ . فاتَّهَمَتْ كِرِسْبوسَ زَوْجَةُ أَبيهِ بالخِيانَةِ ، فَأَمَرَ قُسْطَنْطينُ أَنْ يُخْرَجَ ابْنُهُ خارِجَ المَدينَـةِ وَيُقْتَلَ . غَيْرَ أَنَّ هيـلانَةَ ، أُمَّ قُسْطَنْطينَ ، بَيَّنَتْ لِابْنِها بَراءَةَ كِرِسْبوسَ ، فَأَمَرَ أَنْ تُخْنَقَ زَوْجَتُهُ في الحَمّامِ . وَيَعْسُرُ عَلَيْنا ، لَدى سَماعِنا بِمِثْلِ هٰذِهِ القَسْوَةِ ، أَنْ نُصَدِّقَ أَنَّ قُسْطَنْطينَ كانَ في غَيْرِ هٰذِهِ الأَحْوالِ حَليمًا [1] رَقيقَ العَواطِفِ . بَيْدَ أَنَّ لِلطَّبيعَةِ البَشَرِيَّةِ مِنَ التَّناقُضِ [2] شَيْئًا عَجَبًا .

وَمِمّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ مِنْ حَسَناتِ قُسْطَنْطينَ أَنَّهُ كانَ دائِمًا أَمينًا مُخْلِصًا لِهيلانَةَ أُمِّهِ ، خُصوصًا بَعْدَ أَنْ طَلَّقَها أَبوهُ ، لَمّا أَرادَ

---

(١) الحليم : ذو الحلم والصفح . (٢) التناقض : التخالف .

أَنْ يَتَزَوَّجَ تِيودورا ، إِحْدى نساءِ الطَّبَقَةِ الرّاقِيَةِ . وَ قَدِ اُسْتَدْعى قُسْطَنْطِينُ أُمَّهُ إِلى اُلبَلاطِ اُلإِمْبَراطورِيِّ ، بَعْدَ وَفاةِ أَبيهِ ، وَمَنَحَها لَقَبَ أُغُسْطا ، وَأَمَرَ أَنْ تُكَرَّمَ اُلإِكْرامَ اُللائِقَ بِأُمِّ اُلعاهِلِ (١) ، وَأَنْ تُضْرَبَ (٢) نُقودٌ ، عَلَيْها صورَتُها . وَدانَتْ هيلانَةُ بِالنَّصْرانِيَّةِ بِتَأْثيرِ وَلَدِها ، وَقيلَ إِنَّها قَدِمَتْ لِزِيارَةِ اُلأَماكِنِ اُلمُقَدَّسَةِ في فِلِسْطينَ . وَعُنِيَتْ بِاُسْتِنْفاضِ (٣) فِلِسْطينَ لِتُعَيِّنَ أَماكِنَ دينِها اُلمُقَدَّسَةَ ، وَاُبْتَنَتْ كَنيسَتَيْنِ ، إِحْداهُما في بَيْتَ لَحْمَ ، وَاُلأُخْرى عَلى جَبَلِ الزَّيْتونِ ، قَريباً مِنْ أُورَشَليمَ .

وَفي التَّاريخِ أَيْضاً أَنَّها هِيَ الَّتي كَشَفَتْ عَنِ اُلخَشَبَةِ ، الَّتي صُلِبَ عَلَيْها السَّيِّدُ اُلمَسيحُ ، وَكانَتْ مَخْبوءَةً في مَغارَةٍ ، عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ قَبْرِهِ . وَتُوُفِّيَتْ في اُلقُسْطَنْطينِيَّةِ نَحْوَ سَنَةِ ثلاثينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ ، في الثَّمانينَ مِنْ عُمْرِها . وَكانَ قُسْطَنْطينُ حاضِراً عِنْدَ وَفاتِها .

وَاُعْتَزَمَ قُسْطَنْطينُ ، سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ ،

---

(١) العاهل . الملك : الأعظم (٢) ضرب النقود : سبكها وطبعها . (٣) استنفض المكان نظر جميع ما فيه حتى يعرفه .

أَنْ يَنْقُلَ مَرْكَزَ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ مِنْ رومِيَةَ إِلى الشَّرْقِ. وَفَكَّرَ أَن يَكونَ ذٰلِكَ في مَوْقِعِ مَدينَةِ سَرْدَةَ، أَوْ في مَوْقِعِ مَدينَةِ طِرْوادَةَ، وَلٰكِنَّهُ ٱخْتارَ ٱلقُسْطَنطينِيَّةَ أَخيراً مَوْقِعاً لِلْعاصِمَةِ ٱلجَديدَةِ. وَلِكَيْ يَحولَ[1] قُسْطَنطينُ دونَ ٱضْطِراباتٍ جَديدَةٍ في ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ، وَلِكَيْ يُزايِلَ[2] عاداتِ رومِيَةَ ٱلجُمْهورِيَّةَ وَالوَثَنِيَّةَ، رَأَى مِنَ ٱلأَوْفَقِ أَنْ يَنْقُلَ عاصِمَتَهُ إِلى ٱلمَشْرِقِ، وَخاصَّةً إِلى القُسْطَنْطينِيَّةِ الَّتي كانَتْ تُدْعى بيزَنْطِيَةَ في ٱلأَصْلِ، لِأَنَّها كانَتِ ٱلمَرْكَزَ ٱلأَوْسَطَ لِمُمْتَلَكاتِهِ ٱلواسِعَةِ ٱلمُتَرامِيَةِ ٱلأَطْرافِ[3]. هُناكَ لَمْ يَكُنْ مَجْلِسُ شُيوخٍ، وَلا قَناصِلُ، يَحْبِسونَ[4] سُلْطَتَهُ ٱلمُطْلَقَةَ. وَبَذَلَ ٱلمُسْتَطاعَ لِتَوْسيعِ نِطاقِ ٱلمَدينَةِ ٱلجَديدَةِ، وَتَحْصينِها وَتَجْميلِها.

وَعُنِيَ قُسْطَنْطينُ، في السَّنَواتِ ٱلعَشْرِ ٱلأَخيرَةِ مِن مُلْكِهِ، بِرَفْعِ ٱلمُسْتَوَى ٱلأَدَبِيِّ وَالسِّياسِيِّ وَٱلِاقْتِصادِيِّ في بِلادِهِ، وَٱهْتَمَّ بِأَمْرِ إِدارَةِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ في ٱلمُسْتَقْبَلِ. فَوَلَّى ٱبْنَيْ أُخْتِهِ،

---

(١) حال دون الشيء : حجزه وصده . (٢) زايله : فارقه . (٣) ترامت أطراف المملكة : اتسعت أرجاؤها (٤) حبس سلطته : ضبطها .

دَلْماسِيوسَ وَهَنِيبالِيانوسَ ، بَعْضَ ٱلوِلاياتِ ، وَعَيَّنَ أَوْلادَهُ الثَّلاثَةَ ، قُسْطَنْسِيوسَ ، وَقُسْطَنْطينوسَ ، وَقُسْطَنْسَ ، لِيَتَوَلَّوا شُؤُونَ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَقُبَيْلَ وَفاتِهِ ، اُضْطَرَّتْهُ ٱلأَعْمالُ ٱلعِدائِيَّةُ ٱلَّتي بَدَتْ مِنْ مَلِكِ ٱلفُرْسِ ، سابورَ ، أَنْ يَنْزِلَ إِلى ميدانِ ٱلقِتالِ مَرَّةً أُخْرى . وَفيما كانَ مُتَأَهِّبًا لِلزَّحْفِ إِلى العَدُوِّ أَصابَتْهُ عِلَّةٌ ، ماتَ بِها ، في شَهْرِ أَيّارَ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلاثينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ ، بَعْدَ ٱلمَسيحِ . وَدُفِنَ في القُسْطَنْطينِيَّةِ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ قُسْطَنْطينَ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُظَماءِ الرِّجالِ ، وَإِنَّما كانَ عَظيمًا بِٱلعَمَلِ ٱلَّذي تَمَّ عَلَى يَدِهِ ، لا بِشَخْصِيَّتِهِ . غَيْرَ أَنَّ في تاريخِ العالَمِ عَظائِمَ كَثيرَةً ، قامَ بِها رِجالٌ نَعُدُّهُمْ عُظَماءَ ، وَيَكادُ يَكونُ مِنَ ٱلمَجْزومِ فيهِ[1] أَنَّها لَمْ تَكُنْ لِتَتِمَّ إِلاَّ عَلَى يَدِ هٰؤُلاءِ الرِّجالِ .

وَلِماذا دُعِيَ قُسْطَنْطينُ كَبيراً ؟

إِنَّهُ دُعِيَ كَذٰلِكَ أَوَّلاً ، لِأَنَّهُ مَنَحَ ٱلإِمْبَراطورِيَّةَ ٱلعَظيمَةَ

---

(١) المجزوم فيه : المقطوع والمسلم به .

ٱلْحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ ، بِٱسْتِبْدالِهِ ٱلْوَثَنِيَّةَ بِالدِّينِ ٱلْمَسِيحِيِّ . وَهٰذا الدِّينُ ٱلْمَسِيحِيُّ قَدْ أَثَّرَ هُوَ أَيْضاً ، لَمّا حانَ الأَوانُ ، في ٱلْبَرابِرَةِ، ٱلَّذينَ كانوا كالنُّسورِ يَرْقُبونَ الإِمْبَراطورِيَّةَ ٱلْمُنازِعَةَ ، وٱسْتَبْقى لَنا شَيْئاً مِنَ ٱلْمَدَنِيَّةِ الرّومانِيَّةِ ٱلعَظيمَةِ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَنْشَأَ رومِيَةً جَديدَةً في النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الإِمْبَراطورِيَّةِ، وَقَدْ سَقَطَتْ رومِيَةُ نَفْسُها ، وَٱلْقِسْمُ الغَرْبِيُّ مِنَ الإِمْبَراطورِيَّةِ ، سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ ، أَمامَ تَدَفُّقِ ٱلْبَرابِرَةِ وَٱكْتِساحِهِمْ[١]، غَيْرَ أَنَّ ٱلْقِسْمَ الشَّرْقِيَّ، ٱلَّذي كانَتِ ٱلْقُسْطَنْطينِيَّةُ عاصِمَتَهُ ، ظَلَّ قائِماً أَلْفَ سَنَةٍ أُخْرى ، حَتّى سَنَةِ ثَلاثٍ وَخَمْسينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ وَأَلْفٍ .

ثُمَّ إِنَّ روحاً جَديدَةً تَبَدَّتْ[٢] في شَرائِعِهِ الصّادِرَةِ عَنْ رَأْفَةٍ[٣] وَحَنانٍ . فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ كانَ ، في أَيّامِ وَثَنِيَّتِهِ يُلْقي ٱلْمُلوكَ ٱلْبَرابِرَةَ طُعْمَةً لِلْوُحوشِ ، حَظَرَ ٱلْمَلاحِمَ[٤] في ٱلْمَقاوِسِ وَٱلْمَيادينِ . وَلَمْ يَفْعَلْ أَحَدٌ قَديماً أَكْثَرَ مِمّا فَعَلَهُ لِإِصْلاحِ حالِ

---

(١) اكتسح البلاد : ذهب بما فيها . (٢) تبدت : ظهرت . (٣) الرأفة : أشد الرحمة . (٤) الملاحم جمع ملحمة : المقتلة العظيمة ، وحظرها : منعها .

ٱلعَبيدِ وٱللُقَطاءِ[١] . فَقَدْ أَصْدَرَ ما لا يَقِلُّ عَنْ ثَلاثِ مِئَةٍ مِنَ ٱلأَحْكامِ ، لإِصْلاحِ ٱلهَيْئَةِ ٱلاجْتِماعِيَّةِ ، نُصَّ فيها عَلَى التَّرَفُّقِ[٢] بِٱلأَسْرى وَالعَبيدِ . وَفَرَضَ عُقوباتٍ شَديدَةً عَلَى ما يَمَسُّ ٱلأَخْلاقَ . وَمِنَ المُحَقَّقِ أَنَّ قُسْطَنْطينَ كانَ في وَسْعِهِ أَنْ يُنْقِذَ أَعْظَمَ إِمْبَراطورِيّاتِ ٱلعالَمِ ، بَيْدَ أَنَّهُ جاءَ مُتَأَخِّراً .

وَقَدْ أَراحَ أُورُبّا ، وَقِسْماً عَظيماً مِنْ آسِيا مِنَ ٱلاضْطِهادِ الدّينيِّ ، وَأَتاحَ[٣] لِلإِمْبَراطورِيَّةِ الرّومانيَّةِ أَنْ تَبْقى أَلْفَ سَنَةٍ أُخْرى عَلى ٱلبُسْفورِ ، وَأَقامَ ٱلمُجْتَمَعَ عَلى أُسُسٍ جَديدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ كانَ قائِماً عَلى أَعْتِمالِ[٤] العَبيدِ . وَلِذا ٱسْتَحَقَّ قُسْطَنْطينُ ٱلكَبيرُ أَنْ يُعَدَّ في مَصافِّ[٥] عُظَماءِ التاريخِ .



(١) اللقطاء جمع لقيط : المولود المنبوذ . (٢) الترفق : المعاملة بلطف . (٣) أتاح = هيأ ويسر . (٤) الاعتمال : العمل المجهد . (٥) المصاف جمع مصف : الصف .

عمر بن الخطاب

كانَتْ بِلادُ ٱلعَرَبِ ، الَّتي فاجَأَتِ ٱلعالَمَ ، في ٱلقَرْنِ السَّابِعِ ، بِما صَرَفَ إِلَيْها ٱلعِنايَةَ وَٱلِاهْتِمامَ ، تُعْرَفُ بِأَنَّها مَوْطِنُ ٱلعُنْصُرِ السَّامِيِّ . وَقَدْ جاوَرَتْ أَمْصاراً[1] ذاتَ حَضارَةٍ راقِيَةٍ ، مُدَّةً تُرْبي[2] عَلى أَلْفَيْ سَنَةٍ ، وَلَمْ يُكْتَرَثْ لَها ، مَعَ ذٰلِكَ ، كَبيرَ ٱكْتِراثٍ ، لِأَنَّ الصَّحْراءَ قَدْ فَصَلَتْها عَنِ ٱلحَضارَةِ ٱلكَبيرَةِ ، وَعَنْ تِلْكَ ٱلمَجاري ٱلعَسْكَرِيَّةِ ، الَّتي كانَتْ لا تَنْفَكُّ غادِيَةً رائِحَةً[3] بَيْنَ نَهْرَيِ النِّيلِ وَٱلفُراتِ . وَقَدْ هَمَّ ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلكَبيرُ أَنْ يَبْعَثَ سَرايا[4] مِنْ جَيْشِهِ إِلى تِلْكَ ٱلبِلادِ ، الَّتي كادَتْ أَنْ تَكونَ مَجْهولَةً ، غَيْرَ أَنَّ ٱلمَنِيَّةَ عاجَلَتْهُ ، سَنَةَ ثَلاثٍ وَعِشْرينَ وَثَلاثِ مِئَةٍ ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذٰلِكَ . وَلَوْ أُتيحَ لِلْإِسْكَنْدَرِ أَنْ يَضُمَّ بِلادَ ٱلعَرَبِ إِلى إِمْبَراطورِيَّتِهِ ، لَعَرَفْنا أَكْثَرَ مِمَّا نَعْرِفُهُ عَنِ ٱلمَمالِكِ ٱلأَرْبَعِ ٱلمُتَحَضِّرَةِ[5] الَّتي نَعْلَمُ أَنَّها

---

(١) الامصار : الأقطار . (٢) تربي : تزيد . (٣) غادية رائحة : منطلقة راجعة .
(٤) سرايا جمع سرية : قطع الجيش . (٥) المتحضره : المتمدنة .

نَشَأَتْ هُناكَ وازْدَهَرَتْ، قبْلَ زَمَنِ ٱلإِسْكَنْدَرِ. وَهٰذِهِ ٱلمَمالِكُ ٱلأَرْبَعُ هِيَ مَمْلَكَةُ مَعِينَ، وَسَبَأ، وَحَضْرَمَوتَ، وَقَطَبانَ.

وَلَعَلَّ أَعْظَمَ هٰذِهِ ٱلمَمالِكِ خَطَراً ٱلمَمْلَكَةُ السَّبَئِيَّةُ، الَّتي زارَتْ إِحْدى مَلِكاتِها سُلَيْمانَ، نَحْوَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَتِسْعِ مِئَةٍ، قَبْلَ المَسيحِ. وَفي نَحْوِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَمِئَةٍ، قَبْلَ ٱلمَسيحِ، اِنْتَقَلَ ٱلمُلْكُ مِنَ السَّبَئِيّينَ إِلى قَوْمٍ مِنْ أَقْصى ٱلجَنوبِ ٱلغَرْبِيِّ مِنْ بِلادِ العَرَبِ، يُقالُ لَهُمُ ٱلحِمْيَرِيّونَ. وَقَدْ حاوَلَ الرّومانيّونَ وَقْتَئِذٍ، بِقِيادَةِ إِلْيوسَ غَلّوسَ، قائِدِ ٱلجُيوشِ الرّومانيَّةِ في مِصْرَ، أَنْ يَغْزوا بِلادَ ٱلعَرَبِ، إِلاّ أَنَّ ٱلأَدِلاّءَ[1] غَدَروا بِٱلجَيْشِ الزّاحِفِ عَلَيْها، فَتاهَ في رِمالِ الصَّحْراءِ وَبادَ أَكْثَرُهُ.

وَفيما بَعْدُ، أَخَذَ ٱلأَحْباشُ، وَكانوا قَدْ رَحَلوا قَديماً مِنْ بِلادِ ٱلعَرَبِ إِلى السّاحِلِ المُحاذي[2] مِنْ أَفْريقِيَةَ، يَعودونَ وَيَنْحَدِرونَ إِلى جَنوبِيِّ بِلادِ ٱلعَرَبِ. وَأَخَذَ عَدَدُهُمْ يَزْدادُ عَلى تَوالي ٱلأَيّامِ، فَتَمَكَّنوا في نَحْوِ سَنَةِ ثَلاثِ مِئَةٍ بَعْدَ المَسيحِ، أَنْ يَخْلَعوا ٱلمُلوكَ ٱلحِمْيَرِيّينَ، وَيُقيموا مُلوكاً مِنْ بَني جِلْدَتِهِمْ[3].

---

(١) ادلاء جمع دليل: مرشد. (٢) المحاذي: المقابل. (٣) من بني جلدتهم: من جنسهم.

وَلَمْ يَرْكَنِ ٱلحِمْيَرِيّونَ إِلى السُّكونِ ، بَلْ ظَلَّ الخِلافُ قائِمًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلأَحْباشِ إِلى أَنِ ٱسْتَطاعوا أَنْ يُقيموا مَمْلَكَةً سَبَئِيَّةً ، اتَّخَذَتِ اليَهودِيَّةَ دينًا . وَمِنْ أَشْهَرِ مُلوكِها رَجُلٌ ، يُقالُ لَهُ ذو نُوَاسَ . وَغَدا النِّزاعُ بَيْنَ هٰؤُلاءِ ٱلمُلوكِ وَٱلأَحْباشِ نِزاعًا بَيْنَ اليَهودِيَّةِ وَٱلمَسيحِيَّةِ . وَٱشْتَدَّ ٱلِاضْطِهادُ عَلَى ٱلمَسيحِيّينَ فَٱسْتَنْجَدوا بِالبيزَنْطِيّينَ ، فَأَعانوا عَلَى كَسْرِ شَوْكَةِ [1] اليَهودِ وَثَلِّ [2] مُلْكِهِمْ . وَكانَ ذٰلِكَ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ .

وَفي سَنَةِ سَبْعينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ ، زَحَفَ أَبْرَهَةُ ، نائِبُ مَلِكِ ٱلحَبَشَةِ ، إِلى مَكَّةَ يَبْغي ٱلِاسْتيلاءَ عَلَيْها وَلَكِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِطائِلٍ [3] . وَٱسْتَعانَ أَعْداءُ ٱلمَسيحِيَّةِ ، بَعْدَ خَمْسِ سَنَواتٍ ، بِٱلفُرْسِ ، فَأَخْرَجوا ٱلأَحْباشَ مِنَ ٱليَمَنِ وَجَعَلوا عَلَيْها عُمّالاً مِنْ قِبَلِهِمْ .

وَيَجْدُرُ بِنا قَبْلَ ٱلِانْتِقالِ إِلى زَمَنِ مُحَمَّدٍ ، أَنْ نَذْكُرَ ثَلاثَ مَمالِكَ هِيَ : ٱلحيرَةُ ، وَغَسّانُ ، وَكِنْدَةُ .

وَتَقَعُ مَمْلَكَةُ ٱلحيرَةِ بَيْنَ نَهْرِ ٱلفُراتِ وَصَحْراءِ بِلادِ ٱلعَرَبِ . وَكانَتْ عاصِمَتُها ٱلحيرَةَ ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ مَدينَةِ ٱلكوفَةِ .

---

(١) كسر شوكته : اضعف قوته . (٢) ثل : هدم . (٣) لم يظفر بطائل : لم يفز بشيء مفيد .

وَلَسْنا نَعْرِفُ مِنْ تارِيخِها ٱلقَدِيمِ إِلاَّ ٱلقَلِيلَ. بَيْدَ أَنَّهُ، في نَحْوِ ٱلقَرْنِ الثَّالِثِ، قامَتْ فِيها دَوْلَةُ ٱللَخْمِيِّينَ، وَقَدْ كَثُرَ وُرُودُ ذِكْرِهِمْ في تارِيخِ ٱلعَرَبِ وَأَشْعارِهِمْ، وَدامَتْ حَتَّى سَنَةِ ٱثْنَتَيْنِ وَسِتِّ مِئَةٍ. وَلَمْ تَكُنِ ٱلحِيرَةُ مُسْتَقِلَّةً في زَمَنٍ مِنَ ٱلأَزْمانِ، بَلْ كانَتْ خاضِعَةً لِلْفُرْسِ عَلى الدَّوامِ.

وَفي مُسْتَهَلِّ[1] ٱلقَرْنِ السَّادِسِ، دَخَلَتْ دَوْلَةٌ جَدِيدَةٌ، عُرِفَتْ بِدَوْلَةِ ٱلجَفْنِيِّينَ، في تارِيخِ ٱلإِمْبَراطورِيَّتَيْنِ ٱلبِيزَنْطِيَّةِ والفارِسِيَّةِ. وَقَدْ تَسَلَّطَ هٰؤُلاءِ ٱلجَفْنِيُّونَ عَلَى قَبِيلَةِ غَسَّانَ، وَكانَتْ قَدْ جاءَتْ مِنَ ٱلجَنوبِ، وَأَنْشَأَتْ مَمْلَكَةً إِلى ٱلجَنوبِ مِنَ ٱلبَتْراءِ. وَفي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، أَدْرَكَ ٱلإِمْبَراطورُ يُسْتِنْيانوسُ، أَنَّهُ يُحْسِنُ عَمَلاً بِٱتِّخاذِ ٱلغَسَّانِيِّينَ دَرِيئَةً[2] لِلأَمْبَراطورِيَّةِ ٱلبِيزَنْطِيَّةِ، فَأَقَرَّ مِنْهُمُ ٱلحارِثَ مَلِكاً عَلَى ٱلعَرَبِ. فَظَلَّ هٰذا ٱلمَلِكُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ مُشْتَبِكاً في حُروبٍ مُتَواصِلَةٍ مَعَ ٱلحِيرَةِ وٱلفُرْسِ. وَبَعْدَ سَنَةِ ثَلاثٍ وَثَمانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ تَداعى[3] مُلْكُ الغَسَّانِيِّينَ، وَما لَبِثَ أَنْ زالَ عِنْدَ مَجِيءِ ٱلأِسْلامِ.

---

(١) مستهل السنة : أولها . (٢) الدريئة : الستر . (٣) تداعى : تصدع من غير أن يسقط.

وَفي نَحْوِ سَنَةِ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ ، بَعْدَ ٱلْمَسِيحِ ، قامَتْ في وَسَطِ بِلادِ العَرَبِ مَمْلَكَةٌ جَديدَةٌ ، قِوامُها[١] قَبيلَةُ كِنْدَةَ . وَقَدْ جاءَتْ هٰذِهِ القَبيلَةُ مِنَ ٱلْجَنوبِ أَيْضاً . وَيَظْهَرُ أَنَّها ظَلَّتْ عَلَى الدَّوامِ خاضِعَةً لِلْيَمَنِ . وَكانَ أَمْرُؤُ القَيْسِ ، نابِغَةُ[٢] شُعَراءِ ٱلْجاهِلِيَّةِ ، مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلْمالِكِ في كِنْدَةَ .

فَيُسْتَدَلُّ مِمّا تَقَدَّمَ أَنَّ بِلادَ ٱلْعَرَبِ ، في زَمَنِ صاحِبِ الشَّريعَةِ ٱلْإِسْلامِيَّةِ ، كانَتْ آهِلَةً[٣] بِقَبائِلَ مُخْتَلِفَةٍ ، بَعْضُها عَلَى ٱتِّصالٍ قَليلٍ أَوْ كَثيرٍ بِمَمالِكِ كِنْدَةَ ، وَٱلْحيرَةِ ، وَغَسّانَ ، الَّتي كانَتْ هِيَ أَيْضاً خاضِعَةً لِلْحَبَشِ وَٱلْفُرْسِ وَٱلبيزَنْطِيّينَ ، وَبَعْضُها جَماعاتٌ أَقَلُّ عَدَداً ، كانَ يَتَوَلّى أَمْرَها أَعْضاءُ عَشائِرِها ٱلْكُبْرى ، كَما كانَ ٱلْأَمْرُ في ٱلْحِجازِ . وَفي ٱلْوَقْتِ عَيْنِهِ ، كانَ ، في أَنْحاءٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ ٱلْجَزيرَةِ ، جَماعاتٌ مِنَ البَدْوِ يَعيشونَ عَيْشَ ٱلْقَبائِلِ الرَّحّالَةِ ، وَيَحْتَمونَ أَحْياناً ، عَلَى ما يُوافِقُهُمْ ، بِٱلواحِدَةِ أَوْ بِٱلْأُخْرى مِنَ ٱلْمَمالِكِ ٱلْكَبيرَةِ . وَيَنْضافُ إِلى هٰؤُلاءِ عَدَدٌ مِنَ ٱلْقَبائِلِ وَٱلعَشائِرِ ٱلْيَهودِيَّةِ ، قامَ بَعْضُها بِجَماعاتٍ نَزَحَتْ[٤] مِنْ فِلِسْطينَ ،

---

(١) قوام الأمر: عماده (٢) النابغة: العظيم الشأن. (٣) آهلة: معمورة. (٤) نزحت: ابتعدت

وَبَعْضُها بِجَماعاتٍ دانَتْ(١) باليهودِيَّـةِ مِنَ ٱلعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَد ٱسْتَعانَ مُحَمَّدٌ نَبِيُّ ٱلإِسْلامِ، بالدِّينِ وَٱلقَوْمِيَّةِ في آنٍ واحِدٍ، أَوْ إِنَّهُ، بالأَحْرى، أَوْجَدَ شُعوراً بِكِلَيْهِما. وَقَدْ رَأى أَنَّ بِلادَ ٱلعَرَبِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِلعَرَبِ. وَأَرادَ بِهٰذا أَنَّ ما كانَ لِلأَحْباشِ وَٱلفُرْسِ وَٱلبيزَنْطِيِّينَ مِنَ النُّفوذِ، في بِلادِ ٱلعَرَبِ، يَجِبُ أَنَ يُقْمَعَ(٢)، إِذا لَمْ تَرْتَضِ هٰذِهِ ٱلأُمَمُ نَفْسُها ٱلإِسْلامَ ديناً. وَقَدْ أَخْضَعَ مُحَمَّدٌ بِلادَ العَرَبِ نَفْسَها، وَلَمَّ شَعَثَها(٣) وَوَحَّدَها، وَقامَ خُلَفاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ بِالجِهادِ(٤) وَٱلفَتْحِ، فيما وَراءَ حُدودِ الصَّحْراءِ.

وَمِمّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ أَنَّ بِلادَ ٱلعَرَبِ كانَتْ وَقْتَئِذٍ آهِلَةً بِشَعْبَيْنِ عَظيمَيْنِ، هُما عَرَبُ ٱلجَنوبِ وَعَرَبُ الشِّمالِ. وَهٰذا ٱلانْقِسامُ يَطولُ شَرْحُهُ، وَلٰكِنَّنا نَذْكُرُ أَنَّ لُغَةَ عَرَبِ الشِّمالِ، وَهِيَ ٱللُّغَةُ ٱلعَرَبِيَّـةُ الفُصْحى، ما لَبِثَتْ أَنْ أَصْبَحَتْ لُغَةَ مُعْظَمِ ٱلبِلادِ.

والظّاهِرُ أَنَّ ٱلعَرَبَ، فيما عَدا حَواشِيَ(٥) الصَّحْراءِ، لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ، في جاهِلِيَّتِهِمْ مُلوكٌ بَلْ زُعَماءُ، وَلَمْ تَنْشَأْ مِنْهُمْ أُمَمٌ، بَلْ

(١) دانت باليهودية: اتخذتها ديناً. (٢) يقمع: يصرف ويزال. (٣) لم شعثها: جمع امرها. (٤) الجهاد: القتال في سبيل الدين. (٥) حواشي: اطراف.

قَبائِلُ. وَكانوا قَبْلَ الإِسْلامِ ، لا يَزالونَ عَلَى حالٍ وَسَطٍ بَيْنَ الْهَمَجِيَّةِ والْحَضارَةِ ، دَلَّ عَلَيْهما تَدَرُّجُهُمْ في أُسْتِعْمالِ رُسومٍ لِكِتابَةِ لُغَتِهِمْ ، فيها ما فيها مِنَ النَّقْصِ. غَيْرَ أَنَّ أُحْتِكاكَهُمْ بِالْبيزَنْطِيِّينَ والْفُرْسِ أَدَّى بِهِمْ تَدْريجاً إِلى حالٍ مِنَ الْحَضارَةِ أَرْقى. وَقَدْ أَعانَتْ عَلَى ذٰلِكَ الْقَوافِلُ بِما أُقْتَبَسَتْهُ في طَريقِها.

وَقَدْ أَجْمَعَ (١) جانِبٌ كَبيرٌ مِنْ بِلادِ الْعَرَبِ عَلَى أَشْهُرٍ حُرُمٍ (٢) تَكونُ فيها مُهادَنَةٌ (٣) عامَّةٌ ، يُحَرَّمُ فيها القِتالُ. وَكانوا يُقيمونَ أَسْواقاً ، تَأْتيها الْقَبائِلُ لِلْمُتاجَرَةِ ، وَمُناشَدَةِ الْأَشْعارِ ، والِاشْتِراكِ في بَعْضِ الْحَفَلاتِ الدّينِيَّةِ . وَكانَ أَعْظَمَ هٰذِهِ الْأَسْواقِ خَطَراً سوقٌ ، تُقامُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ مَكَّةَ ، حَيْثُ الْكَعْبَةُ الْمُشَرَّفَةُ ، وَهِيَ هَيْكَلٌ صَغيرٌ ، فيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ ، الَّذي يَسْتَلِمُهُ (٤) الْحُجّاجُ تَبَرُّكاً .

وَكانَتِ السِّيادَةُ في مَكَّةَ لِقُرَيْشَ ، أَوْسَعِ الْعَشائِرِ حَضارَةً. وَكانوا سَدَنَةَ (٥) الْكَعْبَةِ ، والْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ، وبِئْرِ زَمْزَمَ ،

(١) أجمعوا على الامر : اتفقوا . (٢) حرم جمع حرام : المحرم (٣) المهادنة : المصالحة.
(٤) يستلمه : يتناوله ويمسه . (٥) سدنة جمع سادن: خادم وحاجب .

والأَصْنامِ الَّتي كانَتْ في ٱلبَيْتِ ٱلحَرامِ بِمَكَّةَ ، وَعَدَدُها سِتّونَ وَثَلاثُ مِئَةِ صَنَمٍ . فَكانوا ، والحالَةُ هٰذِهِ ، هُمُ ٱلمُشْرِفينَ [1] عَلَى أَقْدَسِ مقادِسِ [2] بِلادِ العَرَبِ . وَكانَ ٱزْدِحامُ الحُجّاجِ في كُلِّ سَنَةٍ ، يَأْتيهِمْ بِرِبْحٍ لا يُسْتَهانُ بِهِ [3] ، وَكَذٰلِكَ قَوافِلُهُمُ التِّجارِيَّةُ ، الَّتي كانَتْ لا تَنْفَكُّ مُتَرَدِّدَةً [4] بَيْنَ بُصْرى وَدِمَشْقَ ، وَغَيْرِهِما مِنَ ٱلمُدُنِ عَلَى حاشِيَةِ ٱلولاياتِ ٱلبيزَنْطِيَّةِ . وعَلى هٰذا ، كانَتْ مَكَّةُ أَرْقى مُدُنِ ٱلجَزيرَةِ حَضارَةً .

والأَرْجَحُ أَنَّ دينَ ٱلعَرَبِ ، في ٱلقَرْنِ السّادِسِ ، كانَ ديناً مادِّيًا ساذِجاً ، وَكانَ هُوَ الدّينَ ، الَّذي أَقاموا عَلَيْهِ أُلوفاً مِنَ السِّنينَ . غَيْرَ أَنَّهُمْ ، إِلى جانِبِ هٰذا الدّينِ ، الَّذي لَمْ يَتَأَصَّلْ فيهِمْ إِلى مَدًى بَعيدٍ ، كانوا يَعْبُدونَ اللّٰهَ تَعالى ، إِلٰهَ إِسْمٰعيلَ وَإِبْرٰهيمَ . وَقَدْ زادَ إِيمانَهُمْ بِإِلٰهٍ مُتَعالٍ تَأْثيرُ ٱلقَبائِلِ ٱليَهودِيَّةِ والمَسيحِيَّةِ ٱلمُنْبَثَّةِ [5] في أَنْحاءِ بِلادِهِمْ ، وَخاصَّةً عَلَى السّاحِلِ الغَرْبِيِّ .

وَكانَ ٱلبيزَنْطِيّونَ والفُرْسُ ، قَبْلَ مُحَمَّدٍ قُروناً ، قَدْ خَبَروا [6]

(١) أشرف على الشيء : اطلع عليه من فوق ، وهنا بمعنا حافظ عليه . (٢) المقادس: الاماكن المقدسة. (٣) لا يستهان به : لا يحتقر . (٤) مترددة : ذاهبة راجعة . (٥) المنبثة : المنتشرة . (٦) خبروا : علموا عن تجربة .

ما للعَرَبِ مِنَ الشِّدَّةِ وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ في القِتالِ. وَما يَسْتَطِيعُهُ فُرْسانُ الْبَدْوِ، مَتى تَيَسَّرَ لَهُمْ زَعِيمٌ يَجْمَعُ كَلِمَتَهُمْ، وَمَكانٌ يَتَأَلَّبونَ[1] فيهِ، وَقَضِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ يَذودونَ[2] عَنْها، قَدِ اتَّضَحَ أَيامَ مَجْدِ تَدْمُرَ وَازْدِهارِها، عَلى عَهْدِ أُذَيْنَةَ وَزَنّوبيا. غَيْرَ أَنَّ الْعَرَبَ كانوا في الأَعَمِّ مُنْقَسِمينَ إِلى قَبائِلَ صَغيرَةٍ لا يُخْشى خَطَرُها.
وَكانَتِ الْحَرْبُ لا تَنْفَكُّ ناشِبَةً بَيْنَ هِرَقْلَ مَلِكِ الْبيزَنْطِيّينَ، وَكِسْرى مَلِكِ الْفُرْسِ، فَأَضْعَفَ ذٰلِكَ مِنْ قُوَّةِ إِمْبَراطورِيَّتَيْهِما، وَفي الْوَقْتِ عَيْنِهِ، كانَتْ سَحابَةٌ مِنَ الْخَطَرِ، بِقَدَرِ راحَةِ[3] الْكَفِّ، تَصْعَدُ في الْجَنوبِ عَلى مَهْلٍ.

وَقَدْ وُلِدَ مُحَمَّدٌ في مَكَّةَ، بَعْدَ وَفاةِ أَبيهِ، عَبْدِ اللهِ الْقُرَشِيِّ، وَكانَ ذٰلِكَ في الْعِشْرينَ مِنْ نيسانَ، سَنَةَ إِحْدى وَسَبْعينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، بَعْدَ الْمَسيحِ. وَأَخَذَ، في نَحْوِ سَنَةِ إِحْدى عَشْرَةَ وَسِتِّ مِئَةٍ، يَعِظُ النّاسَ بِمَكَّةَ، وَيَدْعوهُمْ إِلى دينِهِ الْجَديدِ. فَلَمْ تَرُقْ دَعْوَتُهُ أَهْلَ مَكَّةَ وَاسْتَخَفّوا بِهِ أَوَّلَ الأَمْرِ، وَآذَوْهُ. فاضْطُرَّ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَهِيَ السَّنَةُ

(١) يتألبون: يتجمعون. (٢) يذودون: يدافعون. (٣) الراحة: الكف

ٱلأُولى لِلهِجْرَةِ ، أَنْ يُغادِرَ مَكَّةَ إِلى ٱلمَدينَةِ ، فَٱحْتَفى بِهِ[١] أَهْلُها ، وَكانوا مِنْ أَنْصارِهِ .

وَلَمْ تَلْبَثِ ٱلحَرْبُ أَنْ نَشِبَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَٱلمَدينَةِ ، وَكانَ ٱلفَوْزُ لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحابِهِ . وَما جاءَتْ سَنَةُ ثَلاثينَ وَسِتِّ مِئَةٍ ، حَتّى كانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قَضى عَلى[٢] كُلِّ مُقاوَمَةٍ ، وَخَضَعَتْ لَهُ بِلادُ ٱلعَرَبِ بِأَسْرِها ، وَرَضِيَتِ ٱلإِسْلامَ دينًا . وَأَخَذَ بَعْدَ حينٍ يَتَأَهَّبُ لِإِرْسالِ ٱلجُيوشِ لِمُحارَبَةِ البيزَنْطِيّينَ وٱلفُرْسِ ، فَحالَتْ مَنِيَّتُهُ[٣] دونَ ذٰلِكَ . وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَثَلاثينَ وَسِتِّ مِئَةٍ ، بَعْدَ ٱلمَسيحِ ، عَنْ عَمَلٍ ناجِزٍ[٤] ، وَدانَتْ بِلادُ العَرَبِ بِٱلإِسْلامِ ، وَأَخَذَ أَهْلُ هٰذا الدّينِ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَنْشُروهُ مِنْ سَواحِلِ ٱلمُحيطِ ٱلأَطْلَسِيِّ إِلى جَزائِرِ مَلَقّا .

وَعَلى أَثَرِ وَفاةِ مُحَمَّدٍ قَرَّ رَأْيُ ٱلعَرَبِ عَلى ٱنْتِخابِ زَعيمٍ لَهُمْ يَخْلُفُهُ ، فَوَقَعَ ٱلِاخْتِيارُ عَلى أَبي بَكْرٍ ، فَكانَ أَوَّلَ خَليفَةٍ ، وَذٰلِكَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَثَلاثينَ وَسِتِّ مِئَةٍ . وَقامَ بَعْدَ وَفاةِ مُحَمَّدٍ ،

---

(١) احتفى به : بالغ في اكرامه . (٢) قضى عليه : اهلكه. (٣) المنية : الموت.
(٤) الناجز : التام .

أَنبيائِهِ كَذَبَةٌ ، وَٱرْتَدَّتْ قَبائِلُ كَثيرَةٌ عَنِ ٱلإِسْلامِ ، وَعَظُمَتِ ٱلفِتَنُ ، غَيْرَ أَنَّ أَبا بَكْرٍ ما لَبِثَ بِمُؤَازَرَةِ[1] القائِدِ الباسِلِ خالِدِ بْنِ ٱلوَليدِ أَنْ أَعادَ النِّظامَ إِلى نِصابِهِ . وَكانَتْ خِلافَةُ أَبي بَكْرٍ دونَ السَّنَتَيْنِ ، أَقامَ فيهِما ٱلخِلافَةَ عَلى أَساسٍ وَطيدٍ[2] ، وَبَعَثَ ٱلجيوشَ لِفَتْحِ ٱلأَقْطارِ ٱلمُجاوِرَةِ ، فَكانَ النَّصْرُ حَليفَها . وَلَمّا أَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ ، أَوصى بِٱلخِلافَةِ مِنْ بَعْدِهِ لِعُمَرَ بْنِ ٱلخَطّابِ . وَهٰذِهِ صورَةُ ٱلعَهْدِ ٱلَّذي ٱسْتَخْلَفَهُ[3] بِهِ .

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ . هٰذا عَهْدُ أَبي بَكْرِ بْنِ قُحافَةَ ، عِنْدَ آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنيا خارِجاً مِنْها ، وَأَوَّلِ عَهْدِهِ بِٱلآخِرَةِ داخِلاً فيها . حَيْثُ يُؤْمِنُ ٱلكافِرُ ، وَيَشْقى ٱلفاجِرُ[4] وَيَصْدُقُ الكاذِبُ ، إِنّي أَمَّرْتُ[5] عَلَيْكُمْ عُمَرَ بْنَ ٱلخَطّابِ ، فَإِنْ عَدَلَ وَٱتَّقى ، فَذاكَ ظَنّي بِهِ ، وَرَجائي فيهِ ، وَإِنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ ، فَٱلخَيْرَ أَرَدْتُ ، وَلا يَعْلَمُ ٱلغَيْبَ إِلاَّ اللهُ » .

فَلَمّا آلَتِ ٱلخِلافَةُ إِلى عُمَرَ ، وَذٰلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاثينَ

---

(١) المؤازرة : المعاونة . (٢) الوطيد : القوي . (٣) استخلفه : جعله خليفة له . (٤) الفاجر : الذي يركب المعاصي . (٥) أمرته : جعلته أميراً .

وَسِتٌّ مِئَةٍ، دَعاهُ النَّاسُ خَليفَةَ خَليفَةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَمْ يَلْبَثوا أَنْ عَدَلوا عَنْ هٰذا اللَّقَبِ لِطولِهِ، وَاسْتَبْدَلوهُ بِلَقَبِ «أَميرِ المُؤْمِنينَ» فَكانَ هُوَ اللَّقَبَ الَّذي لَزِمَهُ وَلَزِمَ خُلَفاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ. وَلَمّا خَطَبَ النَّاسَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، صَعِدَ المِنْبَرَ، وَقَعَدَ عَلَى دَرَجَةٍ دونَ مَقْعَدِ أَبي بَكْرٍ قَبْلَهُ، وَقالَ:

«أَيُّها النّاسُ! قَدْ وُلّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ. فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعينوني، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّموني[1]. الصِّدْقُ أَمانَةٌ، والكَذِبُ خِيانَةٌ، والضَّعيفُ فيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدي حَتّى آخُذَ لَهُ حَقَّهُ، وَالقَوِيُّ ضَعيفٌ عِنْدي حَتّى آخُذَ الحَقَّ مِنْهُ. وَإِنَّما مَثَلُ العَرَبِ مَثَلُ جَمَلٍ أَنِفٍ[2] اتَّبَعَ قائِدَهُ، فَلْيَنْظُرْ قائِدُهُ حَيْثُ يَقودُهُ. وَأَمّا أَنا فَوَرَبِّ الكَعْبَةِ لَأَحْمِلَنَّكُمْ[3] عَلى الطَّريقِ».

وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ جُيوشَ الإِسْلامِ ازْدادَتْ بِعُمَرَ قُوَّةً وَنَشاطاً. وَكانَتْ أَوامِرُهُ إِلى قُوّادِهِ تَدُلُّ عَلَى حُنْكَةٍ[4] وَخِبْرَةٍ واسِعَةٍ بِفُنونِ الحَرْبِ. وَتَدَفَّقَ المالُ الوَفْرُ عَلَى بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ،

---

(١) قوموني: ازيلوا اعوجاجي. (٢) أنف البعير: اشتكى أنفه. (٣) حمله على الطريق: أكرهه على السير فيها (٤) الحنكة: الخبرة في الأمور.

وَجُعِلَ التَّصَرُّفُ فيهِ لِعُمَرَ ، وَظَلَّ عُمَرُ ، مَعَ ذٰلِكَ ، يَعيشُ عَيْشاً خَشِناً قانِعاً بِالْيَسيرِ . وَكانَ يَقْضي الشَّطْرَ[1] مِنْ وَقْتِهِ يَعِظُ النَّاسَ ، والشَّطْرَ الْآخَرَ يُقيمُ العَدْلَ فيهِمْ . وَكانَ يَصْنَعُ طَعامَهُ مِنَ السَّويقِ[2] والْماءِ عَلى دَرَجِ الْمَسْجِدِ ، وَيَدْعو كُلَّ مَنْ يَمُرُّ بِهِ لِيُشاطِرَهُ ذٰلِكَ الطَّعامَ .

وَلا غَرْوَ[3] أَنْ كانَ النَّصْرُ حَليفَ الْمُسْلِمينَ ، وَقَدْ كانَ هٰذا الرَّجُلُ قائِدَهُمْ ، وَتِلْكَ الْجُيوشُ جُيوشَهُمْ ، وأَعْداؤُهُمْ عَلى أَسْوَإِ حالٍ مِنَ الضَّعْفِ والتَّضَعْضُعِ[4] . وَقَدْ حَمَلَ الْمُسْلِمونَ عَلى الْبيزَنْطِيّينَ والْفُرْسِ في وَقْتٍ واحِدٍ ، وَظَلَّ الفَوْزُ في الْحَمْلَةِ الواحِدَةِ مُسايِراً[5] لِلْفَوْزِ في الْحَمْلَةِ الثّانِيَةِ رَدَحاً مِنَ الزَّمَنِ .

وَكانَ الْمُسْلِمونَ ، عَلى عَهْدِ أَبي بَكْرٍ ، قَدِ اسْتَوْلَوْا عَلى مُعْظَمِ فِلِسْطينَ ، غَيْرَ أَنَّ مَدينَتَيْ دِمَشْقَ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ ظَلَّتا في حَوْزَةِ[6] جُيوشِ الْإِمْبَراطورِ الْبيزَنْطِيِّ ، الَّذي اضْطُرَّ ، لَمّا رَأى الْخَطَرَ قَدِ اشْتَدَّ ، أَنْ يَنْزِلَ بِنَفْسِهِ إِلى ميدانِ الْقِتالِ . وَأُلْجِئَ

(١) الشطر : جزء الشيء ونصفه . (٢) السويق : الناعم من دقيق الحنطة والشعير . (٣) لا غرو : لا عجب . (٤) التضعضع : الضعف وسوء الحال . (٥) سايره : سار معه . (٦) الحوزة : الناحية .

ٱلمُسْلِمونَ ، بَعْدَ ٱسْتيلائِهِمْ عَلَى دِمَشْقَ وَمُعْظَمِ فِلِسْطينَ وَسورِيّا، أَنْ يَرْتَدّوا أَمامَ جُموعِ الرّومِ ٱلبيزَنْطِيّينَ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلفَريقَيْنِ ٱصْطَدَما أَخيراً عِنْدَ نَهْرِ ٱليَرْموكَ ، في شَهْرِ حَزَيْرانَ ، سَنَةَ سِتٍّ وَثَلاثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ . وَكانَ يَقودُ المُسْلِمينَ في هٰذِهِ ٱلمَعْرَكَةِ خالِدُ بْنُ ٱلوَليدِ (سَيْفُ اللهِ ٱلمَسْلولِ) وَأَبو عُبَيْدَةَ بْنُ ٱلجَرّاحِ . وَكانَتْ نِساءُ ٱلعَرَبِ في ٱلمُؤَخَّرَةِ يَحْفِزْنَ[١] ٱلرِّجالَ ، وَيَسْتَنْهِضْنَ مِنْهُمُ ٱلهِمَمَ . وَكانَتِ الغَلَبَةُ[٢] في هٰذِهِ ٱلمَعْرَكَةِ لِلْمُسْلِمينَ ، فَعادوا وَٱسْتَوْلَوْا سَريعاً عَلى دِمَشْقَ وَسائِرِ سورِيّا .

وَقَدْ عُزِلَ خالِدٌ عَنِ ٱلقِيادَةِ وَوُلِّيَها أَبو عُبَيْدَةَ . وَلَمْ يُعْرَفِ السَّبَبُ ٱلحَقيقِيُّ ٱلَّذي حَمَلَ عُمَرَ عَلى عَزْلِ خالِدٍ ، وَلَعَلَّ ذٰلِكَ لِأَنَّ خالِداً قَدْ أَثْرى[٣] بِما أَصابَ في ٱلفُتوحِ . وَأَذْعَنَ خالِدٌ لِلْأَمْرِ . وَنَزَلَ عَنِ ٱلقِيادَةِ ، وَقالَ : «ما أَنا بِالَّذي يَعْصى أَميرَ ٱلمُؤْمِنينَ ، وَلَوْ أَمَرَني أَنْ أَكونَ في طاعَةِ غُلامٍ لَفَعَلْتُ» . وَعادَ خالِدٌ بَعْدَ حينٍ إِلى ٱلمَدينَةِ ، وَماتَ فيها مُعْدِماً[٤] مَنْسِيًّا ، سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعينَ وَسِتِّ مِئَةٍ .

---

(١) يحفزن: يدفعن. (٢) الغلبة : النصر. (٣) أثرى : كثر ماله . (٤) المعدم: المفتقر.

وَوُلِّيَ عَمْرُو بْنُ ٱلعاصِ، بَعْدَئِذٍ قِيادَةَ ٱلجَيْشِ الزّاحِفِ عَلى فِلِسْطِينَ، وَتَوَجَّهَ إِلى بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ (أُورَشَليمَ) وَحاصَرَها. فَطَلَبَ ٱلبَطْرِيَرْكُ صُفْرونِيوسُ الصُّلْحَ، مُشْتَرِطاً أَنْ يَحضُرَ عُمَرُ بْنُ ٱلخَطّابِ نَفسُهُ لِيَتَوَلّى[١] عَقْدَ شروطِ الصُّلْحِ وَالتَّسْليمِ. فَرَضِيَ عُمَرُ ذٰلِكَ، وَكانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ سافَرَ فيها أَحَدُ الخُلَفاءِ إِلى ما وَراءَ حُدودِ ٱلجَزيرَةِ

وَسارَ عُمَرُ مِنَ ٱلمَدينَةِ إِلى بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ، وَهُوَ عَلَى بَعيرٍ أَحْمَرَ، وَلَيْسَ مَعَهُ مِنَ ٱلعَتادِ[٢] سِوى غِرارَتَيْنِ[٣]، في إِحْداهُما سَويقٌ، وَفي ٱلأُخْرى تَمْرٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ قِرْبَةٌ مَمْلوءَةٌ ماءً، وَخَلْفَهُ جَفْنَةٌ[٤] لِلزّادِ. وَقَدْ قَطَعَ في هٰذا الزِّيِّ[٥] ٱلمَسافَةَ بَيْنَ ٱلمَدينَةِ وَبَيْتِ ٱلمَقْدِسِ، مُعاقِباً أَهْلَ الشَّرِّ مُقيماً العَدْلَ بَيْنَ النّاسِ.

وَأَعَدَّ أَهْلُ بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ قَصْراً فَخْماً لِنُزولِهِ، وَلٰكِنَّهُ أَبى أَنْ يَدْخُلَ ٱلمَدينَةَ، فَنُصِبَتْ لَهُ خَيْمَةٌ خارِجَ ٱلأَسْوارِ. وَفي هٰذِهِ ٱلخَيْمَةِ، رَأَى وُفودُ ٱلمَدينَةِ وَلِيَّ أَمْرِهِمْ جالِساً عَلى العَراءِ[٦].

(١) تولى العمل : قام به . (٢) العتاد : ما أعد لأمر ما . (٣) غرارة : كيس كبير من صوف او شعر . (٤) الجفنة : القصعة الكبير . (٥) الزي : الهيئة . (٦) العراء: الارض لا يسترها شيء

وَقَطَعَ[١] لَهُمْ عُمَرُ عَهْداً، أَمَّنَهُمْ فيهِ عَلى أَنْفُسِهِمْ، وَأَمْوالِهِمْ، وَكَنائِسِهِمْ، وَأَطْلَقَ لَهُمُ الحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمِ الجِزْيَةَ، وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ الإِقامَةِ والرَّحيلِ مَعَ الرُّومِ البيزَنْطِيِّينَ، وَحَظَرَ[٢] عَلى اليَهودِ أَنْ يَسْكُنوا مَعَهُمْ بِبَيْتِ المَقْدِسِ.

وَسَأَلَ عُمَرُ البَطْرِيَرْكَ صُفْرونيوسَ أَنْ يَدُلَّهُ عَلى مَكانٍ لائِقٍ لِيُقيمَ فيهِ مَسْجِداً، فَدَلَّهُ الحَبْرُ عَلى المَوْقِعِ الذي كانَ فيهِ هَيْكَلُ سُلَيْمانَ. وَكانَ وَقْتَئِذٍ تَعْلوهُ الأَقْذارُ. وَفيما بَعْدُ أُقيمَ في هٰذا المَوْضِعِ مَسْجِدٌ يُعَدُّ مِنْ أَجْمَلِ ما شادَتْهُ[٣] الهَنْدَسَةُ العَرَبِيَّةُ.

وَلَمْ يَكُنْ تَسْليمُ بَيْتِ المَقْدِسِ هُوَ الباعِثَ[٤] الوَحيدَ عَلى مَجيءِ عُمَرَ، فَقَدْ سارَ أَوَّلاً إِلى الجابِيَةِ، عَلى حُدودِ الشّامِ، وَنَظَّمَ إِدارَةَ البِلادِ المُفْتَتَحَةِ عَلى أَساسٍ وَطيدٍ، وَأَعادَ النَّظَرَ في العُهودِ المَقْطوعَةِ، وَفَرَضَ الضَّرائِبَ، وَعَيَّنَ العَلائِقَ[٥] بَيْنَ الفاتِحينَ وَأَهْلِ البِلادِ. وَبَعْدَ أَنْ أَقامَ أَيّاماً، نَظَّمَ فيها أَمْرَ الفُتوحاتِ السّورِيَّةِ، عادَ إِلى المَدينَةِ، وَقَدْ أَشْفَقَ[٦] أَهْلُها أَنْ يَكونَ قَد

---

(١) قطع العهد : بته وأمضاه. (٢) حظر عليه الشيء : منعه. (٣) شاد البناء : رفعه.
(٤) الباعث : السبب. (٥) العلائق : الصلات. (٦) أشفق : خاف.



عمر بن الخطاب أمام بيت المقدس

أُسْتَهْواهُ⁽¹⁾ جَمالُ دِمَشْقَ وَقَداسَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَفي السَّنَةِ الْخامِسَةِ لِخِلافَةِ عُمَرَ أُصيبَتِ البِلادُ بِالْمَجاعَةِ وَالطّاعونِ. وَقَدْ دُعِيَتْ تِلْكَ السَّنَةُ عامَ الرَّمادَةِ، إِذْ أَجْدَبَ فيها النّاسُ، وَجاعوا لِانْحِباسِ الْمَطَرِ في الْحِجازِ. وَقَدْ أَقْسَمَ عُمَرُ أَنْ لا يَذوقَ سَمْناً، وَلا لَبَناً، وَلا لَحْماً حَتّى يَحْيا⁽²⁾ النّاسُ. وَاشْتَرى غُلامٌ لَهُ عُكَّةَ⁽³⁾ سَمْنٍ وَوَطْباً⁽⁴⁾ مِنْ لَبَنٍ بِأَرْبَعينَ دِرْهَماً، فَتَصَدَّقَ بِهِما وَقالَ:

„إِنّي أَكْرَهُ أَنْ آكُلَ إِسْرافاً⁽⁵⁾ وَكَيْفَ يَعْنيني⁽⁶⁾ شَأْنُ الرَّعِيَّةِ، إِذا لَمْ يُصِبْني ما أَصابَهُمْ".

وَكَتَبَ عُمَرُ إِلى أُمَراءِ الْأَمْصارِ يَسْتَغيثُهُمْ لِأَهْلِ الْمَدينَةِ وَمَنْ حَوْلَها. فَلَمْ يَلْبَثِ الْغَوْثُ⁽⁷⁾ أَنْ جاءَهُمْ، وَاسْتَغْنى أَهْلُ الْحِجازِ.

وَكانَ مَنْشَأُ الطّاعونِ في عِمْواسَ إِحْدى قُرى فِلِسْطينَ، وَدُعِيَ طاعونَ عِمْواسَ. وَاشْتَدَّ هٰذا الْوَباءُ⁽⁸⁾ أَشْهُراً في فِلِسْطينَ، وَسورِيَّةَ، وَبِلادِ الْعَرَبِ، فَأَفْنى الْأُلوفَ مِنَ النّاسِ.

---

(١) استهواه : استماله . (٢) يحيا : هنا بمعنى يخصب . (٣) العكة : زقيق للسمن .
(٤) الوطب : وعاء من جلد . (٥) الاسراف التبذير . (٦) عناه الأمر : شغله وأهمه
(٧) الغوث : المعونة . (٨) الوباء : كل مرض عام .

وَكانَتْ مِصْرُ لا تَزالُ في حَوْزَةِ ٱلبيزَنْطِيِّينَ ، وَكانَ ٱلقِبْطُ ، سُكّانُ وادي النّيلِ ، يَكْرَهونَهُمْ كُلَّ الكُرْهِ . وَكانَتِ ٱلحالُ مُؤاتِيَةً [١] ، إلاّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ تَرَدَّدَ في ٱلمُجازَفَةِ [٢] بِجَيْشٍ يُرْسِلُهُ ، عَنْ طَريقِ سيناءَ ، إلى ذٰلِكَ ٱلقُطْرِ ، عَلى حينَ كانَ ٱلقِتالُ عَلى أَشَدِّهِ في بِلادِ فارِسَ . غَيْرَ أَنَّ عَمْرَو بْنَ العاصِ ، أَحَدَ عُظَماءِ ٱلقُوّادِ في صَدْرِ ٱلإِسْلامِ ، زَحَفَ أَخيراً عَلى هٰذا ٱلقُطْرِ ، بِٱثْنَيْ عَشَرَ أَلفَ رَجُلٍ ، وَكانَ ذٰلِكَ سَنَةَ أَرْبَعينَ وَسِتٍّ مِئَةٍ . وَلَمْ تَنْقَضِ سَنَتانِ ، حَتّى سَقَطَتْ مِصْرُ كُلُّها في حَوْزَةِ ٱلعَرَبِ .

وَبَيْنا كانَتْ بيزَنْطِيَةُ تُقَطَّعُ أَطْرافُها ، كانَتْ بِلادُ فارِسَ تَسيرُ شَيْئاً فَشَيْئاً إلى الدَّمارِ . وَكانَ ٱلعَرَبُ قَدْ أَغاروا عَلى ٱلعِراقِ ، سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَثَلاثينَ وَسِتٍّ مِئَةٍ ، وَكانَتْ مُدُنُ بابِلَ وَسُومَرَ وَأَكَّدَ قَدْ عَفَتْ آثارُها [٣] وَقامَ عَلى أَنْقاضِها مُدُنٌ جَديدَةٌ ، في أَرْضٍ خَصِبَةٍ ، زادَتْ مُجاهِدي ٱلجَنوبِ ٱلعِجافِ [٤] إغْراءً بِها [٥]

---

(١) مؤاتية : موافقة . (٢) المجازفة : المخاطرة (٣) عفا الاثر : زال وامحى .
(٤) عجاف جمع أعجف : الضعيف الهزيل . (٥) الاغراء : الحض .

وَكَسَرَ ٱلأَميرُ سَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ ٱلفُرْسَ، سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلاثينَ وَستٍّ مِئَةٍ، في وَقْعَةِ ٱلقادِسِيَّةِ، بَعْدَ ثَلاثِ مَعارِكَ كَبيرَةٍ. وَٱنْهَزَمَ مَلِكُ ٱلفُرْسِ يَزْدَجُرْدُ، وَعَبَرَ ٱلعَرَبُ نَهْرَ دِجْلَةَ وَٱسْتَوْلَوْا عَلى طيسِفونَ (المدائِن)، عاصِمَةِ ٱلفُرْسِ. وَكانَتْ ٱلوَقْعَةُ الفاصِلَةُ بِنِهاوَنْدَ، سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعينَ وَستٍّ مِئَةٍ، فَإِنَّ ٱلعَرَبَ سَحَقوا الفُرْسَ في هٰذِهِ ٱلمَعْرَكَةِ وَقَضَوْا عَلَى مُلْكِ فارِسَ.

وَلَمْ تَنْقَضِ بِضْعُ سَنَواتٍ، حَتّى كانَ ٱلعَرَبُ قَدْ عَبَروا نَهْرَ جيحونَ، وَجازوا شِعابَ ٱلهِنْدوكوش، وَٱشْتَبَكوا في ٱلحَرْبِ مَعَ أَقْيالِ[1] الهِنْدِ. وَلَمْ يُرَ لِفُتوحاتِهِمْ نَظيرٌ مُنْذُ عَهْدِ ٱلإِسْكَنْدَرِ ٱلكَبيرِ. وَلَمْ يَمْتَدَّ أَجَلُ عُمَرَ فَيَرى هٰذِهِ الفُتوحاتِ ٱللاحِقَةَ. وَلَمْ يَشْهَدْ عُمَرُ ٱلحَرْبَ بِنَفْسِهِ، مَعَ أَنَّه رَغِبَ في ذٰلِكَ مِراراً، وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ في ٱلمَدينَةِ يُديرُ شُؤُونَ ٱلقِتالِ كَأَحَدِ وُزَراءِ ٱلحَرْبِيَّةِ ٱلعِظامِ في أَيّامِنا. وَلَمْ يَدَعْ أَزِمَّةَ[2] السُّلْطَةِ تُفْلِتُ مِنْ يَدَيْهِ، بِما كانَ لَهُ مِنْ عَظيمِ ٱلهَيْبَةِ. وَقَدِ ٱتَّضَحَ بُعْدُ نَظَرِهِ السِّياسِيُّ، بِمُحاوَلَتِهِ أَنْ يَضَعَ حَدّاً لِٱمْتِدادِ ٱلفُتوحاتِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ٱمْتِداداً

---

(١) الاقيال : صغار الملوك . (٢) أزمة : مقاود .

مُسْتَمِرًّا ، وَبِأَنْ يُحافِظَ عَلى الصِّبْغَةِ[١] ٱلقَوْمِيَّةِ ٱلعَرَبِيَّةِ ، في ٱلمَمْلَكَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ، وَيُقَوِّيها ، وَخاصَّةً بِتَنْظِيمِهِ ٱلشُّؤونَ الداخِلِيَّةَ .

وَقَدْ سَعى في أَنْ يَجْعَلَ ٱلأُمَّةَ بِأَسْرِها جَيْشاً لِلّهِ ، بِأَنْ يَكونَ ٱلعَرَبُ جُنوداً وَحَسْبُ[٢] . وَحَظَرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْتَروا بِقاعاً مِنَ ٱلأَرْضِ ، في ٱلمَمالِكِ ٱلَّتي ٱفْتَتَحوها . وَكانَتِ ٱلأَرْضُ كُلُّها إِمّا تُجْعَلُ مالاً لِلأُمَّةِ ، وَإِمّا تُعادُ إِلى أَصْحابِها ٱلأَصْلِيِّينَ ، وَتُفْرَضُ عَلَيْها ضَرائِبُ ، تَقومُ بِها أَعْطِياتُ[٣] ٱلجُنْدِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَقامَ عُمَرُ ٱلعَدْلَ عَلى أَوْطَدِ ٱلأُسُسِ ، صَرَفَ عِنايَتَهُ خاصَّةً إِلى ٱلشُّؤونِ ٱلمالِيَّةِ ، كَفَرْضِ ٱلضَّرائِبِ في ٱلبِلادِ ٱلمُفْتَتَحَةِ ، وَتَعْيِينِ وُجوهِ ٱلإِنْفاقِ[٤] . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَرَّخَ بِٱلهِجْرَةِ ، وَكانَ ٱلعَرَبُ قَبْلَهُ يُؤَرِّخونَ بِآخِرِ حادِثٍ عَظيمٍ ٱهْتَمَّتْ لَهُ ٱلأُمَّةُ جَمْعاءُ ، كَحَرْبٍ ، أَوْ مَجاعَةٍ ، أَوْ وَباءٍ ، فَكانَ تاريخُ وَقائِعِهِمْ ، وَٱلحالَةُ هٰذِهْ ، فيهِ ما فيهِ مِنَ ٱلخَلَلِ[٥] وَٱلِاخْتِلاطِ .

وَجاءَ عُمَرَ ذاتَ يَوْمٍ غُلامٌ فارِسِيٌّ مِنْ أَهْلِ نِهاوَنْدَ ، يُقالُ

---

(١) الصبغة : السمة والعلامة . (٢) وحسبُ : وكفى . (٣) أعطيات جمع عطاء : ما يعطى . (٤) وجوه : سبل . (٥) الخلل : الفساد .

لَهُ فَيروزُ أبو لُؤْلُؤَةَ ، يَشْكو إِلَيْهِ ثِقَلَ ٱلخراجِ[١] ٱلَّذي جَعَلَهُ عَلَيْهِ مَولاهُ، وَكانَ خَراجُهُ دِرْهَمَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ . فَأَجابَ عُمَرُ أَنَّهُ لا يَرى خَراجَهُ ثَقيلاً في كُنْهِ[٢] ما يُحْسِنُهُ مِنَ ٱلأَعْمالِ ، وَكانَ ٱلغُلامُ نَقّاشاً ، نَجّاراً ، حَدّاداً . فَساءَ ذٰلِكَ أَبا لُؤْلُؤَةَ ، وَتَوَعَّدَ[٣] ٱلخَليفَةَ في وَجْهِهِ . وَبَعْدَ أَيّامٍ ٱشْتَمَلَ[٤] عَلى خَنْجَرٍ ذي حَدَّيْنِ ، نِصابُهُ[٥] في وَسَطِهِ ، وَقَعَدَ لِعُمَرَ في زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا ٱلمَسْجِدِ . فَلَمّا دَنا مِنْهُ وَثَبَ عَلَيْهِ وَطَعَنَهُ بِضْعَ طَعَناتٍ ، وَطَعَنَ في ٱلمَسْجِدِ مَعَهُ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً ، ماتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ . وَأَقْبَلَ رَجُلٌ فَأَلْقى كِساءً عَلَيْهِ ، فَلَمّا عَلِمَ الشَّقِيُّ أَنَّهُ مَأْخوذٌ ، طَعَنَ نَفْسَهُ .

وَتُوُفِّيَ عُمَرُ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، في ذي ٱلحِجَّةِ في السَّنَةِ الثّالِثَةِ وَٱلعِشْرينَ لِلْهِجْرَةِ (في شَهْرِ تِشْرينَ الثّاني سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعينَ وَسِتِّ مِئَةٍ ، بَعْدَ ٱلمَسيحِ) . وَكانَتْ خِلافَتُهُ عَشْرَ سَنَواتٍ وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ وَثَمانِيَةَ أَيّامٍ . وَعاشَ ثَلاثَةً وَسِتّينَ عاماً .

عُدَّ عُمَرُ في تاريخِ ٱلإِسْلامِ مُنَظِّمَ ٱلفَتْحِ ، والرَّجُلَ ٱلَّذي

---

(١) الخراج : الضريبة والجزية . (٢) كنه الشيء : قدره . (٣) توعد : تهدد .
(٤) اشتمل عليه : حمله مخفياً اياه . (٥) النصاب : مقبض السكين وغيرها .

اُجْتَمَعَتْ فيهِ اُلْفَضائِلُ الَّتي يَنْبَغي أَنْ تَكونَ لِلْخَليفَةِ. وقَدْ أَشادَ(١) اُلْمُؤَرِّخونَ بِذِكْرِ سَجاياهُ إِلى حَدٍّ بَعيدٍ، وَرَوَوْا عَنْهُ مِنَ اُلْحِكاياتِ ما فيهِ مَظْهَرٌ لِأَخْلاقِهِ السَّامِيَةِ وَمُمَيِّزاتِ اُلْعَصْرِ الَّذي عاشَ فيهِ. فَقَدْ أَصابَ اُلْعَرَبُ في عَهْدِهِ نَصْراً باهِراً، وَاُنْبَسَطَ سُلْطانُهُ عَلى مُلْكٍ واسِعٍ، فَلَمْ يُؤَثِّرْ ذٰلِكَ في زُهْدِهِ، بَلْ ظَلَّ عَلَى ما أَلِفَهُ مِنْ خُشونَةِ اُلْعَيْشِ وَاُحْتِقارِ اُلْعَظَمَةِ وَاُلْفَخْفَخَةِ(٢) اُلباطِلَةِ. وَلَمْ يَكُنْ لِباسُهُ أَفْضَلَ مِنْ لِباسِ أَحْقَرِ رَعِيَّتِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ لِيُغْضِيَ(٣) عَلَى ما يَأْتيهِ أَهْلُ اُلْمَنْزِلَةِ واُلشَّرَفِ مِنَ اُلْمَظالِمِ. وَكانَ يَحْمِلُ دِرَّةً(٤) يُؤَدِّبُ بِها أَكْبَرَ عُمّالِهِ، إِذا ما بَدا مِنْهُمْ نَقْصٌ، وَكانَ لَهُ بِها صَوْلَةٌ(٥) تُرْهِبُ النَّاسَ، حَتّى قيلَ بَعْدَهُ: «لَدِرَّةُ عُمَرَ أَهْيَبُ مِنْ سُيوفِكُمْ». وَقالَ مَرَّةً:

„لَئِنْ عِشْتُ، إِنْ شاءَ اللهُ، لَأَسيرَنَّ في الرَّعِيَّةِ حَوْلاً(٦) — وإِنَّهُ واللهِ لَنِعْمَ اُلْحَوْلُ — فَإِنّي أَعْلَمُ أَنَّ لِلنَّاسِ حَوائِجَ تُقْطَعُ دوني، أَمّا عُمّالي فَلا يَرْفَعونَها إِلَيَّ، وَأَمّا هُمْ فَلا يَصِلونَ إِلَيَّ".

---

(١) أشاد بذكره: رفعه بالثناء عليه. (٢) الفخفخة: المفاخرة بالباطل. (٣) أغضى على الأمر: سكت وصبر. (٤) الدرة: السوط يضرب به. (٥) الصولة: السطوة والقدرة (٦) الحول: السنة.

كانَ عُمَرُ زاهِداً عَفيفاً، يَقومُ بِالْواجِبِ غَيْرَ هَيّابٍ وَلا مُحابٍ[١]، شَديداً إِلى حَدٍّ الْخُشونَةِ وَالْعُنْفِ[٢]، مَعَ رِفْقٍ بِالضُّعَفاءِ، قاسِياً في الْحُكْمِ عَلى النّاسِ، وَخاصَّةً عَلى نَفْسِهِ، رَجُلاً كامِلاً في كُلٍّ ما أَتاهُ مِنَ الأَعْمالِ، فَكَأَنَّهُ وُلِدَ لِيَكونَ لَهُ الْحُكْمُ. وَقَدْ يَجْنَحُ[٣] مَنْ يَقِفَ عَلى ما تَلا مَوْتَهُ مِنَ الفِتَنِ[٤] إِلى مُوافَقَةِ ابْنِ خِلِّكانَ عَلى قَوْلِهِ، بَعْدَ خَمْسَةِ قُرونٍ: «إِنَّ جَدَّ[٥] الإِسْلامِ قَدْ أُدْرِجَ[٦] في أَكْفانِ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ».

---

(١) المحابي : المائل الى احد الخصمين منحرفاً عن العدل . (٢) العنف : الشدة والقسوة . (٣) يجنح : يميل . (٤) الفتن : اختلافات الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال . (٥) الجد : الحظ والسعد . (٦) أدرجه في الكفن : لفه

شارلمان الرجل الحديدي

هَلَكَ آخِرُ إمْبَراطورٍ لِرومِيَةَ ، سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعينَ وأَرْبَعِ مِئَةٍ ، بَعْدَ ٱلمَسيحِ ، وَأَخَذَتِ ٱلإِمْبَراطوريَّةُ بَعْدَئِذٍ تَصيرُ إلى ٱلانْحِلالِ . وَدُعِيَتِ ٱلأَزْمِنَةُ ٱلَّتي تَلَتْ ذٰلِكَ «ٱلعُصورَ ٱلمُظْلِمَةَ» .

فَلِماذا دُعِيَتْ تِلْكَ ٱلأَزْمِنَةُ ٱلعُصورَ ٱلمُظْلِمَةَ ؟

إِنَّها دُعِيَتْ كَذٰلِكَ ، لِأَنَّ ٱلَّذينَ أَغاروا عَلَى ٱلإِمْبَراطوريَّةِ الرّومانيَّةِ كانوا بَرابِرَةً ، مُتَوَحِّشينَ ، مولَعينَ بِٱلحُروبِ وٱلغَزْوِ . وَلَمْ يَكْتَرِثوا ، إِلاَّ قَليلاً ، لِلشُّعَراءِ وٱلمُؤَرِّخينَ ، والنَّقّاشينَ وٱلمُصَوِّرينَ ، وٱلفَنّانينَ وٱلبَنّائينَ ، وٱلقُضاةِ وٱلمُشْتَرِعينَ [1] الَّذينَ كانوا فيما مضى مِنَ ٱلأَزْمانِ . غَيْرَ أَنَّ مَدَنيَّةَ رومِيَةَ الزّاهِرَةَ لَمْ تَكُنْ لِيُقْضى عَلَيْها ٱلقَضاءَ التّامَّ . فَإِنَّ هٰؤُلاءِ ٱلبَرابِرَةَ كانوا ، عَلَى جَهْلِهِمْ ، يَرْغَبونَ في التَّعَلُّمِ ، وَلَمّا حانَ ٱلوَقْتُ ، نَشَأَتْ مِنَ الظُّلْمَةِ وٱلخَرابِ حَياةٌ جَديدَةٌ ، تُضارِعُ [2] ٱلحَياةَ القَديمَةَ قُوَّةً وَجَوْدَةً . وَكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ غَرُبَتْ عَلَى مَجْدِ رومِيَةَ ، وَعَقَبَ

(١) المشترع : واضع الشرائع . (٢) تضارع : تشابه

ٱللَّيْلُ ٱلمَساءِ، غَيْرَ أَنَّ اللَيْلَ ٱنْقَضى، وَبَزَغَ[١] نَهارٌ جَديدٌ، عادَتِ ٱلحَياةُ مَعَهُ إِلى الظُّهورِ قَوِيَّةً مُنْتَعِشَةً[٢].

وَكانَ في جُمْلَةِ هٰؤُلاءِ ٱلبَرابِرَةِ ٱلَّذينَ ٱكْتَسَحوا ٱلإِمْبَراطورِيَّةَ الرّومانِيَّةَ، قَبيلَةٌ جِرْمانِيَّةٌ، يُقالُ لَها ٱلفِرَنْكُ. وَقَدْ حارَبَ هٰؤُلاءِ بِقِيادَةِ مَلِكِهِمْ كِلوفيسَ حُروباً كَثيرَةً، حالَفَهُمُ النَّصْرُ فيها، وٱكْتَسَحوا بِلادَ ٱلغالِ فَدَعَوْها فِرَنْسا. وَقُدِّرَ لِلفِرَنْكِ أَنْ يَكونَ لَهُمْ شَأْنٌ كَبيرٌ في تاريخِ أُورُبّا،

وَفي نَحْوِ سَنَةِ خَمْسِ مِئَةٍ، دانَ مَلِكُهُمْ كِلوفيسُ بِٱلنَّصْرانِيَّةِ، فَأَحْدَثَ ذٰلِكَ ٱنْقِلاباً عَظيمًا في بِلادِهِ. فَإِنَّ ٱلفِرَنْكَ، لَمّا كانوا وَثَنِيّينَ، لَمْ يَكْتَرِثوا لِمَدَنِيَّةِ الرّومانِيّينَ الزّاهِرَةِ، وَلٰكِنَّهُمْ في مُسْتَقْبَلِ ٱلأَيّامِ، ٱضْطُرّوا أَنْ يَقْتَبِسوا الشَّيءَ ٱلكَثيرَ مِنَ الرّومانِيّينَ.

وَلَمّا ماتَ كِلوفيسُ في باريسَ، سَنَةَ خَمْسِ مِئَةٍ وَإِحْدى عَشْرَةَ، قُسِمَتْ مَمْلَكَتُهُ بَيْنَ أَوْلادِهِ ٱلأَرْبَعَةِ. وَبَقِيَتْ ٱلحَرْبُ ناشِبَةً مُدَّةَ مِئَةِ سَنَةٍ بَيْنَ ٱلإِخْوَةِ ٱلمُتَنافِسينَ. غَيْرَ أَنَّ ٱلأُمَّةَ

---

(١) بزغ النهار: طلع. (٢) انتعش: نشط بعد فتور.

ظَلَّتْ تَمْتَدُّ حَتَّى شَمَلَتْ ، سَنَةَ سِتِّينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ كُلاًّ مِنْ فِرَنْسا ، وبِلْجِكا ، وهولَنْدَةَ ، وجِرْمانِيا الغَرْبِيَّةِ . وكانَتْ هٰذِهِ الشُّعوبُ كُلُّها مُتَبايِنَةً [١] في العاداتِ والأَخْلاقِ ، ولٰكِنَّها كانَتْ كُلُّها مُتَماثِلَةً [٢] في جَهْلِها لِلفُنونِ ، والآدابِ ، والعُلومِ ، الَّتي ابْتَدَعَها اليُونانُ واقْتَبَسَها مِنْهُمُ الرّومانُ . فَقَدْ كانوا جَهَلَةً ، بُسَطاءَ ، أَشِدّاءَ ، لا يَسْتَهْويهِمْ [٣] إلاَّ القِتالُ ، والطَّعامُ ، والشَّرابُ .

وَلَمّا كانَ مَلِكُهُمْ لا يَزالُ مُتَغَيِّبًا في الحُروبِ ، آلَتْ [٤] أَزِمَّةُ السُّلْطَةِ ، شَيْئًا فَشَيْئًا ، إلى يَدِ رَئيسِ الوُزَراءِ ، أَوْ قَيِّمِ [٥] القَصْرِ . وَكانَ لا بُدَّ لِلفِرَنْكِ ، لِكَيْ يُحافِظوا عَلى كِيانِهِمْ [٦] ، أَنْ يَكونَ عَلى رَأْسِهِمْ رَجُلٌ قَديرٌ . وَلَمْ يَجِدوا ذٰلِكَ الرَّجُلَ القَديرَ في شَخْصِ المَلِكِ ، بَلْ في شَخْصِ قَيِّمِ القَصْرِ . وَقَدْ فَعَلَ أَحَدُ هٰؤُلاءِ القَيِّمينَ ما كانَ يَنْبَغي لِجَعْلِ الفِرَنْكِ مُتَّحِدينَ أَقْوِياءَ . وَيَعْسُرُ عَلَيْنا الرَّجْمُ [٧] بِما كانَ عَساهُ أَنْ يَحْدُثَ لَوْ لَمْ يَقُمْ مِثْلُ هٰذا الزَّعيمِ وَقْتَئِذٍ .

---

(١) متباينة : متفاوتة . (٢) متماثلة : متشابهة . (٣) يستهويهم : يستميلهم . (٤) آلت : صارت ورجعت . (٥) القيم : المتولي . (٦) الكيان : الطبيعة والخليقة . (٧) الرجم : التكلم بالظن .

فَإِنَّ العَرَبَ السَّامِيِّينَ خَرَجوا مِنْ بِلادِ العَرَبِ ، وَكانوا خَطَراً عامًّا عَلى أُورُبّا، بَعْدَ إِكْزِرْكِس وَجُيوشِهِ الْفارِسِيَّةِ ، وَهَنِّبالَ وَجُيوشِهِ الْقَرطاجَنِيَّةِ ، وأَتِّيلا وجُموعِ الْهُونِ . وَقَدْ جاءَ العَرَبُ ، بَعْدَ هؤُلاءِ ، لِيُجَدِّدوا النِّزاعَ الطَّويلَ بَيْنَ الشَّرْقِ والْغَرْبِ . وَكانَ العَرَبُ قَدْ دانوا بِدينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، وكانوا حَيْثُما نَزَلوا يُغْرونَ[١] النَّاسَ بِدينِهِمْ. وقَدِ اسْتَوْلَوْا عَلَى بِقاعٍ[٢] عَظيمَةٍ في الشَّرْقِ، ثُمَّ فَتَحوا مِصْرَ وَشِمالِيَّ أَفْريقِيَةَ ، وَعَبَروا الْبَحْرَ أَخيراً إِلى إِسْبانيا واسْتَوْلَوْا عَلَيْها . وَلَمّا قَبَضَ شارْلُ مارْتِلُ عَلَى أَزِمَّةِ السُّلْطَةِ في بِلادِهِ، كانَ العَرَبُ قَدْ خَرَجوا مِنْ إِسْبانِيا لِمُهاجَمَةِ فِرَنْسا. وَفي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلاثينَ وَسَبْعِ مِئَةٍ تَصادَمَتِ القُوَّتانِ في سَهْلِ تورَ ، مِنْ أَعْمالِ فِرَنْسا ، فَحَمَلَ العَرَبُ وَالْمَغارِبَةُ الأَفْريقِيّونَ ، وَهُمْ مُمْتَطونَ[٣] جِيادَهُمُ الْمُطَهَّمَةَ[٤] عَلَى مُشاةِ الفِرَنْكِ، وَكانوا قَدْ خَرَجوا لِمُلاقاتِهِمْ بِقِيادَةِ شارْلَ مارْتِلَ، وَلٰكِنْ عَلَى غَيْرِ جَدْوى[٥] ، فَإِنَّ الفِرَنْكَ كانوا أَشِدّاءَ،

---

(١) اغراه بالشيء : حضه عليه . (٢) بقاع جمع بقعة (بضم القاف) : القطعة من الأرض . (٣) ممتطون : راكبون . (٤) المطهم : التام الحسن . (٥) الجدوى : النفع .

فتمكّنوا مِنْ كَسْرِهِمْ. وَرَجَعَ العَرَبُ إلى إسْبانيا وَأقاموا هُناكَ مَمْلَكَةً كَبيرَةً.

في تِلْكَ الحِقْبَةِ تَحَرَّجَ مَرْكَزُ البابا رَئيسِ الكَنيسَةِ المَسيحيَّةِ، لِأَنَّ مَدينَةَ رومِيَةَ، حَيْثُ كانَ يُقيمُ البابا، هَدَّدَتْها قَبيلَةٌ جِرْمانِيَّةٌ أُخْرى، يُقالُ لَها اللُّمْبَرْدِيّونَ، فَبادَرَ مارْتِلُ لِمُساعَدَةِ البابا. وَبَعْدَ انْقِضاءِ عِشْرينَ سَنَةً عَلى مَعْرَكَةِ تُورَ، وَهِيَ المَعْرَكَةُ الَّتي نَشِبَتْ بَيْنَ الفِرَنْكِ وَالعَرَبِ، نودِيَ بِبِيّانَ بْنِ شارْلَ مارْتِلَ مَلِكاً عَلى الفِرَنْكِ. واضْطُرَّ بِيّانُ، هُوَ أَيْضاً، أَنْ يَذْهَبَ لِمُساعَدَةِ البابا، وَضَمَّ عَدا ذٰلِكَ، أَمْلاكاً كَثيرَةً إلى المَمْلَكَةِ الفِرَنْكِيَّةِ. وَلَمْ يَبْلُغْ كُلٌّ مِنْ شارْلَ وَبِيّانَ، عَلى ما فَعَلاهُ في سَبيلِ وَطَنِهِما، مَبْلَغَ ابْنِ بِيّانَ المَدْعُوِّ شارْلَ، شارْلَ العَظيمَ، أَوْ شارْلَمانَ، فَإِنَّ هٰذا الرَّجُلَ وَضَعَ الأُسُسَ، بِفُتوحاتِهِ العَظيمَةِ، لِما نُسَمّيهِ أوروبا الحَديثَةَ.

وَكانَ شارْلُ رَجُلاً وَسيماً، يَبْلُغُ طولُهُ سَبْعَ أَقْدامٍ في طولِ قَدَمِهِ نَفْسِها، شَعْرُهُ ذَهَبِيٌّ مُسْتَرسِلٌ (١)، وَأَنْفُهُ أَقْنى (٢) كَمِنْسَرِ

(١) المسترسل: السهل المتدلي. (٢) الانف الاقنى: الذي ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه.

ٱلنَّسْرِ(١)، وَعَيْناهُ تَتَّقِدانِ عِنْدَ ٱلغَضَبِ كَعَيْنَيِ ٱلأَسَدِ. وَكانَ قَوِيًّا جِداً، يُقَوِّمُ بِأَصابِعِهِ أَرْبَعاً مِنْ نِعالِ ٱلخَيْلِ ضُمَّ بَعْضُها إِلى بَعْضٍ، وَيَصْرَعُ(٢) ٱلحِصانَ وَراكِبَهُ بِضَرْبَةٍ واحِدَةٍ، وَيَرْفَعُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ مُقاتِلاً مُسَلَّحاً إِلى مُسْتَوى(٣) كَتِفِهِ. وَفي إِحْدى ٱلمَنْظوماتِ ٱلقَديمَةِ، أَنَّهُ كانَ «رَجُلاً حَديدِيًّا»، فَمِنَ ٱلحَديدِ خُوذَتُهُ(٤)، وَمِنَ ٱلحَديدِ ساعِدَتاهُ(٥)، وَمِنَ ٱلحَديدِ ٱلزَّرَدُ(٦) عَلى صَدْرِهِ وَكَتِفَيْهِ، حَديدِيٌّ روحُهُ، وَحَديدِيٌّ لَوْنُ جَوادِهِ ٱلحَرْبِيِّ».

وَكانَ في ٱلفَتَراتِ ٱلَّتي يَكُفُّ فيها عَنِ ٱلقِتالِ، يَتَمَسَّكُ بِعاداتِ قَوْمِهِ، وَيَلْبَسُ ٱللِباسَ ٱلفِرَنْكِيَّ، وَكانَ هٰذا ٱللِباسُ يَقومُ بِقَميصٍ قَصيرٍ مِنَ ٱلكِتّانِ، وَمَسامٍ(٧) مُتَقاطِعَةِ ٱلعَصائِبِ(٨)، وَرِداءٍ طَويلٍ خَشِنٍ يَصِلُ إِلى ٱلكَعْبَيْنِ. وَسَأَلَ مَرَّةً رِجالَ حاشِيَتِهِ ساخِراً(٩)، وَقَدْ مَسَّ أَرْدِيَتَهُمُ ٱلقَصيرَةَ:

---

(١) المنسر: المنقار لجوارح الطير. (٢) يصرعه: يطرحه الى الارض. (٣) المستوى: مكان الاستواء. (٤) الخوذة: ما يجعله المحارب على رأسه ليقيه (٥) الساعدة: ما يلبس على الساعد من حديد أو غيره. (٦) الزرد: الدرع يتداخل بعضها في بعض. (٧) المسامي جمع المساة: الجورب من الصوف. (٨) العصائب جمع العصابة: ما عصب به من منديل أو نحوه. (٩) ساخراً: هازئاً.

— ما هٰذِهِ الْخِرَقُ؟ وَهَلْ تَصْلُحُ لِتُغَطِّيَ أَحَدَكُمْ إِذا نامَ، أَوْ لِتَقِيَهُ[1] الْبَرْدَ والْمَطَرَ؟.

وَكانَ شارْلُ، عَلَى قُوَّتِهِ وَشَراسَتِهِ، وَبَساطَةِ مَلْبَسِهِ، يُحِبُّ الْجَمالَ، وَيَحْفِلُ[2] بِالْجَواهِرِ والْمَصوغاتِ الذَّهَبِيَّةِ، والنُّسُجِ الْمُوَشّاةِ، بِقَدَرِ ما كانَ يَحْفِلُ بِالشِّعْرِ والْموسيقى وَأَغاني الْمُنْشِدينَ. وَكانَ يُغْري أَهْلَ الصِّناعَةِ والْعُلَماءِ، مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرى، بِالْمَجيءِ إِلى مَمْلَكَتِهِ، وَتَعْليمِ شَعْبِهِ. وانْضَمَّ إِلى حاشِيَتِهِ جَماعَةٌ مِنْ مَشاهيرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكانَ يُسَرُّ بِمُحادَثَتِهِمْ، وَيَسْتَفيدُ مِنْهُمْ حِكْمَةً وَمَعْرِفَةً.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الْقِراءَةَ، غَيْرَ أَنَّ هٰذا الزَّعْمَ لا صِحَّةَ لَهُ. فَإِنَّهُ كانَ يَقْرَأُ، وَكانَ يَسْتَمِعُ، وَهُوَ يَتَناوَلُ الطَّعامَ، إِلى الْموسيقى أَوِ الْقِراءَةِ. وَكانَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يَحْتَفِظَ بِدَفاتِرِهِ وَأَلْواحِهِ تَحْتَ وِسادَتِهِ، حَتَّى إِذا ما وَجَدَ سَعَةً مِنَ الْوَقْتِ دَرَّبَ[3] يَدَهُ عَلَى تَصْويرِ الْحُروفِ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَنْجَحْ نَجاحاً كَبيراً في هٰذِهِ الصِّناعَةِ، الَّتي أَقْبَلَ عَلى تَعَلُّمِها آجِلاً[4].

---

(١) يقي: يصون. (٢) يحفل به: يهتم به. (٣) درب عود. (٤) الآجل: ضد العاجل.

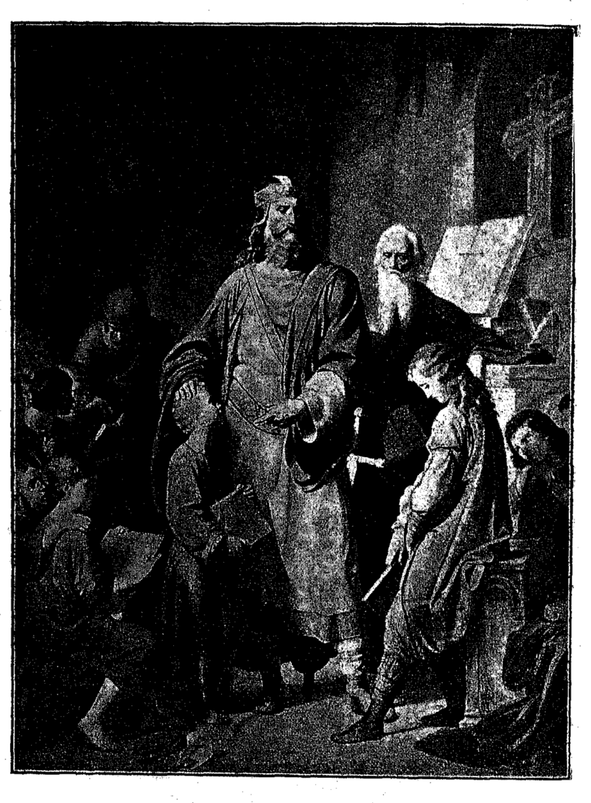
وَلا يَعْني هٰذا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلْكِتابَةَ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلى حَدٍّ ٱلإِتْقانِ ٱلمَطْلوبِ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ الصِّناعَةِ ، في ذٰلِكَ ٱلعَصْرِ .

وَكانَ يَعْرِفُ ٱلأَرْقامَ مَعْرِفَةً تامَّةً ، وَيَسْتَقْصي[1] سَيْرَ ٱلكَواكِبِ بِكَثيرٍ مِنَ ٱلحِذْقِ . وَقَدْ صَمَّمَ ، وَإِنْ كانَ هُوَ نَفْسُهُ لَمْ يَتَهَذَّبِ ٱلتَّهْذيبَ التّامَّ . أَنْ يَتَعَلَّمَ أَوْلادُهُ وَأَوْلادُ رِجالِهِ النُّبَلاءِ ، وَهُمْ في سِنٍّ الحَداثَةِ ، وَأَكْرَهَهُمْ[2] عَلى الذَّهابِ إِلى ٱلمَدْرَسَةِ ، لِيَتَعَلَّموا كُلَّ فُروعِ ٱلعِلْمِ ٱلَّتي كانَتْ تُدَرَّسُ في ذٰلِكَ الزَّمَنِ . وَأَعْلَنَ أَنَّهُ لا يَمْنَحُ رَجُلاً جاهِلاً أَوْ كَسْلانَ وَظيفَةً مِنَ ٱلوَظائِفِ العالِيَةِ . وَيُؤْثَرُ عَنْهُ قَوْلُهُ : « إِنَّ ٱلأَعْمالَ الصالِحَةَ خَيْرٌ مِنَ ٱلمَعْرِفَةِ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلأَعْمالَ الصّالِحَةَ بِغَيْرِ ٱلمَعْرِفَةِ لَيْسَت مُمْكِنَةً » . وَقَدْ أَنْشَأَ مَدارِسَ كَثيرَةً . وَبَنى كَنائِسَ عَديدَةً ، لا يَزالُ بَعْضُها قائِماً إِلى يَوْمِنا هٰذا .

وَعامَلَ شارلَمانُ أَصْدِقاءَهُ بِأَعْظَمِ ٱلاحْتِرامِ . وَلَمْ يَكُنْ يَتَناوَلُ الطَّعامَ إِلاّ مَعَ أَوْلادِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يُسافِرُ إِلاّ مُسْتَصْحِباً

---

(١) يستقصي : يبلغ الغاية في الطلب والبحث . (٢) أكرههم على الأمر : حملهم عليه قهراً .



شارلمان يزور إحدى المدارس

أَوْلادَهُ، فَيَرْكَبُ أَبْناؤُهُ مَعَهُ، وَتَتْبَعُ بَناتُهُ في السَّاقَةِ[١]. وَكانَتْ بَناتُهُ عَلَى جانِبٍ مِنَ الْجَمالِ، وَكانَ أَبوهُنَّ يُحِبُّهُنَّ كَثيراً، والْغَريبُ أَنَّهُ أَبى أَنْ يُزَوِّجَهُنَّ أَحَداً، وَاسْتَبْقاهُنَّ في مَنْزِلِهِ حَتَّى مَماتِهِ، زاعِماً أَنَّهُ لا يَقْوى عَلَى مُفارَقَتِهِنَّ والتَّخَلِّي عَنْ عِشْرَتِهِنَّ. وَكانَ مُعْتَدِلاً في احْتِساءِ[٢] الْخَمْرِ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يُحِبُّ الشِّواءَ[٣].

وَلَمْ يَكْتَفِ شارْلَمانُ، الرَّجُلُ الْحَديدِيُّ، أَنْ يَكونَ مُتَسَلِّطاً عَلى الْمَمْلَكَةِ نَفْسِها، الَّتي تَسَلَّطَ عَلَيْها أَبوهُ قَبْلَهُ، وَلٰكِنَّهُ كَأَبيهِ، قَضى مُعْظَمَ حَياتِهِ مُحارِباً. وكانَ هَمُّهُ الأَكْبَرُ أَنْ يَضُمَّ الشَّعْبَ الْجِرْمانِيَّ كُلَّهُ، ويُكَوِّنَ مِنْهُمْ إِمْبَراطورِيَّةً عَظيمَةً، وَيَحْمِلَهُمْ عَلى تَرْكِ دينِهِمِ الْوَثَنِيِّ، والتَّدَيُّنِ بِالنَّصْرانِيَّةِ. وَقَدْ نَجَحَ في مَسْعاهُ هٰذا، وَأَخْضَعَ السَّكْسونِيّينَ، الَّذينَ كانوا مُسْتَوْلِينَ عَلى مُعْظَمِ جِرْمانيا، وَنَصَّرَهُمْ. ثُمَّ أَغارَ عَلى لُمْبَرْدِيا في إِيطاليا، نُزولاً عَلى رَغْبَةِ الْبابا، فَكَسَرَ اللُّمْبَرْدِيّينَ، وَغَدا مَلِكاً عَلى

---

(١) الساقة : مؤخرة الجيش . (٢) احتسى الخمر : شربها شيئاً بعد شيء .
(٣) الشواء : ما شوي من اللحم ونحوه .

لُمْبَرْدِيا. وَأَخْضَعَ السِّلافِيِّينَ وَالبوهِيمِيِّينَ أَيْضاً. واسْتَنْجَدَتْ بِهِ[١] إِسْبانِيا عَلى أَعْدائِها المَغارِبَةِ، فَذَهَبَ إِلى هُناكَ وَاسْتَولى عَلى جانِبٍ مِنَ البِلادِ. وَكانَ عَلى أَتَمِّ وِفاقٍ مَعَ الخَليفَةِ هٰرونَ الرَّشيدِ، وقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ هٰذا الخَليفَةُ هَدِيَّةً، في جُمْلَتِها فيلٌ.

وَفي سَنَةِ ثَمانِيَ مِئَةٍ، رَحَلَ شارْلمَانُ، أَعْظَمُ أُمَراءِ أُورُبّا، وَبَطَلُ العُصورِ الوُسْطى، إِلى رومِيَةَ لِلمَرَّةِ الرّابِعَةِ لِيُوَطِّدَ سُلْطَةَ البابا، لاوُنَ الثّالِثِ. وَذَهَبَ، في صَباحِ يَوْمِ عيدِ ميلادِ السَّيِّدِ المَسيحِ، إِلى كَنيسَةِ القِدّيسِ بُطْرُسَ لِيُصَلِّيَ. وَكانَ عُمْرُهُ وَقْتَئِذٍ ثَمانِيَ وَخَمْسينَ سَنَةً. فَأَرادَ البابا أَنْ يُكافِئَهُ عَلى ما أَسْلَفَ[٢] مِنَ الجَميلِ، وَأَنْ يُعْلِنَ لِلعالَمِ أَنَّ شارْلمَانَ نَصيرُهُ وَمُحامِيهِ. فَدَنا مِنْهُ، وَهُوَ ساجِدٌ في تِلْكَ الكَنيسَةِ العَظيمَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَدْرِيَ شارْلمَانُ بِما كانَ يَجْري، وَضَعَ عَلى رَأْسِهِ تاجاً مِنَ الذَّهَبِ. وَفي الحالِ هَتَفَ المَحْفِلُ بِصَوتٍ واحِدٍ، مُرَدِّداً تِلْكَ الكَلِماتِ القَديمَةَ، الَّتي كانَ أَباطِرَةُ الرّومانِيّينَ يُحَيَّوْنَ بِها فيما مَضى، وَهِيَ:

---

(١) استنجدت به: استعانت. (٢) أسلف: قدم.

„ أَلْحَيَاةُ والنَّصْرُ لِشارْلَ ، لِأَغُسْطُسَ ٱلْكُلِّيِّ التَّقْوى ، مُتَوَّجِ الرَّبِّ ، لِإِمْبَراطورِ الرّومانِيِّينَ العَظيمِ ، مُحِبِّ السَّلامِ ".

وَهٰكَذا بُعِثَتْ[1] سُلْطَةٌ جَديدَةٌ مِنْ بَيْنِ ٱلْأَنْقاضِ[2] والفَوْضى[3] ، وَعادَتِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةُ ٱلعَظيمَةُ ، الَّتي سَقَطَتْ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وأَرْبَعِ مِئَةٍ إلى ٱلْحَياةِ ، وَظَلَّ ٱلِاسْمُ عَلى ٱلأَقَلِّ قائِماً ، إلى أَنْ قَضى نابوليُونُ عَلى هٰذِهِ الإِمْبَراطورِيَّةِ ٱلقَضاءَ التّامَّ.

وَكانَ بَيْنَ جُنودِ شارْلَمانَ جَماعَةٌ مِنْ عُظَماءِ ٱلفُرْسانِ ، يُدْعَوْنَ بَلادينَ (أَيْ رِجالَ ٱلقَصْرِ) . وكانَ بَيْنَ هٰؤُلاءِ شابّانِ ، تَوَثَّقَتْ[4] بَيْنَهُما عُرى الصَّداقَةِ ، يُدْعَوانِ أُولِفْيِهْ وَرولانَ . وَقَدْ خَصَّ ٱلمَليكُ هٰذَيْنِ ٱلفارِسَيْنِ بِعَطْفِهِ . وكانَ رولانُ ٱبْنَ أُخْتِ شارْلَمانَ . وَقَدْ أَعْلَمَنا شُعَراءُ ذٰلِكَ الزَّمَنِ أَنَّ شارْلَمانَ أَعْطى الشّابَّ قَرْنَ صَيْدٍ ، وَوَعَدَهُ أَنْ يُبادِرَ لِمُساعَدَتِهِ إذا وَقَعَ في ضيقٍ ، وَنَقَرَ[5] في ذٰلِكَ القَرْنِ .

وقَدِ ٱضْطُرَّ شارْلَمانُ ذاتَ يَوْمٍ ، بَعْدَ أَنْ قامَ بِأَعْمالٍ كَثيرَةٍ

---

(١) بعثت : أقيمت وأثيرت . (٢) انقاض جمع نقض (بضم النون) ما انتقض من البنيان. (٣) الفوضى : الاختلاط . (٤) توثقت : تقوت . (٥) نقر في البوق : نفخ .

مَجيدَةٍ في إسْبانِيا، أَنْ يَرْتَدَّ إلى الجِبالِ الفِرَنْسَوِيَّةِ، وَغادَرَ رولانَ وَأُولِفْيِهْ في حِراسَةِ ساقَةِ[1] الجَيْشِ. وَقادَ الفارِسانِ رِجالَهُما في شِعْبٍ[2] رُنْسِفُو الصَّخْرِيِّ الطَّويلِ. وَفيما هُمْ يَتَسَلَّقونَ الجَبَلَ، سَمِعوا زَمْزَمَةَ[3] أَصْواتٍ عَديدَةٍ صاعِدَةً إِلَيْهِمْ. فَأَطَلّوا فَإِذا الوادي دونَهُمْ مُزْبَئِرٌّ[4] بِالرِّماحِ. وَكانَ أُولئِكَ هُمُ المَغارِبَةَ. فَقالَ أُولِفْيِهْ:

— ما عَسانا أَنْ نَصْنَعَ؟

فَأَمَرَّ رولانُ يَدَهُ عَلَى سَيْفِهِ، وَكانَ قَدْ دَعاهُ دورَنْدالَ (أَيِ الخالِدَ)، وَأَجابَ:

— نَسْتَريحُ ثُمَّ نَقومُ بِواجِبِنا.

فَقالَ صَديقُهُ:

— كَلاَّ يا رولانُ، إِنَّنا في عَدَدٍ قَليلٍ، والعَدُوُّ كَثيرٌ. فَانْقُرْ في قَرْنِكَ يا صاحِ، وادْعُ المَلِكَ.

فَانْتَفَضَ رولانُ مُتَشامِخًا[5] وَقالَ:

— أَبى اللهُ أَنْ أَنْقُرَ في قَرْني، وَأَفْقِدَ ما لي مِنَ الصِّيتِ والذِّكْرِ.

---

(١) ساقة الجيش: مؤخرته. (٢) الشعب: الطريق في الجبل. (٣) الزمزمة: الضجيج
(٤) المزبئر: المتنفش. (٥) المتشامخ: المتكبر.

ثُمَّ أَهابَ[1] بِرِجالِهِ فَكَرّوا[2] وانْحَدَروا في الجَبَلِ وَراءَ رايَتِهِ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَراءِ الصُّخورِ مِئاتٌ مِنَ المُقاتِلينَ المُسَلَّحينَ، بَيْدَ أَنَّ دورَنْدالَ أَبْلى[3] خَيْرَ بَلاءٍ فارْتَدَّ العَدُوُّ. وَإِذا بِثَلاثينَ أَلْفاً مِنَ المَغارِبَةِ يَتَدَفَّقونَ مِنَ الوادي لِنَجْدَةِ[4] أَصْحابِهِمْ.

فَحارَبَ الفِرَنْكِيّونَ ساعاتٍ، وَسَقَطَ مِنْهُمُ الواحِدُ بَعْدَ الآخَرِ، وَلَكِنَّ رايَةَ رولانَ النّاصِعَةَ[5] البَياضِ ظَلَّتْ تَخْفُقُ[6] في الهَواءِ. وَسَقَطَ أُولِفْيِهْ مَيِّتاً، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ رولانَ سِوى القَليلِ مِنْ صَحْبِهِ الأُمَناءِ. وَكانَتْ وُجوهُهُمْ قَدْ شَحُبَتْ[7]، وَسَواعِدُهُمْ قَدْ كَلَّتْ[8]. فَهَمَسَ[9] أَقْرَبُ المُقاتِلينَ إِلى رولانَ وَقالَ:

— رولانُ! رولانُ! أُنْقُرْ في قَرْنِكَ.

فَرَفَعَ رولانُ قَرْنَهُ وَنَقَرَ نَقْرَةً، تَرَدَّدَ[10] صَداها في الوادي، وَحَمَلَتْها النَّسيمُ إِلى شارْلَمانَ. فَصاحَ المَلِكُ، وَأَصابِعُهُ إِلى شَفَتَيْهِ:

— صَهْ! إِنّي أَسْمَعُ قَرْنَ رولانَ.

---

(١) أهاب برجاله: دعاهم. (٢) كروا: رجعوا وعطفوا (٣) ابلى في الحرب: اظهر بأسه (٤) النجدة: المعونة. (٥) الناصعة البياض: الشديدة البياض. (٦) تخفق: تضطرب. (٧) شحب وجهه: تغير من هزال ونحوه. (٨) كل ساعده: تعب وأعيا. (٩) همس: قال بصوت خفي. (١٠) تردد: ترجع.

بَيْدَ أَنَّ رِجالَ ٱلحاشِيَةِ، وَكُلُّهُمْ قَدْ أُوغِرَ(١) صَدْرُهُ عَلَى ٱلفارِسِ الشّابِّ، لِما نالَهُ مِنَ ٱلحُظْوَةِ(٢) لَدى ٱلمَليكِ، ضَحِكوا وَقالوا:

— كَلاّ يا مَوْلانا، إِنَّهُ هَزيزُ(٣) الرّيحِ لَيْسَ إِلاّ.

وَساوَرَ(٤) القَلَقُ شارْلَمانَ، غَيْرَ أَنَّ رِجالَ ٱلحاشِيَةِ شَغَلوهُ ساعَةً أَوْ بَعْضَ ساعَةٍ، سَمِعَ بَعْدَها نَقْرَةً، أَعْلى مِنَ ٱلأُولى وَأَمَدَّ. فَوَثَبَ شارْلَمانُ قائِماً، وَقَبَضَ عَلى سَيْفِهِ وَصاحَ:

— إِنَّهُ قَرْنُ رولانَ! إِنَّهُ قَرْنُ رولانَ!

وَعادَ رِجالُ ٱلحاشِيَةِ وَقالوا:

— إِنَّكَ واهِمٌ(٥) يا مَوْلانا، فَرِجالُنا لا يُقاتِلونَ ٱليَوْمَ، وَأَكْبَرُ ظَنِّنا أَنَّ رولانَ يَصْطادُ في ٱلغاباتِ.

وَعَلَى حينِ بَغْتَةٍ، أَقْبَلَ إِلى مُعَسْكَرِ شارْلَمانَ ساعٍ، يَحْمِلُ نَبَأَ تِلْكَ ٱلمَعْرَكَةِ ٱلعَظيمَةِ. وَفيما هُوَ يَتَكَلَّمُ سُمِعَتْ نَقْرَةٌ ضَعيفَةٌ مِنْ قَرْنِ رولانَ، فَكانَتْ كَأَنَّها صَرْخَةُ ٱسْتِنْجادٍ أَخيرَةٌ. فَصاحَ شارْلَمانُ، وَقَدِ ٱغْرَوْرَقَتْ(٦) عَيْناهُ:

---

(١) اوغر صدره: اوقده من الغيظ. (٢) الحظوة: المكانة (٣) هزيز الريح: دويها. (٤) ساوره القلق واثبه. (٥) واهم: مخطىء في الحسبان (٦) اغرورقت عينه: دمعت كأنها غرقت في دمعها.

— آهِ يا رولانُ ! يا فارِسي الشُّجاعَ ! لَقَدْ أَبْطَأَتْ[1] عَلَيْكَ بِالنَّجْدَةِ طَويلاً .

ثُمَّ وَثَبَ إِلى ظَهْرِ جَوادِهِ ، فَانْدَفَعَ بِهِ إِلى شِعْبِ رُنْسِفُو . فَأَلْفى رولانَ هُناكَ طَريحاً ، مُوَلِّياً وَجْهَهُ شَطْرَ[2] إِسْبانِيا ، وَقَرْنُهُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ يَدِهِ ، وَسَيْفُهُ إِلى جانِبِهِ مَكْسوراً ، وَالأَرْضُ حَوْلَهُ تُغَطِّيها جُثَثُ أَصْحابِهِ وَأَعْدائِهِ . فَجَثا شارْلَمانُ ، وَقَبَّلَهُ مُنْتَحِباً وَقالَ :

— لِماذا أَسْلَمْتُكَ إِلى الْهَلاكِ يا فَخْرَ الفِرَنْسِيِّينَ ! ... كَيْفَ أَراكَ صَريعاً وَلا أَموتُ مَعَكَ ؟

وَقَدْ أَعْلَمَنا الشُّعَراءُ ، الَّذينَ كَتَبوا قِصَّةَ رولانَ ، أَنَّ الشَّمْسَ نَفْسَها تَلَبَّثَتْ[3] في سَمائِها ، لِتَشْهَدَ انْتِقامَ الْمَلِكِ مِنَ الْمَغارِبَةِ وَأَحْلافِهِمْ[4] ، لإِيقاعِهِمْ[5] بِالفِرَنْسِيِّينَ في رُنْسِفو .

وَقَضى شارْلَمانُ بِذاتِ الْجَنْبِ[6] ، في الرّابِعِ وَالعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ كانونَ الأَوَّلِ ، سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ بَعْدَ الْمِئَةِ الثّامِنَةِ ، في

---

(١) أبطأ عليه بالنجدة : أخر المعونة . (٢) ولى وجهه شطر المكان : جعله تلقاءه .
(٣) تلبثت : توقفت . (٤) الأحلاف : الاصدقاء المتحالفون . (٥) اوقع به : بالغ في قتاله .
(٦) ذات الجنب : مرض ، وهو التهاب غلاف الرئة .

السَّنَةِ الثَّانِيَةِ والسَّبْعينَ مِنْ عُمْرِهِ، والرّابِعَةَ عَشْرَةَ لِمُلْكِهِ كَإِمْبَراطورٍ. وَلَمْ يَكُنِ الَّذينَ خَلَفوهُ عُظَماءَ نَظيرَهُ، فَلَمْ تَلْبَثْ إِمْبَراطورِيَّتُهُ الْعَظيمَةُ أَنْ عاجَلَها الِانْقِسامُ.

وَقَدْ بَدا مَوْتُ هٰذا الإِمْبَراطورِ الْعَظيمِ لِمُعاصِريهِ[1] أَكْبَرَ مُصابٍ، نَزَلَ بِالْبَشَرِيَّةِ، مُنْذُ الطّوفانِ. وَفي الْواقِعِ أَنَّ الْعُصورَ الْمُظْلِمَةَ قَدِ ازْدادَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ ظَلاماً.



تم الجزء الأول

(١) المعاصرون: العائشون في زمن واحد.

جدول الأزمنة التاريخية

قبل المسيح — العهد الحجري

٤٠٠٠ — التقويم الأول في مصر

٣٥٠٠ — بدء حياة الحضارة فيما بين النهرين

٣٠٠٠ — عصر الأهرام

٢٥٠٠ — سرغون الأول

٢٠٠٠ — ابراهيم . حورابي

عهد الاقطاع في مصر

عصر كريت الذهبي

الامبراطورية فى مصر (١٥٨٠)

١٥٠٠

خروج الاسرائيليين من مصر

حرب طروادة

قبل المسيح

نهاية مجد مصر وابتداء مجد فينيقية

١٠٠٠ — الملك داود

تأسيس رومية

خـراب نينوى (٦١٢)

نشأة البوذية والكنفوشية والزردشتية

خراب اورشليم (٥٨٧)

٥٠٠ — الجمهورية في رومية . داريوس الكبير

حرب مرتون

عصر اثينا الزاهر

الاسكندر الكبير

هنيبال في ايطاليا

الرومانيون يستولون على اورشلم (٦٣)

يوليوس قيصر

مولد المسيح

بعد المسيح

الرومانيون يدمرون اورشليم (٧٠)

رومية ابان مجدها

قسطنطين الـكبير

غزوات البرابرة

٥٠٠ — سقوط رومية

٦٠٠ — نشأة الاسلام

الاستيلاء على بيت المقدس

٨٠٠ — شارلمان يتوج إمبراطوراً

فهرس الجزء الاول

الصفحة

